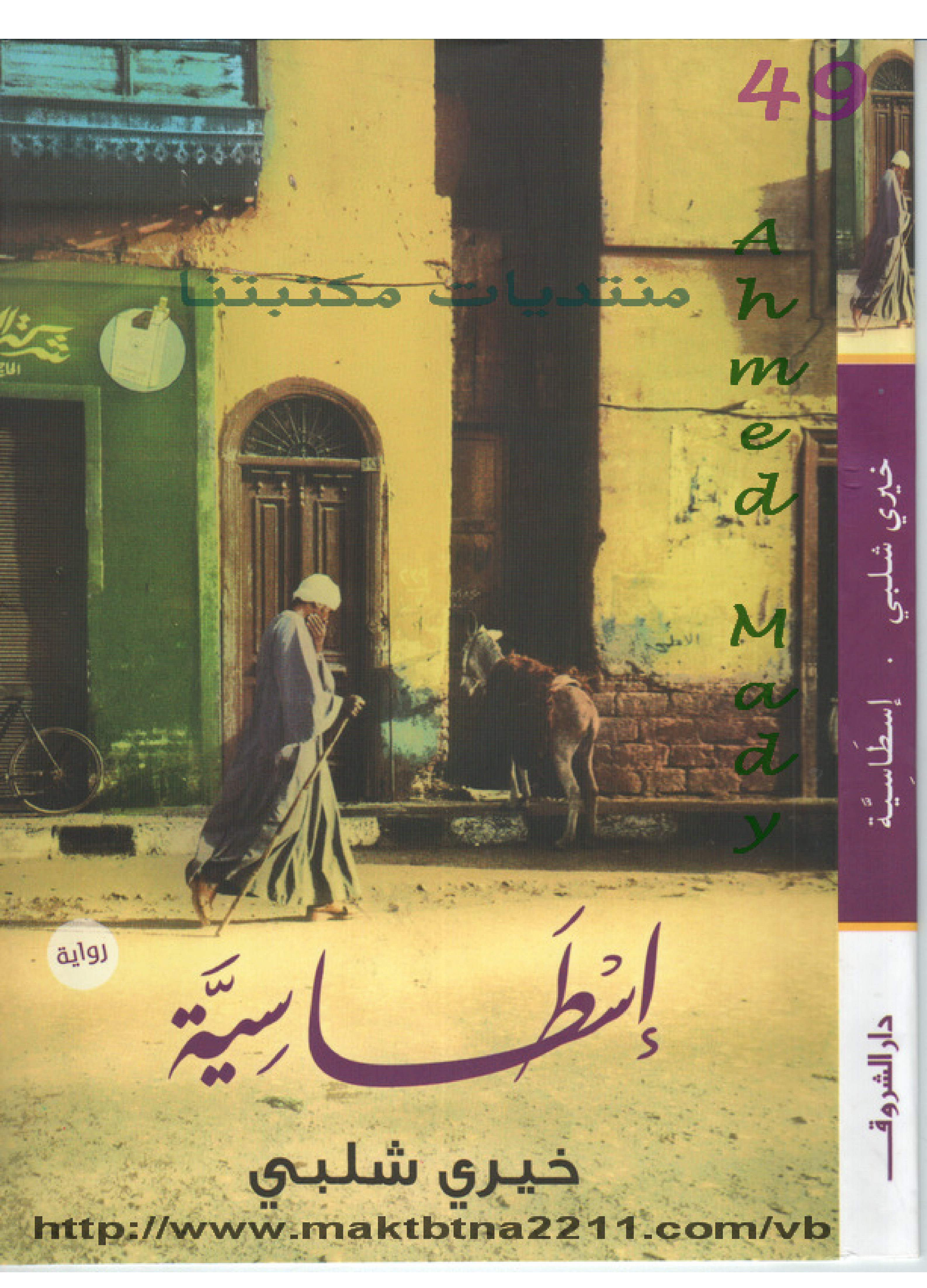

49
منتديات مكتبتنا
Ahmed Maady
رواية
إسطاسية
خيري شلبي
http://www.maktbtna2211.com/vb
خيري شلبي • إسطاسية
دار الشروق

إسطاسية

«إسطاسية» هي أرملة المقدس جرجس غطاس، تعيش في إحدى القرى النائية بكفر الشيخ، قُتل ولدها محفوظ الحلاق فاشتعلت نارها وأصبحت تخرج كل يوم مع الفجر تصرخ وتناديه. وهناك بالأسفل تشتعل الصراعات والحكايات بين «حمزة البراوي» راوي الحكاية وبطلها الآخر الذي درس الحقوق وفشل في أن يصبح قاضيًا لتاريخ عائلته في القتل والإجرام، والعمدة «عواد البراوي» عم حمزة وشريك محفوظ في ماكينة الطحين، ومن ناحية أخرى هناك الجزار «عبد العظيم عتمان» المتهم بقتل حمزة، والذي برأته المحكمة لنظل نحن في حيرة بشأن ذلك القاتل المجهول. حكايات متتالية يجيد غزلها الكاتب الكبير خيري شلبي، فيشكل منها عالمًا سحريًا يغري بمتابعة تفاصيله الأخاذة، ويكشف أسرار تلك الأركان المنزوية من ريفنا وذواتنا التي لا تتوقف عن التغيير.

خيري شلبي واحد من أهم كتاب الرواية في العالم العربي. حائز على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ٢٠٠٥. له أكثر من سبعين كتابًا ما بين الرواية والقصة والمسرحية والدراسة، من أشهرها: «وكالة عطية» و«صالح هيصة» وثلاثية «الأمالي» و«زهرة الخشخاش» و«نسف الأدمغة»، و«صحراء المماليك». وقد تُرجمت أعمال خيري شلبي إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والصينية والكورية والأردية.

Wed. 31 Mar.
2010
Riyadh
KSA

دار الشروق
www.shorouk.com
6 221102 025270

خيري شلبي • إسطاسية

دار الشروق

خيري شلبي



رواية

منتديات مكتبتنا

دار الشروق

واحد اتنين شرجي مرجي

إنت حكيم ولا تمرجي

أنا حكيم الصحيه

العيان أديله حقنه

والجعان أديله لقمه

يا رب أزورك يا نبي

يا للي بلادك بعيده

فيها أحمد وحَميده

حميده ولدت ولد

سمّاته عبد الصمد

مشّاته ع المشايه

خطفت راسه الحدايه

حِدّ حِدّ يا بوز القرد

«أغنية شعبية مصرية عريقة»

حطيت على القلب إيدي   وأنا بـــاودع وحيـــدي

وأقول يا عـين اسـعفيني   يا عـين وبالدمـع جودي

«بيرم التونسي»

(١)

إحيـــاء النـــار

في النهار تخمد النار ويضمحل الوهج المشتعل؛ لكن جميع أهل بلدتنا وأهالي البلاد المجاورة لها والتابعة لعموديتها: منية الكردي وعزبة نصيف ومنشية العرب وعزبة الحجر ونجع النصارى ومحلة أبو مريكب.. كلهم يعرفون أنه خمود مؤقت، وأن الجمرات المستورة بالرماد في القصعة فوق سطح دار إسطاسية في عزبة الحجر - المقامة كلها فوق تل جبلي صخري - سوف تنفض عن نفسها الغطاء وسرعان ما تلتحم بالريح الغاضبة في وقت معلوم، حيث تشب ألسنة اللهب المزرقة الأطراف من فرط الاحمرار، فتبدو لقاطني البلدان المترامية في السفوح كأنها موقدة من جهنم العظمى كي تنذر الناس بالهول نتيجة ذنب لا يغتفر ارتكبه مجهول من بينهم.

النار تصحو قبل أذان الفجر بقليل. ما تكاد ألسنة اللهب تزيح ستائر الدخان الكثيف وتظهر في الفضاء سافرة عارية فوق دار إسطاسية أرملة المقدس جرجس غطاس حتى يتأكد كل من كان في

الخلاء لحظتها أن الفجر قد وجب. إن هي إلا لحظات ويرتفع صوت المؤذن باستغاثة الفجر الأبدية كلاما ونغما وأداء: يا رب بالمصطفى بلغ مقاصدنا واسمح لنا بالرضا يا واسع الكرم.. إلخ، تضخ مشاعر الخضوع والخشوع والرهبة في الأفئدة الراقدة ما بين النوم واليقظة، وفي جميع الأشياء والكائنات التي تبدو كلها في حالة ورع تسبح بحمد خالقها، تتصايح الديكة، تزيّق البوابات الثقيلة وهي تنزاح عن فُرجة يخرج منها الرجال إلى المسجد، وتخرج النسوة إلى الخلاء يدلقن بلاليص مياه الاستحمام ذات الرائحة العطنة الكريهة، المريبة والمبهجة في آن؛ وأخريات يتسللن بالبلاليص الفارغة ليملأنها من الترع أو من أحواض السواقي القريبة. دور كثيرة قميئة تمتد على مساحات شاسعة، تربض في أماكنها منذ آلاف السنين تحت الشجر والنخيل، منظرها الكابي يوحي بالعراقة وبالهوان معا. قرى وعزب وكفور منسوبة لقبائل عربية ولعصور فرعونية موغلة في القدم.

كل أهالي هذه البلدان المتجاورة الملمومة على بعضها متصلة الحدود والزمامات والشياخات والعلاقات والأوضاع والمصالح والأسرار مهما كانت خافية.. أصبحوا يتجرعون مرارة محنة الأرملة التعيسة إسطاسية، يتألمون لمصابها ولكن ما باليد حيلة، حُرقة بكائها تتسرب إلى أفئدة النساء فينخرطن في بكاء صامت حراق تتخلله عبارات أسيفة من قبيل: «لا حول ولا قوة إلا بالله! اللهم ألهمها الصبر! ربنا يعوض عليك يا إسطاسية!». ولقد يأخذ التأثر العميق ـ لفرط عمقه ـ شكل الحنق وربما الضغن إلا أنه في النهاية محاولة لدرء الشعور بالخطر المجهول الذي يتخايل شبحه دائمًا عندما تقع في الحياة مَظلمة صارخة كهذه التي وقعت لإسطاسية منذ شهور

طويلة مضت وبقيت نارها عصية على الانطفاء. يبرطم الرجال السارحون إلى الغيطان مبكرًا بعبارات من قبيل: «يا ولية فضيها سيرة بقى! إحنا ناقصينك؟!»؛ إلا أن مثل هذه العبارة تخرج من حنك صاحبها مبللة بالدمع السخين. أما الديكة فإنها أشد تعاطفًا مع إسطاسية، ما تكاد تسمع صوتها يستنزل اللعنات على من فجعها في ابنها الوحيد حتى تجاوبها من أعمق أعماقها بصيحات ممطوطة كالزفير المثقل بهطيل الدمع.

يرتفع أوار النار، يعلو زئيرها وصريخها بشكل ينذر بخطر يحرق البلدان كلها. تتفرع ألسنة اللهب مع وهج الاستغاثة وجلجلة التكبيرات المؤكدة بأن الصلاة خير من النوم. عندئذ تكون إسطاسية قد دخلت في صُلب النار، صارت لها عشرات الألسنة الحادة الملتهبة، وصارت هي قريبة من السماء، تتطاير منها العبارات الملتهبة المكلومة إلى الفضاء كذرات من المشاعر المنصهرة في صدرها، صورًا من الوجع الشعوري الأليم، بمرارة الفقد والحرمان تقول: فيك يا من قتلت ولدي.

في حالة من الروع والترقب تنكمش البلدان على نفسها طوال الساعات الأولى من كل يوم. يترقب الناس حركة الناس، يصيخون السمع لعواء الكلاب الذي يقال عنه إنه ارتياع من رؤية الكلب لعزرائيل قابض الأرواح. لقد بات الناس على يقين جازم بأن الله سبحانه وتعالى سوف يستجيب لدعوات إسطاسية ويهلك من فجعها في وحيدها؛ سيما وأنها بعد إذ يئست من وجود العدل بين البشر تقدمت بمظلمتها إلى باب السماء مكتوبة على ألسنة اللهب؛

ذلك أنهم على يقين أشد رسوخًا من أن مَن يطرق باب الكريم على هذا النحو الضارع الفاجع لا بد وأن تنصفه عدالة السماء. وعلى الرغم من أنهم إن لم يكونوا على علم بالفاعل فإنهم على الأقل قادرون بالخبرة والفطنة على استنتاجه؛ فإنهم مع ذلك باتوا جميعا يخشون انتقام المنتقم الجبار؛ كأنهم جميعًا قد شاركوا في الجريمة بصورة أو بأخرى.

منتديات مكتبتنا

(٢)

صدمة العائد

دارنا في منية الكردي هي أكثر الدور توترًا في بلاد الناحية كلها من استمرار إسطاسية في هذا المشهد المأساوي الذي يصطبح به أهالينا كل يوم فيمتعضون من شدة الكرب الذي تشيعه في قلوبهم من فرط لوعتها؛ لكأنها تطلق أعيرة نارية متتالية في الهواء الطلق بات كل واحد يخشى بل يتوقع أن تخترق إحدى الطلقات جدران داره فتصيبه أو تصيب أحدًا من عياله الذين لا ذنب لهم. كل الناس لا ذنب لهم ولكنهم باتوا أشد رعبا من عصابة الإجرام التي اغتالت محفوظ جرجس غطاس ابن إسطاسية، ولسوف يبقون في رعب مقيم ما لم ينكشف المستور عن الجاني.

كنت غائبًا عن البلدة طوال السنة الدراسية في كلية الحقوق بجامعة الإسكندرية. خلالها وصلتني طراطيش أخبار عن مقتل محفوظ الذي كان - فيما أعرف - شريكًا لعمي العمدة عواد البراوي في ماكينة للطحين وأخرى لضخ المياه. كان ذلك في أول العام، وفي

آخره ـ وأنا في معمعة الامتحانات ـ علمت أن القضية قد نظرت في المحكمة وحصل المتهمون الذين اتهمتهم إسطاسية على حكم بالبراءة لعدم ثبوت الجريمة ضدهم. ولكنني ما إن عدت فرحا بحصولي على ليسانس الحقوق حتى فوجئت بجو البلدة مزدحما بالغيوم السوداء. فوجئت كذلك بكدر يحط على دارنا إلى حد الشعور بالخنقة بين جميع أفرادها كبارًا وصغارًا، رجالاً ونساء. ومع ذلك لاحظت أن دارنا من أكثر الدور في بلدتنا تظاهرا ـ إلى حد الإتقان المقنع ـ بأن الأمر ليس يعنيها في كثير أو قليل بل كأن شيئًا لم يحدث. لقد لفت نظري هذا الأمر فتساءلت في قلق: لماذا يبدو على جميع أفراد عائلتنا أنهم لا يحبون فتح هذه السيرة من الأساس؛ فإن فتحت أمام أحدهم ولو بشكل عفوي يتجاهلها لائذًا بالصمت أو بالقفز على موضوع آخر؟!.. وعزوت ذلك إلى حساسية الموقف بالنسبة لدارنا من جهتين: الأولى.. كون عمي عواد البراوي هو عمدة البلدة التي وقعت الجريمة في زمامها، والثانية.. أن القتيل كان شريكًا لعمي العمدة نفسه. وعلى كل حال فهذه القدرة على التماسك في مواجهة الشدائد ليست غريبة على عائلتنا وبخاصة عمي العمدة عواد البراوي، وولديه عمار وعبد الغني، وكذلك عمي الأكبر عابد البراوي وأولاده مصطفى وجودة وعبد المعبود وجمال؛ كلنا في الصبر على الشدائد صور صغيرة أو كبيرة من أبي الشيخ حامد البراوي رحمه الله رحمة واسعة؛ كان كبير العائلة وعميدها وإمام البلدة ومأذونها وخطيب مسجدها الكبير طوال خمسين عامًا ارتفعت فيها عائلتنا من بدو رُحَّل إلى فلاحين من ذوي الأملاك، إلى عائلة خصيبة بالرجال مرهوبة الجانب مشهورة بالتقى والورع.

غير أن أشد ما بات يؤلمني ويحرق دمي منذ عودتي من الإسكندرية، هذه النظرات الخبيثة الخنِسة، التي يرشقها الناس في ظهور وأقفية أبناء عمومتي، نظرات جبانة مسمومة تنوء بحمولات ثقيلة من معاني السخرية والاستهزاء بهذا المظهر المحترم الذي تغالي فيه عائلتنا. هذه النظرات الغريبة لم تكن لتجرؤ على الحملقة في واحد من عائلتنا في حياة أبي الشيخ حامد البراوي الشهير بأبي حمزة. المؤلم أنها نظرات تكاد تتهمنا صراحة بأننا مسئولون بشكل أو بآخر عن مقتل محفوظ ابن إسطاسية؛ فإن لم يكن لنا فيه دخل مباشر، على اعتبار أنه شريك للعمدة ومن ثم فإن اغتياله يعتبر تنكيلا بالعمدة نفسه، ناهيك عن أن السبب في قتله كونه شريكًا للعمدة كما يشاع. إن لم يكن الأمر كذلك فعلى الأقل بالإهمال والطرمخة على الجناة الحقيقيين الذين لا شك - من وجهة نظر الناس - أن عمي العمدة يعرفهم أو حتى يعرف كيف يكشفهم باعتباره خبيرا بخط البراري كله.

من فرط غضبي من هذه النظرات أصبحت على قناعة بأنها إن لم يردعها رادع ما، فلربما تطورت فيما بعد إلى أداة ابتزاز للعائلة. إلا أنني في نفس الوقت أراني ألتمس الأعذار للناس؛ فلقد باتوا يتعجلون ظهور الجناة والاقتصاص منهم حتى تنطفئ نار إسطاسية وتعفيهم من ألسنة اللهب التي أصبحت تحرق قلوبهم وتشعرهم بأنهم مشاركون في الجريمة بصمتهم ومن ثم فإن عقاب الله قد يطالهم قبل أن يطال الجاني. أنا شخصيًا أصبحت أشد منهم شعورًا بالعذاب والخطر والرغبة الحارقة في تحقيق العدالة لصالح هذه المرأة الثاكلة التعيسة.. وإني لواثق في أن ضراعتها بهذه الكلمات التي هي أقوى من اللهب إذا كانت قد أثارت فينا كل هذه العاطفة المرعبة من

الإشفاق والرهبة فما بالك بالله سبحانه وهو أعدل العادلين وأرحم الراحمين؟!

أمي - وهي بندرية من مدينة طنطا - يعتريها الشعور بالفخر بأنها أنجبت ولدًا يغار على عائلته ويغضب من أي شيء يمس سمعتها. يحلو لها أن تتأملني في مثل هذه اللحظات وعلى شفتيها ابتسامة رضاء وعطف؛ فيما يتعكر صفو عينيها فجأة، فألمح في إنسانيهما عبارة أسيفة لو نطقت لقالت: بس يا خسارة! وعندما تراني قد أبحرت في عينيها الحزينتين تأخذني في صدرها تحتويني دامعة وهي لا تني تطلق الزفرات، فيتسرب إلى قلبي شعور يهمس في أعطافي بأنها ربما أصبحت تستخسرني في هذه العائلة التي أعرف جيدًا أنها - منذ رحيل أبي الشيخ حامد البراوي - لم تعد راضية عن تصرفاتها بأي حال من الأحوال. لقد ولدت أمي وتربت في مدينة طنطا لأم طنطاوية ذات أصول مغربية بعيدة ربما ترجع إلى زمن مجيء السيد أحمد البدوي إلى طنطا؛ تزوجها أبونا - الذي يمت إلى البراوية بصلة قربى من جهة ما لست أذكرها - من بنات شريك له في مصنع حلوى كبير شهير لا يزال مزدهرًا إلى اليوم ليس في أسواق المدينة فحسب بل على تفريعات الطريق الزراعي المتاخمة لها. وكان أبي الشيخ حامد البراوي طالبا في المعهد الديني بطنطا؛ وبما أن جدي لأبي كان وثيق الصلة بالحاج محمود القصبي ذاك الحلواني؛ فإن أبي حين التحق بالمعهد في منتصف عشرينيات القرن العشرين أصبح الحاج محمود القصبي وصيا عليه؛ جهز له غرفة خاصة بمنافعها فوق سطح عمارته القديمة قرب المسجد الأحمدي، وكانت خادمتهم تباشر خدمته؛ وفي مقابل ذلك كان بيت القصبي ينال من نفحات جدي خيرًا وفيرًا في زيارات شهرية حافلة

بالأرز والسمن واللبن والعسل والجبنة واللحم الطازج أحيانًا، ناهيك عن الطيور المذبوحة. وكان طبيعيًا أن هذه الأسرة تحب أبي بعد إذ تأكدت من حسن تربيته ومن أخلاقه الحميدة واجتهاده وأدبه. وكانت أمي في ذلك الزمان تلميذة في الشهادة الابتدائية في سن التفتح الغض؛ فوقعت في حب أبي ووقع هو في حبها. الأهل من الطرفين باركوا نمو هذا الحب عن طيب خاطر وترحيب.. فما أن حصل أبي على شهادة العالمية من الأزهر الشريف في سن مبكرة أشبه بالمعجزة بالنسبة للتعليم الأزهري آنذاك؛ حتى تراسلت الأطراف، سافرت الوفود، تمت الخطوبة، فالشبكة، فالحنة، فالدخلة في بحر عام واحد، لتصبح أمي سيدة هذه الدار الأولى بعد رحيل حماتها؛ باتت السيدة الأولى في بلدتنا كذلك، ساعدتها ثقافتها ولباقتها في أن تتألق شخصيتها في حل مشاكل الزواج والطلاق وما يحدث بين النسوان وحمواتهن من نزاعات أزلية؛ كل ذلك كانت ماهرة في علاجه وفي مداواة النفوس الجريحة منه. أما أبي، فبعد حصوله على شهادة العالمية عاد إلى بلدتنا منية الكردي ليشتغل في الفلاحة ويباشر الإشراف على محاصيل أرض تقرب مساحتها من عشرة أفدنة ورثوها عن أبيهم؛ أضيفت إليها عشرة أخرى بوضع اليد من أرض البراري التي عرضتها الحكومة للبيع بأسعار رمزية تافهة في مقابل أن يستصلحها واضع يده عليها ويحيلها إلى أرض زراعية تسد حاجة البلاد من المحاصيل الزراعية. ولقد نشط عمي الأكبر عابد البراوي وتفتق ذهنه العملي عن فكرة شراء ماكينة لشفط وضخ المياه تسقى أرضنا وبالمرة تسقي أراضي البلدة مقابل أجر نظير كل ساعة عمل. كان بالفعل مشروعًا ناجحًا، فباتت إلى جوار ماكينة الطحين التي نملكها

تدران دخلا جعل الفلوس النقدية متوفرة على الدوام في صندوق المصروفات الذي انتقلت أمانته بعد رحيل أبي إلى عمي الأكبر عابد البراوي. لكن الحال لم يدم طويلاً؛ إنها خصلة المصريين بوجه عام؛ كل مشروع تجاري ينجح سرعان ما يثير غيرة الآخرين وحقدهم فيقيمون مشروعا مماثلا ينافسون به المشروع الناجح ويقتطعون من أرزاقه الشيء الكثير متذرعين في ذلك بأن الأرزاق بيد الله؛ وتلك عبارة مخادعة تبرر قطعهم الطريق على رزق الغير.

في الجانب الشرقي لبلدتنا بعض عائلات ربما كانت أقدم من عائلتنا إلا أنها غير ذات وزن في موازين الرجال والمكانة والهيبة؛ ليس فحسب لأنهم من صغار صغار الملاك وربما صغار المستأجرين وتجار الحبوب والبقالة؛ وإنما إضافة إلى ذلك ليس فيهم من نذرهم أهلهم لتحصيل العلم الذي به ترتقي الأسرة وتحصل على الاحترام والعزة مثلما فعل جدي وكثيرون غيره من كبار العائلات الذين لا بد وأن يكون من بينهم شيخ أزهري معمم أو أفندي مطربش يعمل مدرسا أو موظفا في الحكومة أو حتى تمورجيا في الوحدة الصحية.

عائلة عتمان من عائلات كثيرة، برغم كثرة عدد أفرادها وبطونها المتزوجة في بلدان كثيرة، لا نكاد نشعر بأنها عائلة، بل قد نفاجأ في كثير من الأحيان بأن فلان الفلاني ـ الذي لم يحرص على ذكر لقب عائلته في أوراقه الرسمية أو على الألسنة ـ هو ابن عم فلان أو ابن شقيقه. حتى الشبه فيما بينهم يكاد يكون معدومًا لعدم حرصهم على الزواج من بعضهم بعضًا؛ اللهم إلا إن دققت النظر جيدًا في الملامح. وحتى الخصائص المشتركة بين أفراد العائلة الواحدة في الطباع والسلوك لا

تجدها بين أفراد عائلة عتمان. إن هي إلا مجموعة من الأفراد لا تجمعهم أية رابطة على المشاركة في فرح أو العزاء في بلوى؛ بل قد يرى الواحد منهم شقيقه مغروزًا في خناقة ينهال عليه الضرب بقسوة فلا يسحب نبوتًا أو فأسًا ليدركه، بل يأخذها من قصيره ويبتعد، بل قد يتفرج على محاولات الفصل بين المتعاركين في بلادة دون أدنى مبالاة!

عبد العظيم عتمان واحد منهم؛ شغلته الأصلية: جزار. تلك مهنة متوارثة في عائلته من قديم الأزل؛ ففي أي عهد من العهود لا بد وأن يكون هناك جزار أو أكثر من العائلة العتمانية. هو مشهور بلقب «الوقيع»، نظرا لتخصصه في ذبح البهائم النافقة؛ جاموسة سقطت في بئر ساقية فتكسرت عظامها وتقطعت أنفاسها فيلوذون بالوقيع ليلحقها بالسكين؛ بقرة أصيبت فجأة بمرض غامض أقعدها الزريبة وأوشكت أن تفطس. إن عتمان الوقيع جاهز بالسكين في كل لحظة؛ سواء كان جالسًا على المصطبة أمام دكانه اللصيق بداره، أو ماشيًا في أي شارع، يطرطق أذنيه لالتقاط أي صوات أو جعير قادم من الحقول المتاخمة، أو هياج آت من إحدى الحارات القريبة أو حتى البعيدة.. إنه خبير في تمييز نبرة الصوات وحدة الصراخ وعمق الجعير ومدى ما في كل ذلك من فجيعة. إن كانت الفجيعة واضحة في الصوات جيدًا فإن الكارثة تكون بهيمة فطسى أو على وشك أن تفطس؛ إن فجيعة فقدان الأب أو الأم أو الأخ أو حتى الابن ربما جاءت أخف بكثير عند الفلاح من فجيعته في البهيمة التي هي عصب حياته، في الدوران في الساقية، في شد المحاريث والنوارج، في تسميد الأرض بفضلاتها، ناهيك عن لبن وقشدة وسمن وجبنة هو الإدام والغموس الرئيسي للخبز في حياة الفلاحين. ما أن يتأكد عبد العظيم عتمان الوقيع من

نبرة الفجيعة حتى يهب من فوره إلى الدكان، يسن السكين والخنصر، يلفهما في فوطة قديمة، يغرز اللفة في سيالته، يتجه صوب المصدر الذي يأتي منه الصوات، واضعًا نفسه في سكة من يتطوعون بالجري هنا وهناك بحثًا عنه.

بمجرد أن تفوت شفرة سكينه على رقبة البهيمة تكون قد صارت في حوزته إن لم تكن صارت ملكه تقريبًا. رقبة صاحب البهيمة هي التي وضعت تحت سكين عبد العظيم عتمان في الواقع؛ يسلم أمره لله، راجيا منه أن يضع في قلب الوقيع شيئًا من الرحمة حتى لا تضيع بهيمته بثمن بخس لا يسمن ولا يغني من جوع. عبد العظيم هو الذي سيذبح، سيسلخ، يقطع على الميزان، ويبيع. تلك عملية ليست سهلة على الإطلاق. فصاحب البهيمة المنكوب يعرف جيدًا أن عبد العظيم يعرف أن الفلاحين يتضامنون مع المنكوب في بهيمته، يقومون بتجميع ثمنها من جيوبهم لكي يتمكن المنكوب من شراء غيرها قبل أن يتعطل حاله وينخرب بيته؛ ولكن المصيبة أنهم غير جاهزين للدفع الفوري؛ بعضهم يأخذ بالأجل على ذمة المحصول القادم من أي زرعة؛ بعضهم الآخر يدفع القليل ويماطل في الباقي رغمًا عنه؛ أي أن المنكوب لن يتمكن من تجميع ثمن البهيمة بأي حال من الأحوال، ناهيك عن استحالة أن يتفرغ لطرق أبواب الناس يسألهم ردَّ الدين في حين أنه واثق من أن المأكول بالذات ما لم يُدفع ثمنه مقدمًا فالعوض على الله في تحصيله. نقطة الضعف في موقف المنكوب في بهيمته ـ وهي لصالح عبد العظيم الوقيع ما في ذلك شك ـ أن ثقة الناس في لحم البهيمة الوقيع تكاد تكون معدومة؛ إنهم يدركون أن البهيمة الوقيع سواء وقعت في بئر الساقية أو في براثن مرض مفاجئ فإنها نافقة، تم

ذبحها في معظم الأحوال عقب موتها مباشرة أو قبل لفوظها النفس الأخير؛ وإذًا فلحمها تعافه النفس وتنفر منه. مع ذلك فإن أصحاب النفوس الملآنة الشبعانة يشترونه على سبيل المعاونة ثم يتبرعون به للفقراء أو حتى لكلابهم السعيدة. أما غيرهم ـ وهم الأكثرية ـ فيشترونه حتى وإن شافوا حال البهيمة عند ذبحها ولم يكن منظرها مريحا، فالنار في النهاية هي الطبيب؛ إنهم لا يفرطون في طبخة لحم جاءتهم على الطبطاب وعلى غير انتظار، سيما والدفع بالأجل الذي قد لا يحين أبدًا، أو كان الدفع بخسًا ليس يضلع.

كل ذلك يعرفه المنكوب في بهيمته، ويعرف أن عبد العظيم عتمان يعرف؛ ولكن.. هنيئًا له!.. فما سوف يفعله عتمان لن يستطيع المنكوب أو غيره أن يفعله. إن الذبيحة ما أن يتم سلخها وتقطيعها وتعليق أفخاذها في الخطاطيف أو في السيبة الخارجية ذات الحوامل الثلاثة حتى تتحول إلى شيء آخر، إلى لحم مضيء شفاف ملفوف بغلالة شفافة من قماش الدبلان الأبيض. عندئذ لا بد أن تحلو في أنظار المارين، تكتسب من الدكان مصداقية واضحة بأنها لحم من دكان الجزار على عينك يا تاجر. عبد العظيم عتمان عينه قوية، بجحة، لم يعرف تاريخ بلدتنا مثيلا لها في الكلاحة والصفاقة والاستهزاء بعقول الناس؛ إنه يعرف أن البلدة كلها قد علمت بنفوق بهيمة فلان الفلاني وأنهم لحقوها بسكين عبد العظيم عتمان الوقيع؛ ولكن هذا الأمر كأن لم يكن بالنسبة له. يلتقيك من وراء القُرمة فيتأهب لسن السكين:

ـ «بالصلاة على النبي! حاجة زي الفل! كل وادعي لي!».

فإن كان الزبون طويل اللسان مشاكسًا وسأله عن أمر البهيمة التي

نفقت اليوم وشاع أمرها؛ شوح في وجهه حتى ليكاد السكين يلطش أنفه أو يخرق عينيه، مكشرا وجهه، صائحًا في استنكار واشمئزاز:

- «صلي ع النبي صلي!.. مفيش عندنا كلام من ده!

إنت ما بتشوفش؟! اللحمة قدامك بتنادي الأكيل اللي بيفهم بس! الغشيم لأ!.. هيه؟ أقطع ولا دي ما تستاهلش بُقك؟».

في معظم الحالات سيقول الزبون في وجل: «اقطع كيلو! كيلو ونص! نص كيلو!» حسب عدد أفراد أسرته. الزبون في الأصل جاهز لأن يخدع نفسه ويصدق عبد العظيم خاصة أن منظر اللحم في الخطاف لا يشي بأي شيء غير طبيعي فيه. غير أن الدافع الأكبر وراء استسلام الزبون لعبد العظيم أنه سيدفع جزءًا والباقي حين ميسرة، متناسيا أن من يوضع اسمه في دفتر عبد العظيم فليس ثمة من مهرب له من الدفع في الوقت المتفق عليه مهما كانت الظروف والأحوال؛ فإن لم يكن الزبون حاسبا حسابه فعليه أن يرهن شيئًا مهمًا عند عبد العظيم إلى أن يتصرف في النقدية. الخوف ليس من سكينه فإنه أضعف قلبًا من أن يرفعها على أحد أو حتى يلوح بها عند العراك؛ إنما الخوف من تجرمته، من طول لسانه السليط؛ من ثقل ظله في الإلحاح والمطالبة إلى حد قد يدفع إلى الانتحار في طلب الراحة منه. زفارة لسانه أشبه بجواليص الطين في تعامله مع الأقباط بوجه خاص؛ يكن لهم عداءً فطريا لله في لله؛ ربما لشدة هدوء أعصابهم وتسامحهم وإقصارهم للشر؛ في حين هو جبان من النوع الذي يخاف ولا يختشي كما يطلق عليه الناس من أوصاف. أذكر أن أبي الشيخ حامد البراوي خطب مرة في المسجد منددًا بأمثال عبد العظيم عتمان

الجبناء الذين يسيئون لإخوتنا الأقباط أهل السماحة والمحبة؛ وكان يقصد عبد العظيم بالذات لشيوع قلة أدبه معهم، كأن يكون متوجهًا إلى دكانه في الصباح ليفتحه فيلتقيه المعلم عزيز عبده، الذي يبادره بوجه باسم: صباح الخير؛ فإذا بعبد العظيم يشوح في وجهه مكشرًا، معبرًا عن تشاؤمه مرددًا في غلظة وسفالة:

ـ «الله أكبر! صبحنا وصبح الملك لله! ابعد يا شيطان.. ابعد يا شيطان!».

ثم يظل بقية النهار يستنزل اللعنات على من اصطبح بوجهه الشؤم فكان السبب في وقف حال الدكان أو في كثرة الخناقات التي حدثت طوال اليوم مع أنه يكون هو المتسبب الأوحد فيها. وحينما يكون جالسًا ويفوت عليه واحد من إخوتنا يسلط عليه عيال الحارة السفلة يشيعونه بأغنية بذيئة جدًا: «نيك القبطي ولا تبطي وإن قال لك أف احرق دينه!». في طفولتي شهدت مناظر مؤلمة لرجال عجائز يعجزون عن إسكات العيال أو إخافتهم فيبكون في صمت إلى أن يدركهم أحد الرجال المحترمين فيطيح في العيال بخيزرانة يهوشهم بها حتى يردهم إلى دورهم، ولا ينسى أن يتوقف عند عبد العظيم ليوبخه بكلمتين لاذعتين لا يسمعهما، إنما يفتح فمه عن آخره في قهقهة جهيرة بلهاء. لم يكن يردعه سوى أبي، ومن بعده عمي الأكبر عابد البراوي الذي كثيرًا ما شكمه بالبونية تحت ذقنه وفي بطنه. كذلك عمي العمدة عواد البراوي، كاد مرة أن يقتله بالنبوت لأنه تطاول عليه بكلمة عابرة أمام بعض الناس. يومها خلصوه منه بالعافية في دوارنا؛ ولولا أن أبي قد أدركه في اللحظة المناسبة لما قدر له أن يخرج من الدوار سالما.

يبدو أنه أراد أن يكيد لعمي العمدة؛ فاجتمع بطائفة من أهله ومعارفه، زيَّن لهم مشروع شراء ماكينة لضخ المياه؛ فبدلا من أن يستقل العمدة بأراضي البلدة كلها، وبالأراضي البور التي يتكالب الناس على شرائها لاستصلاحها؛ يحق لهم أن يشاركوه المكاسب الفاحشة وبإمكانهم أن يخفضوا إيجار الماكينة كلما زاد عدد الساعات. وقد كان؛ سافروا إلى طنطا، إلى محلات شركة المحاريث والهندسة، اشتروا نفس الماكينة وكان سعرها قد هبط على بختهم. كان أبي قد مات منذ حوالي ستة أشهر؛ غرقت دارنا في أحزان قاتمة؛ انتشر اللون الأسود في جميع أنحاء الدور الخاصة بنا؛ امتنعت الأفراح علينا وعلى جيراننا وعلى عائلات كثيرة من أصهارنا وأصدقائنا؛ صوت القرآن الكريم يصدح صبح مساء في غرفة أبي، وعلى المصطبة خارج الدار، وفي المندرة، وفي الدوار؛ وفود المعزين تتجدد من حين لآخر قادمة من بلدان بعيدة. في تلك الأثناء دهمنا خبر مجيء ماكينة مياه جديدة إلى بلدتنا يملكها عبد العظيم عثمان الوقيع وشركاه. لو كان أبي على قيد الحياة لحظتها لما قامت أية مشكلة على الإطلاق، ولسارت الأمور في هدوء دونما عراك؛ ولكن المؤسف أن أبي قد رحل؛ فما كان من عمي الكبير عابد البراوي سوى أن أطلق مناديا ينادي في البلدة، ينبه على الناس أنه لا ماكينة للمياه في البلدة سوى ماكينة البراوي. غير أن أهالي شرقي البلد كلهم تقريبًا استنكروا هذا النداء وهزأوا به علنا في أعقابه. وفي صبيحة اليوم التالي دخل شيخ الخفراء على العمدة وأبلغه بأن ماكينة عبد العظيم عثمان قد تم نصبها عند الفجر في المكان الفلاني. فما كان الضحى إلا وعمي العمدة وخفراؤه ورجال من أبناء عمومتي قد حملتهم الركائب إلى حيث ركبت الماكينة، فتحوطوها، ثم أوقفوها

بالقوة وسط ضجيج من أصحاب الماكينة وأصحاب الأرض. الضجيج نقله الفضاء المنداح إلى البلدة في سرعة الصوت والضوء معًا؛ إن هي إلا دقائق وازدحمت المدقات والزراريق والطرقات بحاملي النبابيت والفئوس والكريكات من أهالي الطرفين. سرعان ما نشبت المعركة؛ صارت النبابيت تتكسر فوق الأدمغة والأكتاف والسيقان؛ الفئوس والكريكات تتلقى الضربات وتهوش أكثر مما تضرب. سقط عدد من المصابين كان أغلبهم من طرف عبد العظيم، من أتباع شركائه لا من عائلته. وكان شيخ الخفراء قد أمر خفراءه بإطلاق الرصاص في الهواء من بنادق غير ميري، لإرهاب المندفعين وإبعادهم عن دائرة المعركة. في حين كان عمي الأكبر عابد البراوي قد عمل حسابه من قبل خروجهم من الدار؛ أبلغ نيابة المركز أن معركة نشبت في الغيطان ولا بد للبوليس أن يدركها قبل تساقط القتلى، ليخلق مبررًا لتواجد العمدة فيها بحيث يبدو كأنه ذهب لإخمادها. حضرت النيابة مخفورة بالشرطة ولكن بعد أن أجهز العمدة على رجال عثمان وكان يتأهب لتحطيم الماكينة. النيابة أدانت الطرفين. قام مأمور المركز بإقامة جلسة للصلح بين الطرفين؛ بموجبه تم تقسيم أراضي البلدة وزماماتها بين الماكينتين، هذه لغربي البلد وتلك لشرقيها.

مضت الحياة هكذا لعدة أشهر؛ لكن عمي عواد العمدة عنيد، يصعب عليه نسيان أن هذا الولد المفعوص قد تحداه وقاسمه في رزقه. وقد انتبهت ذات ليلة في الإجازة الصيفية قبل الماضية إلى جلسة أقيمت في مندرتنا ضمت محفوظ جرجس غطاس ابن إسطاسية، ذلك الشاب اللطيف الدمث الذي يعتبر من أنظف الحلاقين وأكثرهم شهرة في بلادنا رغم صغر سنه إذ إنه تعلم هذه المهنة في

مدينة دسوق؛ كما ضمت سيد أبو ستيت وابنه رشاد وابن أخيه أدهم أبو ستيت، وعمي الكبير عابد. المندرة لصق غرفتي، يوجد شباك يربط غرفتي بالمندرة تستعمله نسوان الدار عندما يكون لدينا عزومة على الغداء حيث يضعن الأطباق الملآنة على أرضية هذا الشباك ليتولى أحد رجال الدار نقلها أولا بأول إلى الطبالي حينما يكون المدعوون من الناس العاديين، وإلى ترابيزة السفرة ذات الرخامة البيضاوية حينما يكون المدعوون من الحكومة. على ضوء اللمبة نمرة عشرة كنت منزويا في الركن مضطجعًا فوق المصطبة الطينية راكنا ظهري على مسند، أحاول مراجعة القانون المدني؛ لكن اللغط في المندرة كان ـ برغم خفوت أصواتهم ـ يمنعني من التركيز؛ ثم إن خفوت أصواتهم ـ على غير العادة ـ قد أرابني في الأمر، فأعطيتهم أذني، فسرعان ما فهمت أنهم قد اتفقوا على شراء ماكينة مياه ثالثة تكون شركة بين عمي العمدة عواد البراوي وعمي الكبير عابد البراوي ومحفوظ جرجس غطاس ابن إسطاسية، وأنهم سيبادرون من غد إلى شرائها بدون تقسيط. ما أثار عجبي أن الماكينة جاءت بالفعل، وأن عمي العمدة كان سعيدًا وأكثر فرحة من يوم شرائه للماكينة الأولى. كان يبدو عليه كأنه انتصر في معركة ما، خاصة وهو يعزم المأمور على الغداء، ويبعث في استدعاء عبد العظيم ليشاركهم الغداء، وهو في الواقع يريد أن يتشفى فيه بهذه المكيدة التي نصبها له. على مائدة الغداء طرح الموضوع على الحكومة، فقامت الحكومة بتقسيم الأراضي على ثلاثة بدلا من اثنين.. وهكذا اعتبر عمي العمدة أنه قد نجح في التنكيل بعبد العظيم عتمان، قام بتخفيض رزقه من النصف إلى الثلث. وبالفعل كان عبد العظيم عتمان مفلوت العيار لا يعرف

كيف يكتم غيظه، بل إن نظراته المحمومة كانت معلقة بوجه محفوظ جرجس غطاس تصب عليه الحمم، وتشيِّع إليه من تحت لتحت عدة زغدات بكلمات موجعة تندد بخبث ذوي العضمة الزرقاء كما يسمى محفوظ وأهله.

الماكينة الثالثة سميت بـ «بين البلاد». نصبوها في وسط الأراضي، لا شرقية ولا غربية. هي الأخرى جاءها الشغل في الحال؛ استقربتها منطقة الوسط وهي شاسعة تقدر بمئات الأفدنة. ومنذ أن ارتفع صوت تكتكتها وعبد العظيم ـ بمناسبة وبدون ـ يزفر من الغيظ، يكز على أسنانه هادرًا في كل مكان أمام كل الناس:

ـ «طيب يا عضمة زرقا! إن ما وريتك النجوم الضهر

ما ابقاش أنا! وديني لأدفعك التمن غالي وأطلع

ديك صليب أمك ببركة نبينا المصطفى! حاكسب فيك

ثواب إن شاء الله!».

ولم يكن أحد من بلدتنا ولا من عزبة الحجر يتوقع أن يصدق عبد العظيم في وعيده ذاك العلني. ولكن هل هو الذي قتل فعلا؟! علم ذلك عند ربي..

أفقت على نفسي مضطجعًا على ظهري، مريحًا رأسي برقبتي فوق فخذ أمي المتربعة على الكنبة البلدي المنجدة، واضعًا ساقًا مكسورة بالعرض فوق ساق مكسورة بالطول. وكانت يد أمي لا تزال تمر فوق رأسي بالرقية:

ـ «رقيتك من عين المره تنقلع بشرشره.. ومن عين الراجل تنقلع بمناجل!».

أشعر كأنني أستعيد علاقتي الحميمة بأمي وبدارنا الرحيبة الواسعة. امتلأت خياشيمي وتشبعت برائحة دارنا الشاخصة بقوة.. في رائحة أمي التي حرمت من حضنها سنوات طويلة منذ أن اغتربت في البندر، من المدرسة الابتدائية إلى الجامعة؛ اللهم إلا في فترات الإجازة الصيفية. ما أعظم ما أحمله لأمي من تقدير! لقد تربت على مقاس أبي كرجل من حملة العلم؛ حفظت القرآن عن ظهر قلب. كان أبي يكلفها بالقراءة له في كتب التفسير أو في الجرائد حينما يصاب بوعكة صحية تلزمه الفراش. وقد أنجبت لأبي عيالا كثيرين لكنهم يا للغرابة ماتوا جميعًا! كانوا يموتون فور ولادتهم الصعبة، وأحيانًا قبل ولادتهم، وكانوا كلهم ويا للعجب ذكورا. كنت أستمع إلى حكايات موت إخوتي السابقين فألمح وراء الحكايا شيئًا من الراحة في عيني أمي، فسرته لي بأن رضاءها بقدر الله جعل الله يكافئها بمنحي نعمة الحياة من أجلها. من هذه الحكايات وغيرها أيقنت منذ الصغر بأنني في موقف العزة. وقد أراد أبي أن يعبر عن امتنانه واعتزازه بهدية الله إليه فقرر الإنفاق على تعليمي بغير حدود لعلني أحقق حلمه بأن يكون للعائلة ممثل برلماني يلمع في السياسة؛ ومن ثم فمستقبلي التعليمي قد تحدد مبكرًا بكلية الحقوق، لأصبح محاميًا ثم أتطور إلى أن أصبح وزيرًا. وها أنذا قد حققت له الشطر الأول من حلمه؛ تخرجت في الحقوق بامتياز؛ ولذا فإن فرحتي وفرحة أمي اليوم تكاد تحلق بنا في الفضاء المبهج برغم هذا الجو المأساوي القابض.

(أ)

توءمة الألم

«ربنا يصبرك يا إسطاسية يا حبيبة قلبي يا مسكينة. وحق النبي أشرف خليقة الله ما يدري بك في هذه البلدة مثلي. إني مثلك أم لولد وحيد هو فلذة كبدي حمزة، الميراث الحقيقي الوحيد الذي خلفه لي زوجي المرحوم الشيخ حامد البراوي. لا شأن لي بأرض ولا فلوس ولا ماشية. ماذا سأفعل بهذا وعندي المحروس حمزة؛ وقد أصبح بعون الله من حملة القانون، وغدًا يصير وكيلا للنيابة. حبة عين أمه حقق لأبيه حلمه، اجتهد وطلع الأول في العلم وفي الطيبة والأخلاق؛ أليس ابنا للشيخ حامد ولي؟!.. لكنه يا حبة عيني لا يشعر بالفرحة، ابني وأعرفه، طالع لأبيه الخالق الناطق في الطبع، في الورع، في التقوى، في الفطنة والذكاء.. ربنا يستر عليه، ربنا يهديه ويصرفه عما يفكر فيه وإلا كانت الكارثة وقادنا جميعًا إلى الجنون..

يارب لا تؤاخذني، أنا من ناحية وإسطاسية من ناحية؛ لكن لا قدر الله الشر بره وبعيد، هي تشكو لك ظلمها، وأنا الآن أرفع صوتي

لك مثلها لكي تهدي وحيدي.. حبة عين أمه يريد أن يفتح ملف قضية محفوظ ابن إسطاسية ويعيد التحقيق في مقتله، مصيبة، يقول إنه سيفعل ذلك لنفسه لا للحكومة!..

ـ يا أمي! أريد أن أعرف ليستريح قلبي! إنني إذا لم أتوصل إلى قاتل شريك عمي وأقدمه للمحكمة فلن أنجح في مستقبلي كوكيل للنائب العام! دعيني أتمرن! لعلني أفلح في كشف غموض هذه القضية!

ـ يا ولدي! اعقل! ستدخل في سكك سوداء مليئة بالشوك! وقد يكون مصيرك مصير محفوظ!

ـ فليكن! لا يهمني! قد يحدث لي هذا وأنا قاض!

أففف..! شفت يا رب؟! سمعت ما قال؟! آه! قلبي، أشعر بأن ألف حدأة تنقر في قلبي، تتخاطف نياطه، فماذا يكون حالي إذا لا قدر الله... لا.. لا أريد أن أذكرها.. لكنك يا إسطاسية قد رعاك الله فلم يصبك بالجنون.. إني أكاد أجن نيابة عنك.. أصبحت مثلك، عدواك أصابتني، نارك تصحو في قلبي قبل أن تلعلع ألسنة لهبها فوق سطح دارك واصلة إلينا في كل البلاد.. نارك امرأة عارية ملتاثة تبغي الصعود إلى ربها كما ولدتها أمها لتبلغه شكواها الملتهبة.. لسانك المحروق يستنزل اللعنات، ولساني الموجوع يرد عليك بكلمة: آمين.. أنت وأنا نضرع إلى الله بصوت واحد ونيران واحدة.. أنت تطلبين الثأر وأنا أطلب الحماية: حماية وحيدي من قساة القلب الذين قتلوا وحيدك ولن يتأخروا في قتل وحيدي إذا هو «نخرب» وراءهم وكشف مستورهم..

ـ يا ولدي! أنت الآن في حضني أي نعم! لكني لا أدري لماذا أشعر كأني أتكلم عن ابن لشخص آخر؟! إنني أحيطك بذراعي حتى لا تتملص! ترفض عطفي؟ إني أفهمك جيدًا خلٍّ بالك!.. طبعًا أنت تخشى أن يضعفك عطفي فتعمل بنصيحتي وتصرف النظر عن الاهتمام بقضية محفوظ!.. إني أقبّل يديك وقدميك بأن تفهمني وتطيعني!.. أنت ستجلب على نفسك وعليّ تعاسة هيهات أن نتقيها أو نحتملها!.. ستمشي حتى تتقطع أنفاسك! وربما لن تعود ولو حتى خالي الوفاض! العملية كبيرة يا ولدي! أكبر من محاكمك وقضاتك والقانون الذي درسته!.. إذا كان عمك الكبير عابد البراوي قد سكت! وأقنع عمك العمدة بالسكوت فخير لك أن تقتدي بحكمته!.. لا تقلب المواجع! لا تسعى بين الناس تسأل وتطقس وتتحرى!.. وليكن في معلومك؛ أهلك جميعهم مستاءون من كثرة كلامك مع هذا وذاك في قضية محفوظ! مصطفى ابن عمك عابد سألني: ما هدفه بالضبط؟! وعبد الغني ابن عمك العمدة سألني: هل يريد أن يكون وكيل نيابة من منازلهم؟! وما مصلحته في هذا يا امرأة عمي؟!

ـ يا أمـي! مصلحتي في ذلك أن تتحقق العدالة فيستريح ضميري!

ـ القضية انتهت يا ولـدي وانطوت أوراقـهـا في دواليب المحفوظات!

ـ ما انتهت بعد يا أمي!.. إن المجني عليها لا تزال ترفع دعواها إلى محكمة السماء العادلة! صوت الاتهام لا يزال يقوى كل يوم!..

القضية تنتهي حقًا في نظري يوم يكف صوت إسطاسية عن الشكوى وتخمد نارها!

- إنها تشكو لله وليس لعبد مثلك!.. دع الله يفتح لها محكمته وقتما يشاء! إنك لست أعدل منه سبحانه وتعالى!

- يا أمي! إننا جميعًا متهمون! معذبون بصوت المظلوم! ومن مصلحتنا جميعًا أن يظهر الجاني الحقيقي ليأخذ جزاءه!

- إن محكمة الله أعدل! ليس يفلت منها أحد!.. و.. صدقني يا ولدي! سوف أبشرك عما قريب بنتائج محكمة الله!.. لن نرى المحكمة لكننا سنرى نتائجها رأي العين!.. ربك يمهل ولا يهمل!

- هذا كلام صحيح يا أمي! لكن الاعتماد عليه ليس يرضي الله، خلِّي بالك!.. إن الله يحقق العدل من خلالنا! بواسطتنا! وهو ليس يعاقب المجرم وحده بل والمتسترين عليه والخائفين من سطوته!

أوووووه، لا فائدة من الحوار معه يا ربي فماذا أفعل فيه؟! إنه حتى لم يعد يطيل القعدة معي، دائمًا يهب إلى الخلاء. رحم الله الشيخ حامد البراوي، كان رمانة الميزان في هذه الدار، التي كانت قبل عامين اثنين فقط تعرف بدار الإمام، وينظر الناس إليها باحترام ومهابة تليق بأبي حمزة.. لم يكن يماري في الحق أبدًا، ولا يبخل بعلمه ونصائحه على أحد، فما بال هذه الدار أصبحت في غيبته قليلة الورع مجروحة السمعة، غير مبالية، كأن شيطانا كان يكمن تحت أرض هذه الدار فما صدق أن رحل عنها الشيخ التقي فانطلق يعربد ويهتك كل ما بناه الشيخ من أستار؟!..

دائمًا يغلبني البكاء هكذا، في الحزن أو في الفرح، كأن الدموع هي شكواي الفصيحة إن حزنت، وهي موسيقاي البهيجة إن فرحت.. إني اليوم فرحة حزينة في آن معًا!..

ما بالك تغالطين نفسك يا أم حمزة؟ هل أغالط نفسي حقًا؟ أظن؛ نعم.. إني في الواقع حزينة على طول الخط كما يظهر لي الآن.. أدخر البكاء منذ وقت طويل مضى.. كان قويًا عاتيًا تراكمت أزمنته فوق بعضها، كل لحظة احتجته فيها كنت ـ بمعاونة من جدي وجدتي في طنطا ـ أنجح في تأجيله حتى لا يصيبني الضعف والانهيار وتعكير صفو الدراسة على الولد.. كل لحظة من هاتيك اللحظات كان ينبع منها شريط من الصور الحية تترى خلال الدمع الراكد شاخصة تتواتر، تترادف، تتقابل، تتنافر، تتشعث كالشعر المبلول؛ رءوس المصلين صفوف متراكمة كتماثيل لقطط فرعونية مقعية متجمدة شاخصة إلى المنبر.. الشيخ حامد البراوي يهرول في شوارع البلدة صائحًا في هلع: كيف ينتهك الصهاينة كنيسة العذراء ويهدرون هيبتها ويحاصرون فيها أبطال الثورة الفلسطينية؟!.. الشيخ حامد البراوي يتحدى الرأي العام المتخلف في البلدة، يعلن كُفر حكومة طالبان في أفغانستان المنكوبة بها، وخروجها من مرتبة الإنسانية بتحطيم هذه الكنوز الفنية قائلا: يا ناس يا غجر إن التمثال في حد ذاته فن ليس يأباه الإسلام ولا يرفضه العقل المسلم السليم، إنما الحرام أن يتحول التمثال إلى وثن يخشع الناس أمامه من دون الله.. الشيخ حامد البراوي يستقبل في المندرة ضيوفا جاءوا يطلبون القرب منه في سلمى ابنة أخيه العمدة، قالوا: سنفعل ونفعل وسندفع كذا ونقدم كذا، وكان هو على علم مسبق بأن العريس زميل لسلمى في المعهد التجاري،

فرفع ذراعه ليوقف انهمار سيل الحماسة وفروض التضحية؛ من جدية حركته وجهامة وجهه، عندها ظنوه يتأهب لإعلان رفضه، فإذا هو ينادي: تعالي يا سلمى. فجاءت سلمى على استحياء: نعم يا مولانا؟ هل تحبين زميلك الدكتور صدقي وتوافقين على الزواج منه؟ ابتسامته اللطيفة شجعتها فكأنه يحرضها بها على القبول، فقالت بطلاقة دونما وجل: نعم يا عمي أحبه ويحبني وأقبل الزواج منه. فشوح الشيخ بذراعه هاتفًا: زغردوا يا أولاد..

ربي اقطعني، غاوية نكد، والله ما أنا عارفة: هل الدموع تستدر المبكيات؟ أم أن المبكيات كائنات حية تطفو سابحة فوق نهر الدموع؟ إنما الذي يزلزلني ويبعث الرعدة في أوصالي شيء مكلكع فوق صدري أريد أن أتكلم فيه مع وحيدي، لعل الكلام فيه يفك كلكعته فيتوقف الوجع في صدري، ولكن كيف أتكلم في أمر كهذا الآن؟!..

سأتكلم وأمري إلى الله، سأقول له إن عمه العمدة قد فجر، أصبح كالمارد الذي انطلق من القمقم بعد طول احتباس، تحول إلى طاغية بمعنى الكلمة.. يا حمزة، أتخيل الهول كله لو أن المرحوم كان على وش الدنيا ورأى أخاه عواد العمدة يصاحب ناسًا مشبوهين وخارجين على القانون رسميا في سجلات الحكومة، منهم من هو مطلوب ضبطه وإحضاره لتنفيذ حكم بالسجن مائة وخمسين عامًا من أمثال قاطع الطريق المدعو معاطي ورجاله؛ بشلة وزيدان وأبو زعير وأبو هوانة التملي ومرّيسه المتخصص في سرقة أسواق بأكملها.. كلهم أغراب لا أحد يعرف أصلهم من فصلهم رغم أنهم يعيشون في نواحينا منذ زمن بعيد يتنقلون بين البلدان المتجاورة.. العمدة وأخوه

عابد وعيالهما يقولون إن العمدة يسوسهم ليستعين بهم عند القبض على قطاع الطرق.. طلعوا علينا مؤخرا بكلام جديد: إن العمدة يتخذ منهم جواسيس ومخبرين في البحث عن القاتل الحقيقي لشريكه محفوظ جرجس غطاس، وإنه كل يوم والثاني يبعث بأحد خفرائه إلى إسطاسية يصبرها ويبلغها أن العمدة مُصِرٌّ على الإمساك بالقاتل وأنه يطمئنها ويرجو منها أن تهدأ وتطيل بالها وتعقل وتكف عن هذه المندبة اليومية التي لا ترضي ربنا!..

تلك أفكار أخيه عابد يوعز إليه بها، ينفذها أحيانًا بنفسه دون مشورة من العمدة.. آه من هذا العابد البراوي يا حمزة، اسم على غير مسمى وإن ظهر عليه العكس، بل المصيبة الكبرى أنه قريب الشبه بالمرحوم، له نفس اللحية السكسوكة المهذبة، على لسانه تجري بعض عبارات من حوارات الشيخ وخطبه ودروسه، يبدو للناس في غاية اللباقة فينخدعون فيه، يتصورونه من كبار العلماء مع أنه عاجز الخط لا يقرأ وإن قرأ يفهم الكلمات بالويم والفطنة..

حماته اللطيفة ذات الدلال على أكابر العائلة، حكت لنا في دويرة فرن الخبيز على سبيل النكتة مع أنها تحلف بأنها حصلت، أن عمك عابد ـ عمي الدبب ـ وهو في عنفوان صباه بات ذات ليلة بجوار الساقية الدائرة، فطلعت عليه الحية الكبرى من الشق تتثاءب في وجهه، فإذا به في لمح البصر ينتفض راكبًا فوقها قابضا على رقبتها بقبضتيه الحديديتين، ثم عضها في ذيلها الذي حاولت أن تضربه به، فماتت الحية في الحال.. لئن كانت هذه محض نكتة تشنيعة من حماته فإنها لخصت شخصية عمك عابد؛ إنه بالفعل كائن سام، في جده أو

هزله، لا بد أن يسمم بدنك بالكلام والسلام، يتسلل من تحت الكلام في نعومة ليلدغك دون أن تدري إلا والنار تأكل في أعصابك؛ هكذا لله في لله دونما أية ضرورة لذلك، حتى إن خطر له أن يغازل امرأة وصفها بالدرفيل أو بالبقرة المتختخة.. كيف بالله يا ولدي ستروح أو تجيء مع هذا العم، وفي جيبه اليوم صندوق القبض والصرف وكل احتياجاتك للمستقبل؟!..

كل شيء تغير بعد رحيل المرحوم، كل شيء يتلون بعد أن يموت الضمير.

حتى الفجر في بلدتنا أمسى كئيبًا محزنًا، مقبضا، ملتاث العقل من وجع اللوعة الجماعية، تتداخل في استغاثته الأنغام في الآلام».

منتديات مكتبتنا

(ب)

وريث أبجدية الحجر

«أي نعم أنا عمدة عزبة اسمها عزبة الحجر، يقطنها طائفة من الأقباط، وليس فيها سوى كنيسة واحدة؛ إلا أنني بعون الرب أفهمها وهي طائرة، أقصد أي فولة، أي ملعوب. أفهم في العمودية ـ بعون الرب ـ مقدار ما يفهمه عمدة كعمدة باريس مثلا أو نيويورك عدم المؤاخذة؛ فإني لست مغرورًا ولكني مستفز من قريبك العمدة المضروب به المثل في الغرور والغطرسة والطغيان. كلامي ليس من قبيل الهجص عدم المؤاخذة، لا وحق الرب، إنما هو أمر واقع ولكن تعال نشوف المسألة من بابها..

أظن أنك ستفاجأ بأن عزبتنا هذه وإن سميت عزبة الحجر، هي أقدم وأعرق من كل البلدان المحيطة بها. أنت عدم المؤاخذة لو قرأت التاريخ الذي لا يدرسونه في المدارس، والجغرافيا التي يجهلها شباب اليوم، ستعرف أن هذه البلدان المحيطة بعزبة الحجر هي في أصلها محلات ومنتجعات اشتراها إخوتنا العرب القدامى،

قبيلة بجوار قبيلة، أطلقوا عليها أسماء قبائلهم التي شرفنا بوجودها بيننا منذ الفتح الإسلامي الذي فتحنا له قلوبنا وبيوتنا وبتنا من أبناء الثقافة العربية الإسلامية دون أن نخسر شيئًا لأننا في النهاية أبناء ملة واحدة هي ملة إبراهيم عليه وعلى آله السلام..

قريتنا هذه، المسماة بالعزبة، عمرها آلاف السنين. هذه الكنيسة على سبيل المثال عمرها ألف عام.. وقد حملت قريتنا اسمها من وضعها، فهي كما تلاحظ بيوت حجرية مقامة فوق مرتفع جبلي لعله من أشقاء أو أبناء جبل المقطم المهيب، العائش إلى اليوم في القاهرة.. لم تكن فريدة في نوعها، ففي جميع أنحاء الدلتا والصعيد بلدان كثيرة منسوبة إلى الحجر، لأن الحجر لغة مصرية أصيلة تخاطب بها أهلنا القدامى، معمارًا ونقشًا وتشخيصًا.. الحجر أبجدية أقيمت لها المدارس المعملية، وكانت قريتنا هذه واحدة من تلك المدارس التعليمية.. كانت في أصلها مناجم حجرية يقيم فيها عمال ومثالون وبناءون إقامة دائمة لتقطيع وتشذيب الأحجار، وتجهيزها لبناء المعابد والأهرامات ثم الكنائس ثم المساجد والقصور.. ولكن الثابت في أوراق عندي أن قريتنا هذه كانت للمثالين؛ جميع قاطنيها ـ الذين خلفونا ـ كانوا من الفنانين، يفتشون في بطون الأحجار عن أفكار حية تتشخص بالأزميل في صنوف وألوان من التماثيل بعضها لبشر وأخرى لحيوانات وطيور وزواحف وخنافس وأشكال خرافية على غير مثال..

لو فتشت في دور بلدتنا هذه ستجد العديد من بقايا تماثيل، وتماثيل غير مكتملة، وثالثة كانت هواية إخوتنا من أهل بلدتكم الكرام تحطيمها في الذهاب وفي الرواح بغير ذنب جنته؛ هي الآن

يعبث بها الأطفال، وفي بلدتكم من أخذها ليسند بها الأزيار ويسند الأبواب حتى لا تستجيب للريح، ويدقون برءوسها المسامير البارزة في أي خشب..

أجدادكم هم أجدادنا، كانوا أجدع منا وأكثر حكمة واستنارة وعقلا.. استصلحوا معظم هذه الأرض وعلموا بعضهم بعضا فنون الفلاحة، عاشوا معًا سمنًا على عسل على طول الزمان، وكل واحد له نبي يصلي عليه.. لم يفسد العلاقة بيننا سوى الإنجليز الذين أوهمونا بأن المسلمين يدبرون لإبادتنا، وأوهموا المسلمين بأننا نسعى بالتبشير ونشوشر على الدين الإسلامي ونستقوي بالأجنبي المحتل أرضنا معًا، وما شابه ذلك من كلام عفنان انخدع فيه الطرفان فأكلا منه حتى الشبع، فتسممت النفوس، وانشحنت بالتوتر على حصل فاضي..

نحن شركاء في موطن واحد افتديناه معًا بأبنائنا شهداء المعارك والحروب، ولسوف نفتديه بأعمارنا. نحن تحت رحمة إله واحد نطلب عفوه وغفرانه وطريقهما الوحيد هو المحبة.. ثم إني أريد أن أقول لك شيئًا: إذا كان عمك العمدة يستهزئ بي باعتباره عمدة فوقي وأنا تابع لعموديته فإني يجب أن أذكره بأن عراقة أسرتي في العمودية تمتد إلى مئات الأعوام في تاريخ عزبة الحجر، يعني يولد الواحد منا وسط تقاليد وأصول العمودية الصحيحة العادلة، مما أورثنا الحنكة في علاج الأمور وفض النزاعات ورد الحقوق وإصلاح ذات البين قبل أن تنشب المعارك حتى لا تنشب.. وبفضل الحنكة والحكمة قامت المحبة بيننا طوال ما يقرب من ألف وخمسمائة عام، على جسور من السماحة واحترام المقدسات والمشاركة في بناء الوطن..

معنى كلامي أنني صاح وعيني في وسط رأسي حتى لا يحدث ما يعكر صفو العلاقة الأخوية بيننا.. ولكن تعكير الصفو يسقط فوقنا دون أن ندري ومن حيث لا نحتسب.. وحينما أدليت بأقوالي في محضر التحقيق في قضية مقتل ابن إسطاسية محفوظ جرجس غطاس قلت هذا الكلام نفسه للمباحث وللنيابة؛ وقلت لهم إنني لست أنكر أنني وجهت إسطاسية إلى المتهم الحقيقي..

طبعًا من واجبي أن أوجهها؛ فالولية مسكينة، فهمها على قدها.. أول ما تلفظت به ساعة تلقت الخبر قالت: عبد العظيم عتمان لا أحد غيره يكره ابني ويكره النصارى لوجه الله.. الخبر لحظتها لم يكن كاملا وإلا لكانت وقعت من طولها في غيبوبة لا تعود منها إلى الأبد.. كان مجرد كلمة خفيفة قلتها لها بهدوء: هناك من أطلق الرصاص على محفوظ ولكن الرب ستر.. الخبر كان عندي كاملا بعد وقوع الحادث بساعتين.. كنت جالسًا على هذه المصطبة كما أنا الآن لصق داري أستمع إلى الأخبار في إذاعة لندن التي تأتي بأخبار حقيقية طازجة عما يلاقيه إخوتنا الفلسطينيون من مذابح على يد الجيش الإسرائيلي.. بين دار محفوظ وداري أربع دور بالعدد.. سمعت صوت تزييق بوابة دارهم المزعج المقبض كصوت سواقي الفيوم، فتشاءمت لا أدري لماذا رغم أني أسمع هذا الصوت عدد شعر رأسي يوميًا، لكن ربما يكون التشاؤم قادمًا لي من أخبار المذابح الفلسطينية.. ظهر محفوظ لابسا طاقم السفر، وفي يديه حقيبة جلدية صغيرة فيها عدة الحلاقة، قال إنه ذاهب إلى فرح في عزبة نصيف، سيزين العريس في ليلة الحنة.. جلس مطرحك بالضبط ينتظر الركوبة التي ستأتي من عزبة نصيف لكي تأخذه ثم تعيده آخر الليل.. دخن معي حجرين على الجوزة إلى

أن احمرّ وجه الشمس، جاءته الركوبة عند الشفق، اتّكل على الرب وركب، تابعته بنظري إلى أن دخل دائرة الاحمرار في الشمس الغاربة فكأنه دخل في جورة من جهنم..

المسافة من عزبة الحجر إلى عزبة نصيف لا تزيد على ستة سبعة كيلو مترات، بالكثير ثمان.. أيًا ما كان أمر المسافة فإن دق الطبول هناك كان أشبه بلغط يُدوي في الأفق القريب..

فُتُك في الكلام.. سيد أبو ستيت وابنه رشاد وابن أخيه أدهم يقرشون ملحة محفوظ منذ أن شارك العمدة في مكنة مياه بين البلاد، يسمونها هكذا: بين البلاد.. وفوق هذه المصطبة قال لي محفوظ بعضمة لسانه إن دار أبو ستيت كلهم ينظرون إليه نظرات غير مريحة كأنه يشاركهم في رزقهم، أدهم أبو ستيت مثلا قال له مرة على سبيل المزاح:

ـ ما تسيبك من شغلة المكنة دي وتخليك في مكنة الحلاقة أحسن!

وفي مناسبة ثانية قال له رشاد أبو ستيت ابن عم أدهم، وعلى سبيل المزاح أيضًا:

ـ والله أنا خايف عليك من عبد العظيم عتمان المجنون! لو كنت منك أسيبها له وأنفد بجلدي! إنت ضعيف وحطيت نفسك في مزنق وسط ناس لا أنت من دينهم ولا هم من دينك! على العموم ربنا يستر ولا تحصلشي مذبحة بين المسلمين وبعضهم بسببك!!

وفي مناسبة ثالثة، على سبيل الجد هذه المرة، قال له سيد أبو ستيت نفسه، والد رشاد وعم أدهم:

ـ يا محفوظ يا ابني لو حبيت تبيع نصيبك في المكنة أنا جاهز وأولى من الغريب!

الكلام الذي كاشفني به محفوظ فوق هذه المصطبة ذات ليلة أصبح حقيقة تأكدت منها وأنا قاعد في مطرحي.. جاءتني الحقيقة لحد عندي في ليلة بلا قمر.. جاءني سيد أبو ستيت نفسه بعد صلاة العشاء ليشرب معي ـ كما قال ـ كوبة شاي وحجرين معسل مثلما كان أبوه يفعل كلما فات من هنا.. بصراحة استربت في عزومته لنفسه، وازددت استرابة حين فطنت إلى أنه اختار قعدته في الجانب المظلم البعيد عن مستطيل الضوء المطروح من باب داري على الأرض يرسم فوقها شكل باب الدار المفتوح.. كان من الواضح أنه حريص على أن لا يتبينه أحد وهو جالس معي في قعدة ليلية، خاصة وأن هذا الشارع المار أمام مصطبتي متصل بالطريق النازل مباشرة إلى منية الكردي، ومتصل من الطرف الآخر بالطريق الموصل إلى جميع بلدان الناحية، أي أن بلدتنا عزبة الحجر تعتبر ممرًّا حيويًّا لجميع أهالي منية الكردي خاصة وبقية البلاد عامة؛ إنهم لا بد أن يفوتوا من هذا الشارع في رواحهم ومجيئهم؛ كما أن جميع القادمين إليها من جميع البلدان لا يجدون لهم مدخلا آمنا إلا هذا الشارع القاسم لعزبة الحجر بالعرض..

ـ أهلا ومرحبا يا بو السيد! تفضل الشاي! عاش من شافك يا رجل!

بعد الشاي ثلاثة أدوار، اقترب حنكه من أذني وهمس فيها بصوته الناعم الثعباني قتَّال القتلى:

ـ بالصـــلا ع النبي طالبين منـــك يا مقدس! قصدي يا حضرة العمدة! خدمة بسيطة!

كسبنا صلاة النبي.. أنا أيضًا أصلي على النبي مثله وأراعي ربنا في الكثير من الأمور والمواقف لأجل النبي..

ـ أنا في خدمتك يا بو السيد من أجل النبي عليه الصلاة والسلام!

قال بلهجة من يود تقديم خدمة لوجه الله:

ـ تقدرش تتعاون معايه لمصلحة محفوظ قريبك؟ بيني وبينك أنا قلبي واجعني عشانه! إحنا مسلمين مع بعض نعرف ناخد حقنا من بعض بالطيبة... بالغصيبة! إنها هو مسكين حيتوه في وسطنا! وإنت عارف إن فيه ناس بتهدده!.. وأنا قصدي إننا نفوت عليهم الفرصة! أنا مستعد أدفع لمحفوظ خلو رجل في المكنتين: مكنة الطحين! ومكنة الميه!.. وابقى خلصت ضميري قدام ربنا!

ثم سكت، فقلت له:

ـ يا أخي إذا كان المشروع مربحا ومستقبله مضمونًا بهذا الشكل.. فلتشترِ لنفسك مكنة جديدة أرخص من الخلو اللي ستدفعه لمحفوظ!

هتف تلقائيًا:

ـ حتبقى مشكلة كبيرة ويمكن تحصل مدبحة يضيع فيها رقاب!.. لسه حنجيب الحكومة تفصل بيننا وتقسم الأراضي علينا!.. وتحصل حزازات ونقع في بعضنا إحنا ودار البراوي. ما ينفعش لأ.. مينفعش

غير إن محفوظ يتكرم ويهدّي الخواطر وينسحب زي الباشا! من مكنة الميه بلاش مكنة الطحين دلوقت!.. على العموم فكر علشان بس مصلحة الواد! عايزين نبعده ونبعدك برضه عن وجع الدماغ!».

قلت في وجهه:

ـ الكلام ده مالوش رجلين يا بو السيد! الخواطر هادية والحمد لله! وعبد العظيم عثمان هجاص وجبان لو شخطت فيه يشخ على روحه! واحنا من قديم الأزل مشاركين المسلمين وهما مشاركينا في الزرع والقلع والضرع والري والعزيق والحصاد! كلامك ده مالوش وجود غير في دماغك إنت! ثم إنك ما قلتليش إيه رأي العمدة عواد البراوي في الموضوع! هل هو موافق؟

فهتف فارتفع صوته رغما عنه:

ـ لا! الحق لله لا! المشكلة كلها إن العمدة عواد البراوي متمسك بوجود محفوظ معاه في الشركة! بيقول إن محفوظ وش السعد عليه وميقدرش يفرط فيه! ومن ناحية تانية هو مش حيفرط فيه نكاية في عبد العظيم عثمان! بيتحدى بيه عثمان! عشان يثبت للبلد إن عثمان ده جبان!.. عشان كده حبينا نخليها تيجي من محفوظ! يعني هو اللي يطلب الانسحاب! ويتمسك بطلبه! وإحنا نعوضه في الفلوس ويا دار ما دخلك شر!

فلم أجد جوابا لائقًا، فسكتُّ، وسكتَ هو الآخر لبرهة طويلة، صار وجوده بجواري خلالها كأن الكنيسة ـ وهي أضخم بناء في الناحية ـ انهارت فوق صدري.. صرت أتعجل انصرافه، اعتدلت في جلستي وسألته بضجر واضح:

ـ أعمل لك شاي تاني؟

فسألني مستنكرًا بخشونة مستترة:

ـ ما رديتش عليّ ليه؟!

شوّحت ولكن في شيء من المودة.

ـ يساويها ربنا!

ومشى يتخفى لصق الجدران مشية قاطع طريق عريق.. وفي الليلة التي ذهب فيها محفوظ إلى الفرح ليزين العريس ويـحَنِّيه، هو بالكاد قد اختفى في ظلام الرماد المحيط بقرص الشفق، إلا ورشاد أبو ستيت وابن عمه أدهم أبو ستيت يظهران قادمين من منية الكردي.. الظاهر أنهما فوجئا بوجودي على المصطبة، حيث ارتبكا بشكل واضح أرابني.. صارا يتلفتان، يتغامزان.. فهمت أنهما أدركا أنني ضبطتهما بنظرة خاطفة إذ هما يحومان حول دار محفوظ وهي على ناصية هذا الشارع كما ترى، كل منهما يدفع الآخر مشيرًا إليه نحو دار محفوظ، ثم إنهما اقتربا مني..

ـ سا الخير يا مقدس!

ـ يسعد مساكم.. فيه حاجة؟

قال رشاد:

ـ أصلنا معزومين في فرح وعايزين نحلق

وقال أدهم:

ـ وبصراحة مكسوفين نخبط على الدار!

ـ على كل حال هو سبقكم على الفرح!

ـ إحنا توقعنا كده برضه.

هكذا قال رشاد، فقال أدهم:

ـ خلاص بقى! أمرنا لله ما نروحش الفرح!

ـ خلاص وهو كذلك!

كلام عيال وشغل مصغرة، لكني ابتلعته وأهملتهما، مشيا إلى حال سبيلهما.. كوعت في مطرحي، سرقتني غفوة خيل لي أنها قصيرة؟ لكن دقات ا لساعة في الراديو أعلنت الحادية عشرة، فصحوت كأني نمت دهرًا..

كان ضوء القمر الفضي قد بدأ يسيح لكنه يضاعف من وحشة الأفق الملآن بالأسرار المبهمة، وضجيج الفرح ينفسح المدى أمامه كلما كبر الليل وأوغل في النعاس.. رصصت حجرًا على الجوزة، ما كدت أسحب نفس الدخان حتى انفجر الفضاء بدويّ طلقات الرصاص في الفرح.. ثم خيل إليّ أنه ينطلق من مكان قريب، فأقرب، حتى خيل إليّ أنه قادم نحو العزبة يقصدها، ثم سكت، وسكت طبل الفرح أيضًا، وبدأت استغاثة الفجر.. ثم أذان الفجر، ثم فوجئت بشبح يهرول على الطريق قادمًا إلى العزبة، فمددت يدي خلف ظهري إلى الشباك ووضعتها فوق البندقية على استعداد لسحبها في لمح البصر..

اتضح أنه الصبي الذي كان قد جاء بالركوبة ليأخذ محفوظ إلى الفرح.. في الحال تأكدت هواجسي، وتأهبت لتلقي الخبر المفزع..

ـ عم عازر! عم عازر صبحي؟

ـ مالك يا ولد؟! نعم أنا عازر صبحي عمدة العزبة!

إيه المصيبة اللي حصلت؟

اقترب الصبي مني، قال بصوت خائف مرتجف:

ـ محفوظ اتقتل!

صرخت فيه:

ـ محفوظ؟ يعني هو!

في تلك اللحظة انفتحت بوابة دار إسطاسية وظهر شبحها يتدحرج على الأرض كجلباب طيَّره الهواء عن حبل الغسيل. كانت قد سمعت اسم محفوظ في صرختي، ارتمت على المصطبة تنتفض:

ـ ما له محفوظ يا مقدس؟ قلبي بيرفرف!

ربت على كتفها بيد مرتعشة:

ـ ما تخافيش يا إسطاسية! ربنا ستر! ادخلي الدار عندي وأنا حاروح أجيبه حالا!



تركت إسطاسية مع العيال، إلى الزريبة دخلت سحبت البغلة، اركب ورائي يا ولد؛ بعد خروجنا من زمام العزبة نظر الصبي وراءه ثم قال إن إسطاسية تتطوح على الطريق من ورائنا..

في الطريق حكى الصبي ما حدث؛ بعد أن أنهى محفوظ مهمته وجمع النقوط الكثيرة وتعشى وتفرج على المزيكة والرقص طلب أن

يعود؛ لأن أمه وحدها في الدار.. بمجرد خروجهما بالركوبة من عزبة نصيف خرج عليهما من بين الأشجار في الأرض المنخفضة رأسان ملثمان، بتلفيعة من الكشمير تغطي الرأس والوجه لا يبين منها سوى العينين.. نفس التلفيعتين رأيتهما على رشاد أبو ستيت وأدهم أبو ستيت عندما كانا يسألان عن محفوظ قبل أذان المغرب بقليل.. الولد رآهما من بعيد وهو يهرول خلف الحمار، فنط فوق مؤخرة الحمار خلف محفوظ ونخس الحمار فبرطع في قفزات سريعة، فإذا بطلقات الرصاص تدوي من خلفهما وتمر بجوارهما دون أن تصيبهما.. ولكن قبل وصولهما إلى قنطرة مصرف نمرة تسعة نزل الصبي عن مؤخرة الحمار ومشى وراءه على مهله تاركًا الحمار يبرطع كما يشاء فإنه يعرف الطريق وحده ذهابا وإيابًا.. طالت المسافة بين الصبي والحمار، فما أن وصل الحمار بمحفوظ إلى قنطرة مصرف نمرة تسعة حتى خرج عليه من تحت القنطرة رجلان آخران، حين صار الحمار في مرماهما انصبت عليه عشر رصاصات متتابعة، سقط محفوظ والحمار مضرجين في دمائهما.. تلكأ الصبي واختبأ حتى رآهما يجريان فوق القنطرة ثم يختفيان في الجانب الآخر من المصرف.. فعاد الولد المسكين جريا إلى عزبة نصيف، أبلغ الخبر، اشتغلت جميع التليفونات في العزبة وفي بلدتكم وفي المركز وفي مديرية الأمن، وصلت النيابة في صحبة الشرطة في مطلع الشمس، والجثمان مغطى بورق الصحف ومن فوقه إسطاسية فاقدة الوعي، ظلت عشرة أيام بلياليها في غيبوبة حمتها من الجنون المحقق.. حين أفاقت لم يكن على لسانها سوى عبد العظيم عتمان.. عبد العظيم عتمان.. عبد العظيم عتمان.. فأدركتها ـ من أجل خاطر الرب ـ قبل أن تتكلم في أي محضر، وعَّيتها، نصحتها بأن لا

تتهم عبد العظيم عثمان لأني متأكد تمام التأكد أنه لا دخل له في مقتل ابنها، إنما يجب أن تتهم أولاد أبو ستيت؛ رشاد أبو ستيت وابن عمه أدهم أبو ستيت، والحكومة تتولى إرغامهما على الإرشاد عن الملثمين الآخرين.. حكيت لها ما حدث من طق طق لسلام عليكم، شرحت لها ما أرابني في أولاد أبو ستيت باعتبارهم أصحاب مصلحة حقيقية؛ وكانوا يعتبرون ابنها لقمة ناشفة محشورة في حلوقهم.. وهذا ما قلته أيضًا في جميع محاضر التحقيق.. الولية صدقتني، اتهمت أولاد أبو ستيت ومن كان معهما..

القضية أخذت سكتها إلى المحكمة.. محامينا كان ذكيا في الاستفادة من شهادتي وشهادة الصبي وتحويلهما إلى أدلة ثبوتية دامغة ومنطقية في تسلسلها وترابط دلائلها.. ولكن محاميهم كان أقوى وأبرع؛ أتى بثلاثة شهود ضخام من الواضح أنهم على صلة قربى وثيقة بهم إلا أننا أعجز من أن نستقطب أية ورقة رسمية تثبت هذه القرابة لنعتمد عليها في تخصيم الشهود.. ثلاثة من كبار صناع الموبيليا وأشهرهم في دمياط، شهدوا ثلاثتهم أن المتهمين رشاد أبو ستيت وأدهم أبو ستيت كانا مقيمين لديهم في دمياط للانتهاء من تجهيز عروس أدهم أبو ستيت من موبيليا وتنجيد وغيره، مع أن عائلة أبو ستيت ـ يعلم الرب ـ لم ولن يدخل دارها لا صالون ولا ستائر ولا أي هجص من هذا، إنهم ينامون على المصاطب والدكك إلى اليوم، أجعص عروس عندهم جهازها سرير ودولاب ودمتم.. ولكن هل يمكن إقناع المحكمة بمثل هذا الكلام؟! لأ طبعًا.. المهم، خسرت المسكينة القضية، نجا المجرمون من العقاب وبرطعوا في الحياة، وتركوا للمسكينة جرحا غائرًا في قلبها لا شفاء منه..

المؤسف ـ سبحانك يا رب ـ أن يضيق الناس بضراعتها اليومية إلى الله!.. وحق الرب إنهم جميعًا لشاعرون بالذنب؛ ولهذا يريدونها أن تسكت حتى لا تمعن في تعذيبهم.. أليس من حقها أن تستأنف الحكم في محكمة أعلى؟! لقد عجزت محكمة البشر على الأرض في تحقيق العدالة، فالطبيعي أن يلجأ المظلوم إلى القضاء الأعلى يطلب النصفة، وإسطاسية واثقة من أن عدالة الرب فوق كل عدالة، وأن الرب يسمعها ويشفق عليها غير أنه يمهل ولا يهمل..

فليتعذب الجناة الخطاة فهذا في حد ذاته عقاب إلهي، الجزاء من جنس العمل، فطالما لم يقعوا تحت كرباج يعذبهم على ما اقترفوا، فلتكن إسطاسية هي جلادهم الأفعل في الإيلام.. ومع ذلك، وبرغم ذلك فإنني على يقين إسطاسية، على يقين الفطرة الإنسانية الصافية صفاء القاع تحت الماء، بأن توازن الكون مبني على العدالة الحكيمة الحاكمة، وعدالة السماء لا بد أن تتحقق إن عاجلا أو آجلا، لا بد أن سيلقى المجرم عقابه، لا بد أن ينفضح ويصير عبرة لمن يعتبر، قادر يا كريم».

منتديات مكتبتنا

(ج)

خطبة منبرية حمقاء

«بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين، وكل من والاه إلى يوم الدين..

أما بعد. فأنا.. اسمحوا لي.. من عائلة ليست غريبة على هذا المنبر، وأظنكم لن تنسوا أخي الشيخ حامد البراوي.. تعرفون طبعا أنه عالم جليل يحمل شهادة العالمية من الأزهر الشريف..

وأنا - كما تعرفون طبعا - أخوه الأكبر عابد البراوي، قد نابني من الحب جانب.. أقصد أن علمه كان يفيض علينا، وعليّ أنا بالذات لأني كنت مرافقا له على الدوام.. ومع ذلك فلا أدعي أنني عالم مثله ولن أكون.. كذلك ليس في نيتي أن أرث هذا المنبر من بعده، ففي بلدتنا من هو أصلح مني لهذا المكان المقدس.. لكن على كل حال أنا تجرأت بالصعود إلى هذا المنبر هذه الجمعة فحسب، بعد إذنكم طبعًا، فالمثل يقول: الضرورات عدم المؤاخذة تتيح المحظورات، والعبد لله -

والحمد لله ـ ليس من المحظورات ولا حاجة والعياذ بالله، لكن قياسا على المثل أقول إن الضرورة هي التي حفزتني لأخطب فيكم اليوم خطبة هذه الجمعة..

كان المرحوم أخي الشيخ حامد البرواي يناديكم بقوله: أيها المسلمون، وأنا تيمنا به أناديكم بها، وأستأذن روحه الطاهرة في أن أضيف كلمة: يا إخواني، لأنكم بالفعل إخوتي، مصلحتكم هي مصلحتي، وأمنكم هو أمني، وعيالكم عيالي، وأظن أنني لست محتاجا لتذكيركم بما يبذله أخي العمدة عواد البراوي من جهود لكي يستتب الأمن في البلدة ويمتنع المجرمون واللصوص ويكفوا أذاهم عن عباد الله.. والحمد لله منذ حادث هلاك محفوظ ابن إسطاسية ـ ربنا يصبر قلب أمه ـ لم يحدث أي حادث، لا قتل ولا سرقة ولا تحريق قطن ولا تقليع زرع، وإن شاء الله ستبقى الأوضاع هادئة مستقرة.. ومن بواعث الاطمئنان ـ وهذا ليس سرا ـ أن أخي العمدة استطاع أن يستتيب عتاة المجرمين الطغاة في الناحية كلها.. وأن يطوعهم لخدمة الأمن والعدالة في البلدة والبلاد التابعة لعموديتنا..

أيها المسلمون، يا إخوتي المحترمين.. نحن كلنا ـ ولا داعي للإنكار ودفن الوجوه في الرمال حتى لا نرى ـ نحن كلنا أصبحنا ضائقين بالمناحة اليومية التي تنصبها إسطاسية فوق سطح دارها؛ يعني فوق أسطح دورنا جميعا.. فأسطح بلدتنا تكاد تكون تحت أقدام عزبة الحجر.. وإسطاسية تشعل نارًا فوق سطحها فجر كل يوم، تملأ قصعة كبيرة كقصعة العجين، وقودها حطب وخشب وأقراص جلة.. معنى الكلام أن سطح إسطاسية يعتبر قنطرة تعبرها الرياح

والعواصف، فإذا كان سطح إسطاسية فوق صخور عزبة الحجر هو الشاطئ العالي وبلدتنا في السفح السحيق هي البحر بغير ماء فإن الريح تتبختر قادمة من الجهة البحرية وتقف على سطح إسطاسية تأخذ الجمرات ثم تلقي بنفسها غاطسة ثم توزع قذائف النار على دورنا وهي كما تعرفون مغطاة بأكوام الحطب والقش.. هل استطعت يا إخواني أن أقرب الصورة لخيالكم؟..

طيب! من حق إسطاسية أن تحزن على قتل وحيدها، من حقها أن تستنزل اللعنات على رءوس كل فرد في البلدة، وأن تصدع رءوسنا، وتمزق أكبادنا، وتمرر عيشنا، وتسمم أبداننا بما تقوله من كلام يقشعر منه البدن، يرتعب منه الأطفال، يطلع للشبان في الكوابيس، يجعل نساءنا يُنَوِّحْنَ معها ويلطمن الخدود معها، مندبة يومية،بكاء ونواح لم ينل مثله جميع موتانا منذ خلق الله الحياة والموت، ولو كان ابنها هذا نبيا أو حتى ملكا أو أميرًا ما كان له أن يثير كل هذا الحزن في النواح في جنازة شعبية مقيمة طوال عامين، سبعمائة وأربعون صباحًا بالتمام والكمال والجنازة مفروضة على جميع بلدان الناحية..

والعجيب يا إخواني، والعجيب والله حقًا، أن الولية جُوَّاها بئر لا ينفد من اللعنات الموزونة المرعبة مثل التعاويذ السحرية، كل فجر كلام جديد، وكل كلام أنقح مما سبقه، وأشد وقعا على النفوس، لقد أصبح صوتها فرقة من الأصوات الفاجعة، لكأنها صوت بلاد بأكملها.. ولهذا يبكي جميع الناس كل صباح.. فهل بعثها الله لتزرع النكد في نواحينا؟! وهل زودها بكل هذه الذخيرة لكي تعذبنا بها على ذنوب اقترفناها ونحن لا ندري؟! هل الناس في بلادنا أدمنوها

وأصبحوا ينتظرونها مستعدين لمشاركتها في النواح؟!.. أنا والله تمخول عقلي وتبلبل بالي من الناس وليس منها وحدها.. ومن هنا تجرأت ووقفت على هذا المنبر أحدثكم نيابة عن أخي الشيخ الذي أحببتموه وقدرتموه حق تقديره..

إني أقول لكم يا إخواني إنكم ـ وليس نساؤكم فحسب ـ أصبحتم تدمنون صوت إسطاسية وتشجعونها على الاستمرار في تعذيبنا.. فهل أنتم في الأصل مشتاقون على الدوام للبكاء والنواح فما صدقتم أن وجدتم صوتا يفرقع جواكم ويجرجركم إلى النواح مثل من يسمونهم في الأغاني بالكورس؟!.. هل هي تمتعكم بنواحها؟! أم أنكم تبكون معها على سبيل التشجيع مثل مشجعي كرة القدم؟!..

من حق إسطاسية أن تحزن وتبكي، وأنتم يمكن أن تحتملوها، بل إن مزاجكم متوافق مع استمرارها في مسلسل النكد.. فإن كنتم تعرفون الجاني وتبكون معها على عدم الإمساك به إلى اليوم فأنا في عرضكم أن تبلغوا عنه أخي العمدة وشوفوا ماذا سيفعل المسكين الذي يهدد بترك العمودية طالما هو عاجز عن الإمساك به.. وإلا فعدم المؤاخذة تكونوا جبناء إذا عرفتموه وكتمتوه، إنكم إذن تتواطئون مع المجرم ضد الولية التي تبكيكم وتزعمون أنكم تتعاطفون مع مأساتها.. وحتى لو كنتم تمتنعون عن التبليغ عن المجرم لكي تستمر إسطاسية في نواح يرضي مزاجكم ويطربكم مثل غناء أم كلثوم فإن الوصف اللائق بكم هو أنكم تعذبون أنفسكم بالمجان..

أيها الإخوة المسلمون.. أقول إن من حق إسطاسية أن تقتل نفسها حزنا على ابنها، ولكن ليس من حقها أن تتسبب في كارثة تقضي علينا

جميعا.. لقد غلب حمارنا أيها الأخوة المسلمون أنا وأخي العمدة.. ولا تنسوا أن إسطاسية تعتبر شريكة لنا باسم ابنها في مكنة الطحين ومكنة المياه وتتقاضى نصيبها من الأرباح أولا بأول، يعني نحن أول من يدافع عن إسطاسية ضد أي عدوان تلقاه، لكننا عجزنا عن تهدئة خاطرها بأي شكل..

أيها الإخوة المسلمون، كل ما أرجوه منكم لأجل خاطر النبي أن تمتنعوا عن تشجيع إسطاسية من تحت لتحت، لا تشاركوها البكاء، أهملوها حتى تيأس وينكتم صوتها الذي أصبح كرباجًا يجلدنا بغير ذنب جنيناه.. صدقوني لقد تهرأ جسدي أنا شخصيا، لم أعد أهنأ بساعة نوم واحدة.. أصبحت أخاف إن خربت الدنيا بسبب نواح إسطاسية أن تلقوا باللوم علينا.. اللهم إني قد بلغت، اللهم فاشهد.. اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا.. اللهم جمّل نساءنا بالعقل والحكمة.. اللهم اهزم أشرارنا وانصر أخيارنا إلى يوم الدين.. سبحانك ربي رب العزة عما يصفون، وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تفلحون».

(د)

التفسير العِتْمَاني للعائلة

«من يعرفني في البلد يعرف أن عبدالعظيم عتمان قلبه مثل البفتة أبيض، وكلامى عن إخواننا القبط ما هو إلا هجص في هجص، وهم يعرفون ذلك؛ ولهذا لا أحد منهم يؤاخذني أو يزعل مني.. ربنا ما يجيء بزعل، لكن هناك في بلدتنا هذه من يحلو له أن يغذي النار بالحطب بدلاً من إطفائها، ربنا يجعل بيننا وبينهم سدا..

أنا أخذت على نفسي عهدا بأن أخيب أمل كل من يريد أن يأكل الفتة على قفاي، واحد منهم يسمعني أهجص بكلمتين فيروح يقتل الولد لكي أروح أنا فيها، الله أعلم من هو؟ الكذب خيبة، والولد مقتول في فرح، والفرح لامم الشامي على المغربي.. أنا على فكرة كنت مدعوا لهذا الفرح، لكن الله جلت قدرته أراد لي النجاة من مصيبة كانت مدبرة لي، فكسلت عن الذهاب وأعطيتها نوما حتى صبيحة ربنا.. جاءني الصوات من بعيد، ولأول مرة في حياتي يخطئ إحساسي في فهم نوعية الصوات، تصورته بهيمة تطلب الحلال، فسحبت

سكاكيني وجريت أستنشق الهواء الذي يحمل الصوات، فإذا به يذبح قلبي كما تذبح سكينتي البقرة، الصوات كان أحمى وأمضى من سكاكيني، بكيت والله لما تبينت أن الصوات من إسطاسية وأن القتيل هو ابنها محفوظ، عليّ الطلاق بالثلاثة بكيت بحرقة حزنا على شباب الولد، وعليّ الطلاق بالثلاثة مرة ثانية إن كنت تذكرت لحظتها أنني سبق أن هددته أي تهديد، فأنا بالفعل لم أكن أهدد، إنما كنت أبرطم من الغضب، وبعد البرطمة لا يبقى عندي أي غضب..

أشك أن قتلة محفوظ من بلدتنا، ما داموا صدقوا أنني جاد في الكلام ويمكن أن أقتله إن كنت أستطيع القتل أصلا وإن كنت أجيد ذبح البهائم.. اعتمد القتلة على شائعة تهديداتي في إبعاد التهمة عنهم ودحرجتها فوقي.. هم لا يعرفون أنني أذهب إلى عزبة الحجر يوم عيدهم وأعيِّد عليهم في دورهم واحدا واحدا.. في زمن الصبا لم أكن ألعب الكرة إلا في جرن عزبة الحجر وكان فريقي والفريق المنافس يضمان الكثيرين من عيالهم..

لعلمك، إني عاتب على إسطاسية تصديقها للشائعات لدرجة أنها اتهمتني لحظة سماعها الخبر، ولولا زينة عقل المقدس عازر صبحي وبُعد نظره لكان زماني مرميا في السجن أنتظر النطق بإعدامي.. أهكذا يا إسطاسية؟! نسيت أنني أنقذت ابنك محفوظ من الغرق حينما وقع منك في هويس ترعة المشروع وأنت قاعدة على الموردة فوق الدرجة الغاطسة في الماء تغسلين حبوب الغلة نقلة بعد نقلة بالقفة، وكان محفوظ يتنطط حواليك يلخمك فتصوتين من ضيقك وتضربينه فيجري على المسطاح فتنزلق قدمه فيجرفه الماء ويدفعه إلى بعيد وأنت

تلطمين وتصرخين والدنيا من حواليك خامدة تحت قيظ الظهيرة، لم يكن على الطريق لحظتها سواي، كنت راكبا حماري متوجها إلى أرض الوسية لإدراك بهيمة انحشرت في بئر الساقية، وجعني قلبي يا إسطاسية من منظرك ورأس ابنك مثل فلة السنارة تغطس وتقب، فرميت سكاكيني وخلعت ملابسي، رميت نفسي في قلب الترعة قبل أن يغيب الولد في قاع بوابة الهويس، ربنا ستر، شلت الولد على كتفي وسندته بذراع وبالذراع الأخرى سبحت عائدا به إليك على درج الموردة، وربنا ألهمني أن أميله وأضغط على بطنه ليطرد الماء الذي دخل جوفه، وبقيت واقفا معك إلى أن جاء زوجك المعلم غطاس مع المقدس عازر صبحي. كيف تنسين ذلك يا إسطاسية؟!.. هذه واحدة يا إسطاسية، إن كنت نسيتها أذكرك بواحدة أخرى: هل تذكرين يوم شب الحريق في كوم الدريس أمام دارك؟ يومها كان صواتك نفس هذا الصوات الذي يفزع الغائب في سابع نومة.. كان العبد لله أول من نط فوق سطح دارك هذا الذي تشتمينني من فوقه الآن وترفعين شكواك لله كي يميتني غريبا في الصحراء حتى تأكلني الوحوش والغربان.. يومها بعون الله أخمدت النار قبل أن تستفحل في سقف دارك.. على كل حال ربنا يسامحك يا إسطاسية..

الله أعلم إن كان عمك العمدة عواد البراوي يعرف القتلة أم لا؟ وإلى ماذا توصلت تحرياته إن كان يتحرى بالفعل، هل تحرى وعجز عن الوصول إلى الخبر اليقين؟ أم أنه يعرف القتلة ولكنه يعجز عن القبض عليهم لسبب من الأسباب؟.. لو سألتني رأيي في هذا الأمر أقول لك بملء فمي إن العمدة عواد البراوي ـ لا تؤاخذني ـ لم يشغل باله بهذا الموضوع لدقيقة واحدة.. كل أهالي منية الكردي

كانوا يتوقعون أن يقلب العمدة عاليها واطيها بحثا عن قاتل شريكه محفوظ والثأر منه، لأننا جميعا نعرف أن محفوظ بالنسبة للعمدة عواد البراوي فرخة بكشك، يحبه أكثر من حبه لعياله منذ كان محفوظ طفلا صغيرًا.. إنما العمدة عواد البراوي لا صاحب له، بتاع مصلحته، العائلة كلها عيّنة واحدة من غير مؤاخذة ما عدا المرحوم أبو حمزة كان كأنه من عائلة أخرى مختلفة فى كل شيء.. لماذا لا نقول إنه من عائلة أخرى بالفعل؟ طبعا، عائلة علماء الأزهر الشريف الذين تربى بينهم فى رحابه فأصبح من الناس الطيبين حقا في الدنيا كلها.. وحياة دين النبي، وطربة أمي، لو كان هذا الرجل الطيب من عائلة أخرى في أي بلد لبنيت له ضريحا محترما يزوره الناس ويقرأون على روحه الفاتحة.. كان يشكم هذه العائلة بالقوة ولهذا ما صدقوا أن رحل وفجروا فجورًا شديدا من غير مؤاخذة لا تزعل مني في هذا الكلام، عوضوا ما فاتهم، إنهم يتلذذون بالفجور يا رجل كالمحروم يأكل بشراهة مقرفة..

الناس كانوا يحترمون العائلة إكراما لخاطر الشيخ.. الآن لا أحد يحترمهم عدم المؤاخذة حتى وإن زعلك هذا الكلام.. العمدة وأخوه عابد ومن ورائهما بقية الحناكيش تصوروا أننا نخاف منهم باعتبارهم بيت العمودية الحاكمة.. غلطانون طبعا، فليس يخاف إلا من كان على رأسه بطحة تؤلمه وتفضحه.. وأنا لما فكرت فى اقتناء مكنة مياه كنت في عقل بالي أريد أن أتحدى العمدة وأخاه المتجبر، لأثبت لهما أن في البلدة ناسا لا يخافون من زعبوط البراوية الذي يتعممون عليه بشال أبيض ويجب أن يكون أسود مثل قلوبهم..

طب ما قولك أنه هو الذي على رأسه بطحة وبطحات، الخوف يليق به وحده، ويلحق بعائلته.. إن كل واحد من هؤلاء المجرمين الذين يأويهم اليوم بحجة أنهم تابوا وكفوا أذاهم عن الناس وأنهم يعاونونه في مطاردة اللصوص ويرشدونه عن مخابئهم التى يعرفونها.. بالذمة مش مكسوف؟! كل واحد منهم بطحة كبيرة في رأس العمدة.. اليوم رجال العمدة كلهم بطحات في رأسه وجبينه..

ما قولك في معاطي؟ أقدم قاطع طريق في براري كفر الشيخ من عهد ما قبل ثورة جمال عبدالناصر، جبار، كانت الجرانين ذات يوم تسميه بالرجل الزئبقي أيام كان يدوخ الحكومة لعجزها عن القبض عليه.. يسرق الماشية، والبيوت، يخطف المحاصيل من الأجران، يختطف الرجال، الرجال الأقباط بالذات نظرا لجريان الفلوس بين أيديهم طوال العام دون ارتباط بمحاصيل زراعية؛ يعني أنهم قادرون على دفع الفدية المطلوبة نظرا لعدم ترحيبهم بتدخل الشرطة خوفا على حياة المخطوف من خاطفيه للتخلص منه عند الزنقة في هذه البراري الشاسعة المخيفة..

وما رأيك في بشْلة؟ حصان. طوله متران، ضخم الجثة.. هو طبعا أقوى رجال معاطي، يستطيع أن يحمل رجلا ـ أيًا كان وزنه ـ تحت إبطه كحزمة برسيم، ويجري به لمسافات طويلة، يعبر به الترع والمصارف والمزلقانات، وينط به أسوار الجناين، تلك هى وظيفته طول عمره!..

وماذا تقول في زيدان أبو زعير؟ عبد أسود غطيس، عيناه تبرقان في الظلام.. شغلته الأصلية خفير على مكنة طحين العمدة، هو الآخر

ضخم الجثة، وظيفته عند الاختطاف حراسة الخاطف وتأمين ظهره بالبندقية المعمرة في المليان، إلى أن يخرجا هو والخاطف من زمام البلدة، هنا تبدأ وظيفة الجلباب العجيب الذي يرتديه زيدان أبو زعير، إنه جلباب مصنوع من قماش الخيم، بذيل واسع، يرفعه زيدان أبو زعير فاتحا حجره، يتلقى فيه المخطوف، يطوقه بحجر الجلباب، يضع طرف الذيل بين أسنانه، فمن شدة الرعب يفقد المخطوف وعيه لا يدري إلى أين هو ذاهب..

فما بالك بـ«أبو هوانة»؟ ذلك التملي الذي يفرض خدماته على الأعيان والأقوياء لقاء غدوة وكسوة.. هل تذكر الغوريلا بتاعة أفلام الرعب؟ التى تراها كثيرا فى التليفزيون، إنه صورة طبق الأصل منها، لا فرق بينهما سوى أن أبا هوانة يرتدي جلبابا ويتكلم ويجلس تحت أقدام الرجال، وعلى فكرة، للغوريلا عقل مكين راجح؛ أما أبو هوانة فإنه مجرد من العقل كأن أهله أزالوه مع الختان، عقل الجسم هو وحده الباقي فى عضلاته وفي دماغه حين يجوع يأكل وحين يتعب ينام في أي مكان دون غطاء فى عز طوبة.. ليس يمنعه شيء عن فعل أي شيء تطلبه منه مهما كان طلبك جنونيا، إلا أن تقابله امرأة في الطريق وهو في طريقه إلى تنفيذ الطلب، عندها يرتد في الحال ماشيا وراء المرأة يفرض عليها حراسته حتى يطمئن إلى أنها دخلت بيتها في أمان، وإن كان ذاهبا للسرقة أو للخطف أو للقتل وقابله فى الطريق رغيف خبز مع أحد أو على فرش بائع يرتد في الحال مؤجلا تنفيذ الطلب، إنه يتشاءم من الخبز في مثل هذه الحالة كأنه نذير بأنه مكتوب له العيش في السجن!.. شيء عجيب حقا ولكن لله في خلقه شئون..

يرجع مرجوعنا للعمدة عواد البراوي، وراءنا وراءنا حضرته، أين نروح منه أو يروح منا؟.. ساعات يتهيأ لي أنه ليس يملأ مركزه كعمدة تخضع لحكمه عدة بلدان بما فيها عزبة الحجر بعمدتها ـ الفرعي ـ المقدس عازر صبحي.. مصيبة العمدة ـ أو قل مصيبتنا نحن في الواقع ـ أنه ليس على أخلاق الفلاحين سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، الدنيا في نظره لا تزال هي القبيلة، يحكم بلدتنا وبقية البلاد كأننا جميعا من قبائل أضعف يجب أن تخضع له بالقوة.. إنه شيخ قبيلة ناقص العقل، ثلاثة أرباع شخصيته هواء مضغوط كعجلات السيارة، نفخة كذَّابة، طول بعرض برقبة طويلة ملغدة.. ورأس مدببة مثل زعبوطه.. يتهدل صدغاه بفائض من الدم الملتبس بلون الطحينة، ثقيل الحاجبين كحيوان بري، واسع العينين كجحرين يطل منهما فأران مذعوران يظهران ويختفيان في البرهة الواحدة مئات المرات، بطنه كبرميل منبعج، إذا جلس على المصطبة أمام الدوار بالفانلة والسروال نلمح تحت جلد بطنه هيئة خروف مشوي ابتلعه لتوه دون مضغ.. يحكم بلدانا فيها اليوم مهندسون ومحامون ومعلمون وأطباء ورؤساء مجالس إدارات ووكلاء وزارات بأسلوب القبيلة البدوية؛ رح يا ولد! تعال يا ولد! تكلم يا بجم! اخرس يا حيوان!..

البلدان كلها كاشفاه، عاجناه وخابزاه، وهو في غيبوبة، كل الناس تنتظر الفرصة لتخليص القديم والجديد من هذه العائلة وهو لا يزال يتوهم أنه سوف يورثنا لعياله..

كله كوم وأخوه عابد البراوي كوم آخر، أزرق الناب، علم كل عياله في المدارس في البندر؛ أما العمدة فقد خاب في تربية ولديه

عمار وعبد الغني، لم يذهبا إلى المدرسة من الأصل.. هما الآن رجلان متزوجان وكل منهما عنده زربة عيال.. أما هو، الرجل الدقرم ذو الناب الأزرق فأنت تعرف: أربعة صبيان يحسد عليهم: مصطفى وجودة وعبد المعبود وجمال، تعلموا تعليما عاليا بأموال منهوبة من دم الناس، وعدم المؤاخذة فأنت لست منهم كما اتفقنا، أنت أغلب واحد في العائلة، لا تزال تذهب إلى محطة القطار بالركوبة أما هو فالسيارة المسماة بالفولفو توصل عياله إلى حيث يشاءون..

هل تعرف حكاية هذه السيارة الفولفو؟ طبعا لأ! أعرف أنك لا تعرف، فمن حسن حظك أنك بعيد معظم شهور السنة.. دعني أحكي لك قصة هذه السيارة..

الولد الغلبان محمد أبو الحسن ابن خالي تعرفه طبعا، أشهر تعيس في بلدتنا.. أبوه - خالي أبو الحسن عيسوي - باع ثلاثة أفدنة على تعليمه في كلية اسمها يصد النفس من سوء سمعته؛ الآداب، كلمة مزعجة جدًا والعياذ بالله كلما سمعتها يرتجف قلبي وأتخيل بنات الهوى مقبوضا عليهن متلبسات وتنشر الجرائد صورهن وفوق عيني كل منهن شريط أسود.. ولكن محمد شرح لي أنها كلمة عظيمة ومعناها يعني الأدب الذي فضلوه على العلم.. تخرج محمد أبو الحسن في هذه الكلية وربنا أكرمه من وسع، فعينوه معيدا في آداب الإسكندرية، فانبسط حاله وذاكر حتى صار دكتورًا في علمه، ورشحته الجامعة للإعارة إلى جامعة الكويت، فأكرمه الله من وسع..

الولد غلط غلطة عمره، حينما أصبح من أصحاب الأرصدة في بنوك الكويت راح يخطط للبقاء في الكويت إلى الأبد لكي تبقى

أرصدته بعيدة عن عيون الحاسدين وعن طمع الأهل فيها.. كان يغير سيارته كل عام، ولم يكن قد مضى شهر واحد على شرائه للسيارة الفولفو الكبيرة حينما هجم صدام حسين على الكويت واحتلها وصادر جميع الأموال التي وجدها في البنوك.. ضاعت أرصدة محمد ابن خالي بالمليم، حتى مرتبه الشهري من الجامعة لم يجد من يدفعه له.. الكويت صارت فجأة كيوم القيامة، الكل تائه، الكل يبحث عن ملاذ.. أخيرا جمع صاحبنا هدومه في ثلاث حقائب ربطها في سقف سيارته الجديدة الفخيمة المشئومة، ركبها واتكل على الله، قرأ الفاتحة على روحه عشرات المرات في الطرق الملغومة بجنود مرتزقة إذا اشتبهوا في هارب قتلوه في الحال للاستيلاء على ما قد يكون معه من مال أو جواهر أو أمتعة ثمينة.. بعون الله وببركة دعاء أمه التي جحدها، وصل بسيارته سالما إلى بلدته وهو كما خلقتني يا رب ترزقني، لا شيء معه سوى الهدوم والسيارة.. في نوبيع باع ساعته الذهبية وخاتما ثقيلاً ليصرف من ثمنها، خرج من الجمرك بتصريح مؤقت تتحرك به السيارة فى مصر إلى أن يدفع جمركها.. منظر السيارة كان فرجة، كان الناس يمشون وراءها في انبهار وهي تمشي ببطء فوق أرض مفحوتة ملآنة بالردم والأحجار والبرك ومعاجن الطوب.. تعاسته كانت فرجة هي الأخرى.. أصبح يستلف فلوسا من أمه الغلبانة.. السيارة الفولفو ـ بديك أمها ـ مطلوب منها خمسة وأربعين ألف جنيه وكسور قيمة الجمرك تبعا لثمنها الأصلي المقدر عندهم.. ركنها بجوار الدار مغطاة بالمشمع لأنه لا يحتمل مصاريفها، وكانت مساعيه قد نجحت فانتقل إلى جامعة طنطا وعاد إلى المواصلات العادية..

إلى أن احتال عليه عابد البراوي الله لا يكسبه، تسلط عليه

كالوسواس، أقنعه بأن يبيعها له بدلاً من ركنتها التي ستتلفها ثم إن العودة إلى الكويت مستحيلة لسنوات طويلة قادمة.. ولكن يابو العمدة إن الجمرك وحده يطلب خمسة وأربعين ألفا حتى يسمح بترخيصها في مصر، قال: موافق.. ثمن السيارة كان مائة ألف من الجنيهات المصرية.. موافق أيضًا، يعني سيدفع للدكتور محمد خمسة وخمسين ألفا، وللجمرك خمسة وأربعين غير مصاريف الترخيص طبعا.. جرى الاتفاق بينهما على أن يقبض الدكتور محمد خمسة عشر ألفا في مقابل أن يوقع له على توكيل رسمي مؤقت يعطي للبراوي الحق في تسيير السيارة، وعندما ينتهي البراوي من الجمركة ونقل الملكية والترخيص يدفع للدكتور محمد بقية حقه أربعين ألفا.. وقد حصل، استلم البراوي السيارة والتوكيل، واشترى الدكتور محمد بالمبلغ سيارة فيات مستعملة وانتظمت حياته.. شهر شهران سنة والدكتور محمد لا يتلقى سوى الوعود الكاذبة والتأجيلات..؟ آخر ما زهق راح الشهر العقاري وسحب توكيله، وكان قد عثر على زميل مستعد لشراء السيارة والدفع فورا مع التغاضي عما يكون قد جرى لها من بهدلة.. راح يشكو عابد البراوي لأخيه الشيخ حامد، فصعقته المفاجأة؛ إنه لا يعرف أن هذه السيارة الفخيمة التي تركن في الحوش الجامع لدور العائلة تخص أخاه عابد، الرجل الهادئ الرزين تعفرت، صفق كفا على كف:

ـ حد علمي يا ولدي أنها ملك الدكتور مصطفى ابن أخي! هو

مسئول كبير في مديرية التربية والتعليم في المحافظة!

اشتراها كما سمعت من تاجر حبوب في كفر الشيخ

كان مزنوقا في قرشين!

الدكتور محمد حصلت له لوثة، صار ينشال وينحط، ونحن أهله نتسمع ونشاهد من شباك المندرة، لم أشأ الدخول معه إلى المندرة ولا الدخول في الموضوع من أساسه لأني لا أريد الاحتكاك بهذه العائلة..

أخيرًا جيء بالحاج عابد ـ الوحيد في بلدتنا الذي لا يقول له الناس يا حاج أبدا مع أنه حج ثلاث أربع مرات ـ فدخل بقامته الكابوسية الباردة الأعصاب، جلس في مواجهة أخيه والدكتور محمد في هدوء وثقة، وبعين قوية بجحة فاجرة زجر الدكتور محمد بنظرة اندهاش:

ـ ما لك متعفرت ليه؟ فيه إيه؟

قال الدكتور محمد وهو يحبس دموعه:

ـ عربيتي يا ابا الحاج! مادفعتليش ثمنها ليه؟!

شخط فيه مشوحا بذراعه في وجهه:

ـ مالى أنا ومال عربيتك؟! إنت حترمي بلاك علينا؟!

قال الشيخ حامد أبو حمزة:

ـ يا ولدي! أنا سمعت إن كان عندك عربية حواليها مشاكل زي البيت الوقف! صح الكلام؟

أكمل الدكتور محمد:

ـ ولا وقف ولا حاجة! المشكلة كلها في الجمرك مبلغ كبير وأنا منكوب فلوسي اتاكلت مني في الكويت على داير مليم! ما أنت عارف حضرتك اللي جرى لنا من تحت راس صدام حسين!.. جيت

من الكويت كما خلقتني يا رب ترزقني!.. وأنا وافقت أبيعها للحاج عابد بعد ما ساق علي طوب الأرض واديته توكيل رسمي وخدت خمستاشر ألف لحد ما يخلص في الجمرك ويجيني عشان أسجل له وأنقل ملكية ونرخص! وآدي وش الضيف من سنتها لحد النهاردة!..

قاطعه الشيخ:

ـ وإذن فهي غير صالحة! في حين أن سيارة ابن أخي مرخصة باسمه لا باسم أبيه! فكلامك مع الأسف مالوش رجلين يقف عليهم!

تعاسة الدنيا كلها انطرحت على الدكتور محمد، صعب عليَّ منظره وهو يصيح في ألم وفجيعة:

ـ يا ناس العربية عربيتي ولو نطقت حتتعرف عليّ!

وممنوع ترخيصها إلا بمعرفتي!

أخرج عابد البراوي محفظته من جيب الصديري وهي كبيرة مطوية فوق بعضها، فتحها بهدوء كأنه سيعطي للدكتور محمد فلوسه، لكنه عبث بأصابعه الطويلة في جيبها الصغير وسحب منه رخصة مغلفة بالبلاستيك، رفعها بين إصبعيه كأنه يعرضها في مزاد علني:

ـ إذا كانت عربيتك ممنوع ترخيصها! أمال أنا جبت الرخصة دي منين؟! ابني الدكتور مصطفى لو انطبقت السما على الأرض عمره ما حيزور في أوراق رسمية زي دي!.. ثم حتتعب قلبنا ليه؟.. البائع اللي باع للدكتور مصطفى موجود! والاتنين الشهود موجودين! وآدي رخصة مرور تخرق عين التخين! وقدامك البوليس والمحكمة! ده آخر كلام عندنا وسيب الشيخ في حاله!

لجأ الدكتور محمد إلى الشرطة، داخ في الأقسام والنيابات، أتوا بالمهندسين والخبراء، كشفوا على السيارة وفحصوها بدقة قطعة قطعة، وكان عابد البراوي قد أخذ الأوراق التي اشترى بها الدكتور محمد من الشركة البائعة، لكن الدكتور محمد احتفظ عنده بصور منها.. فكانت المفاجأة قائلة: رقم الشاسيه والموتور وكل ما هو مرقوم، اختلفت جميع أرقامه مع الأرقام المحفورة في أماكنها على السيارة!.. كيف حصل هذا اللبش؟ هذا اللبط؟.. الله وحده يعلم..

أختي أم الدكتور محمد أصيبت بالعمى من كثرة بكائها على حظ ابنها الذي وضعه في حنك تمساح عجوز ليس يرحم.. أبوه ربنا يكفيك الشر مشلول، والاثنان معا على موعد يومي مع نار إسطاسية، يردان على كل كارثة تطلبها من الله للجاني بكلمة: آمين!.. الدكتور محمد نفسه جاءه مرض السكر من كثرة الفرك في النفس، إن الإحساس بالظلم يقهر الواحد منا، فما بالك لو كان الواحد منا عاجزًا عن أخذ حقه بيده؟.. لم يكن يعرف أنه أصيب بالسكر، لكن غيبوبة فاجأته وهو يلقي محاضرة في قسم اللغة العربية، فسرها على أنها دوخة من الإرهاق الشديد نتيجة السفر كل يوم في مشوار طويل شاق على سكك نصفها غير مسفلت وفي سيارة عرجاء متهالكة؛ إلا أن طالبة لطيفة من عيال الأثرياء فسرت هذه الدوخة بأنها نقص في السكر، أرادت مجاملته، فتحت حقيبة يدها، ذهبت إليه بقطعة من الشيكولاته الفاخرة في حجم الكف؛ يمكن دي تنشط شوية، فشكرها بامتنان، ولكي لا يكسفها نزع غلافها وقضم نصفها متلذذا ثم طوح ببقيتها في فمه دفعة واحدة.. فما أن بلعها حتى ازرق وجهه وانكفأ فوق المكتب غائبًا عن الوعي، ثم عن الحياة..

يا لعجائب الزمن! تصور أن اليوم الذي مات فيه الدكتور محمد أبو الحسن هو نفس اليوم الذي مات فيه الشيخ حامد أبو حمزة.. دخل النعشان إلى مقابر البلدة في وقت واحد كأنهما على موعد!.. و.. صدقني إذا قلت لك إن الشيخ حامد أبو حمزة تضعضعت صحته من أثر الصدمة في أخويه.. أنا كنت على علم بأن الشيخ كان يتحرى جيدا حتى عرف حقيقة الأمر فحزن أشد الحزن، كتم في قلبه، لعله في تلك اللحظة فهم لماذا يجرده الناس في بلادنا من لقب البراوي ولا ينادونه إلا باسم واحد: أبو حمزة، تصور، امتنع عن الخروج من الدار، ذهب إليه المصلون والمشايخ، جاءه طبيب الوحدة الصحية، قال إنها ذبحة صدرية.. و.. الله أعلم إذا ما كانت بلادة أخويه عابد وعواد هي السبب في إهمال الشيخ يتألم عدة أيام بلياليها؟ أم أن الإهمال كان مقصودا وكان الأخوان يرغبان في رحيل الشيخ لينعتقا من شكيمته القوية؟.. لست أقول هذا عن سوء نية؛ إنما الطبيب هو الذي وبخهما بهذا التأنيب أمام جمع من الناس، ونقله إلى مستشفى المركز محاولا إدراك ما يمكن إدراكه من صحة الشيخ، لكن الشيخ لفظ أنفاسه في الطريق، فعادوا به إلى الدار، ومنها إلى القبر في نفس اليوم قبل أن يغير رأيه ويعود إلى الحياة، هكذا أشاع الناس ساخرين من استعجالهم الدفن بذريعة إكرام الميت دفنه.. والواقع أنهم دفنوا معه هيبة العائلة إلى الأبد».

(٣)

شرّ المخبّي!

قالت لي:

ـ «إني أخاف عليك يا حمزة!».

اعتراني توجس من مغالاتها في الخوف علي:

ـ «ممن تخافين يا أمي بحق الله؟!».

عيناها اتسعتا فجأة كجورتي نار:

ـ «عمك العمدة شرَّابة خُرْج! الخوف كله من عمك عابد!

نجاحك بتفوق في كلية الحقوق جعله يبارك لك من تحت ضرسه!».

ـ «حاقد عليَّ مثلا؟ لماذا؟ ابنه الكبير مصطفى باسم الله ما شاء الله شخصية مرموقة في مديرية التربية والتعليم في كفر الشيخ!.. وابنه جودة مهندس زراعي معار للسعودية!.. وابنه عبد المعبود طبيب بيطري في طنطا!.. وابنه جمال مدرس ابتدائي في مدرسة البلد!

يعني ربنا أكرمه في عياله فلا مبرر لأن يحقد علي نجاحي، المفترض أن يفرح لأني ابن أخيه!».

ـ «هو يخشى أن ترث مكانة أبيك في قلوب أهل البلد!».

ـ «ولماذا الخشية؟!».

ـ «أن تصبح مثل أبيك!».

ـ «وهل هذا يخيفه؟!».

ـ «إن صرت مثل أبيك ستخيفه بالتأكيد، ستتكلم في الحرام والحلال! ما يصح وما لا يصح! هيبة العائلة!.. أبوك رحمه الله كان يتقي الله في دينه! وأتوقع منك أن تتقي الله في القانون الذي درسته وتفوقت فيه!.. الكارثة لو اختاروك وكيلا للنيابة!.. يجتمع في دارنا القانون مع الجريمة! تحت سقف واحد!.. لا أنت ستقبل! ولا عمك سينتظرك حتى تقبل أو لا تقبل!».

ـ «يقتلني مثلا؟!».

ـ «قبل أن تقتله أنت بقانونك المزعج!».

عندئذ دهمنا صوت إسطاسية تماوجه الرياح تحمله بأمانة من عزبة الحجر إلى دارنا:

ـ قولوا الحقيقة لأمه يا صبايا

دا الواد صغيَّر.. لسه ما اتهناش

وريني وشك يا ابني يا ضنايا

تسلم لي عينك من رباط الشاش

أفزعني منظر الدموع الهاطلة من عيني أمي، أشعر بشعورها الذي تحاول قمعه درءًا للفضيحة، أشعر أنها تكاد تصوت ملوحة بذراعيها في ولولة، بل تكاد تشق الهدوم، لكأنها نسخة من إسطاسية حملتها الرياح الهابطة من أعلى إلى أسفل:

ـ «أنت أم وأنا أعذرك! خوف الأم على ولدها الوحيد يجعلها تبالغ في الخوف عليه!».

ـ «عمك لن يطيق وجود رادع في الدار! لن ينتظر حتى يسمع من يقول له: يا أخي احترم ابن أخيك وكيل النيابة!.. وأنت لن تطيق أن تسمع من يقول لك: حقق العدل في داركم قبل أن تحققه على الغير!.. و.. من يدري.. والعياذ بالله الشر بره وبعيد! ربما يكون عمك عابد بصمة سيئة في ملفك الحكومي يمنعك من الترقيات وما أشبه!.. أنت تعلم أن المرحوم والدك علمني وثقفني وكان يسميني ببنت نفيسة! نسبة إلى السيدة نفيسة رضي الله عنها وكانت متفقهة في علوم الدين! كان طبعا يجاملني ويشجعني! فـ.. خذها مني نصيحة: لا تدخل في أي مواجهة مع عمك الآن!.. انتظر حتى يترستق وضعك في الوظيفة وتقوى وتستطيع مفاوضة عمك على الاعتدال في سلوكه احترامًا لوظائف عياله على الأقل! فإن وافق واستقام كان بها! وإن ساق العوج فكل واحد يعرف مصلحته وطريقه بعيدًا عن الآخر!».

ـ «الصلاة خير من الـ..نووووم».

تشبثت بذراعي تريد منعي من الخروج إلى المسجد. كنت أعرف أن ابتهال إسطاسية ونواحها هو المسئول عن هذه الهواجس من أساسها؛ فقد كانت خيمة الكرب تزداد كثافة ضبابية في مثل هذه اللحظة حيث

يلم الليل رداءه الأسود مصرورا ومعقودًا على نواح إسطاسية كأن الليل ساعي بريد يحمل طردًا يوميا فيه رسالة من إسطاسية إلى خالق هذا الليل والنهار وكافة الأكوان. ومثلما إسطاسية واثقة تمام الثقة في أمانة الليل الذي لا يمكن أن يخالف ضميره ويهمل في توصيل رسالة من مخلوق مثله إلى خالقهما معًا صاحب فصل الخطاب في كل قضايا العدل والقسطاس؛ فكذلك أمي واثقة من أن رسالة إسطاسية لا بد قد وصلت من أول يوم، وأن المسألة مسألة وقت فحسب، مسألة الإمهال الإلهي. فالله جلت قدرته ليس كعبيده متعجلا، فالعدالة لا تُقتنص، إنما تتحقق من تلقاء ذاتها المفطورة عليه في الكون، بعد إذ يأخذ كل شيء وقته الطبيعي في الوصول إلى مصيره دونما توجيه من أحد. ولربما حكم البشر في قضية اقتنع قضاتها بسلامة أحكامهم تمام الاقتناع طبقًا لمواد القانون الوضعي البشري، ويصبح على من صدر الحكم ضده أن ينفذه بالقوة الجبرية؛ ولكن حكم القضاء الأعلى يصحح الأوضاع طبقًا لقانون العدل السماوي، فتتدخل المعجزات والخوارق ـ من وجهة نظر أمي ـ لتنقذ محكومًا دخلت رقبته بالفعل في حبل المشنقة، أو لتهدم سجنا على سجانيه، أو تظهر براءة سجين كان معترفًا على نفسه، أو لتزيح طاغية كان يجثم على صدور أمة بأكملها.

منطق أمي هذا البسيط المفحم، الذي تؤيده صفحات الحوادث في الصحف كل يوم، أخجل من الاستعلاء عليه. هو في نظري ليس شعوذة، ولا ضربا من الرجم بالغيب، إنما هو وعي فطري بقانون المصادفة، أو ما نسميه نحن بالمصادفة في حين أنه لا شيء يوجد أو يحدث بالصدفة على الإطلاق. فكل شيء يحدث هو نتيجة لحركة

معينة في مضمار معين أدت إلى هذه أو تلك من النتائج الطبيعية. إن الصدفة هي نتاج لحركة قانون غير مرئي لنا. فإذا كنا نضع القوانين طبقًا لما نعيه وندركه من الحقائق الحياتية، فإن ثمة قانونا أعلى وأشمل، هي نواميس الكون، التي تتحكم في ما لا نراه ولا نعيه ولا ندركه من حقائق أعمق وأشمل؛ أي أننا في النهاية جزيء ربما كان تافهًا، من قانون غير مرئي يقوم على العدالة المطلقة. إليه يلجأ كل مغبون مظلوم مضطهد، فمهما كان المرء مثقفًا أو عالم ذرة فإنه عند المحن، عند الملغزات من الظواهر، عندما يعاكسه الحظ وسوء الطالع وتصبح المواقف غامضة والأشياء غير مفهومة، عندئذ فحسب، يرفع كفيه ضارعًا إلى السماء يسترحمها ويطلب ضوء هدايتها والانتقام له من ظالميه.

إني لمؤمن بهذا القانون كأمي وكافة الأمهات. إلا أننا كبشر لا نستطيع أن ننتظر عدالة السماء حتى تتحقق على مهلها. لا بد لنا من وضع قوانين نخضع جميعًا لها ونجتهد في تطبيقها حتى تنتظم الحياة وتصبح صالحة للعيش. فلنطبق عدالة الأرض كما نفهمها، ولا نفقد ثقتنا في عدالة السماء. فإن توافقت العدالتان فخير وبركة. وإن ضلت العدالة الأرضية سواء السبيل، ففي عدالة السماء إنصاف للمتهم وللقاضي على السواء. وإذا كان البعض منا يتصور أن عدالة السماء بالها طويل، وقد تتأخر طويلا؛ فإنني أتصور العكس تمامًا، فكثيرًا بل كثيرًا جدًّا ما تكون عدالة السماء أسرع من بطء المحاكم الأرضية، بل إنها كثيرًا ما تجيء فورية في وقتها المناسب، بل أحيانًا تكون هي ردة الفعل المباشرة.

هذا ما قلته لأمي وخلصت به ذراعي من قبضتها، واتجهت إلى باب القاعة قاصدًا الخروج إلى المسجد لصلاة الفجر؛ لكن طلقة رصاص دوت في الفضاء ارتج منها مقبض الباب في يدي. صوتت أمي، رمت بنفسها فوقي، أحاطتني من الخلف بذراعيها، شدتني إلى الكنبة.

ـ «اقعد! لا تتحرك من هنا!».

دوي الطلقة تكررت أصداؤه؛ ثم دوت طلقة أخرى؛ ثم ما لبث الفضاء حتى امتلأ بالطلقات المدوية. إنها الحرب إذن، ولكن بين من ومن يا ترى؟!

الدور كلها صحت. كل أبواب القاعات في دورنا الثلاث زيقت بجهارة مزعجة. تكاثرت الخطوات والأصوات في الفناء. قمت، فتحت باب القاعة، مشيت إلى الفناء الذي تطل عليه دورنا الثلاث من الداخل. عمي العمدة وولداه عامر وعبد الغني، وأقبل عمي عابد بالفانلة والسروال والصديري وبدون زعبوط أو عمامة. من ورائه ظهرت زوج عمي عابد وهي نادرًا ما تخرج أو حتى تتحرك، على صوتها ظهرت زوج عمي العمدة، على صوتهما ظهرت أمي.. التساؤل في أعينهم جميعًا. الجميع يسأل بعضه بعضًا:

ـ «فيه إيه؟!».

فلما استمر ضرب النار صرخ عمي العمدة في زوجه:

ـ «الهدوم يا مره!».

في دقائق معدودة لبسنا ثياب الخروج. تقدم عمي العمدة ومن

ورائه عمي عابد وأنا ومن ورائي عامر وعبد الغني. بعد قليل انضم إلينا أولاد عمي عابد: مصطفى وعبد المعبود وجمال. ما أن رأيتهم حتى تذكرت أننا في صبيحة يوم الجمعة ولهذا هم موجودون في البلدة. هم أيضًا راحوا يتساءلون في رعب كأننا على علم بما حدث:

ـ «إيه الموضوع؟!».

كان من الواضح أنهم جميعًا يدركون في أعماق نفوسهم أنهم جميعًا مستهدفون، تمامًا مثلما تدرك أمي أنني مستهدف منهم. كذلك كان من الواضح أنهم جميعًا على يقين تام بأن علاقة الناس بهم غير طبيعية، وأنهم في نظر الناس متهمون بتهمة ما، لعلها أكثر من تهمة، بل يبدو كأنهم يتوقعون ثأرًا يترصدهم في الطرقات وفي كل ركن مظلم. ولهذا فالفناء مضاء وكذلك الحديقة وما حول ماكينة الطحين.

فتح عمي باب الدوار، أضاء النور في غبشة الصباح، رفع سماعة الهاتف السوداء وجعل يدير القرص ثم ينصت ثم يعيد السماعة في يأس وضجر. سرعان ما اتضح ـ من القادمين من السكك ـ أن ضرب النار يأتي من عزبة الحجر، والطلقات تلمع في سمائنا كالشهب المتساقطة، ونار إسطاسية لا تزال تخط على وجه الأفق ظلال لون مخضوضر صاعد من بطانة وردية اللون كقوس قزح. برهة وجاء شيخ الخفر مهرولا، من ورائه خفير من عزبة الحجر..

ـ «إيه الموضوع يا شيخ الخفر؟!».

أشار شيخ الخفراء إلى خفير عزبة الحجر. فراح هذا يهلضم ويبرطم من فرط الاضطراب واللهوجة، لكننا سرعان ما فهمنا أن

أنفارًا تابعين لعمدة عزبة الحجر المقدس عازر صبحي كانوا يحرسون فرشًا ممتدًا أمام داره تتكوم فوقه جبال من القطن المجموع يوم أمس من أرضه تمهيدًا لتعبئته في زكائب، كانوا مسلحين طبعًا، مع العلم بأن جميع رجال عزبة الحجر مسلحون بطبيعة الحال.. وعند أذان الفجر، والناس في حالة ورع يشغلهم عما حولهم، تسلل معاطي قاطع الطريق العريق الذي استأنسه عمي العمدة زاعمًا أنه قد تاب على يديه وتحول إلى رجل صالح يخدم العدالة، تسلل بصحبة بعض رجاله المعروفين. لم يكن هدفهم سرقة القطن، هكذا أوضح الخفير، إنما كانوا يريدون خطف الرجل الطيب إبراهيم صليب، لاعتقادهم أن عياله المقيمين في هولندا وكندا كأطباء ورجال أعمال يرسلون إليه أموالا بغير حساب لعله يرضى عنهم ويصلي من أجلهم في غربتهم، ولا بد أن ابنته المقيمة معه في الدار، والتي تصرف ببذخ وتتبرع للكنيسة وفقرائها بكثرة، سوف تبادر في الحال بدفع الفدية قبل أن يتطور الخطف إلى بهدلة. وكانوا يعرفون أن إبراهيم مزاجه النوم على المصطبة البحرية تحت شباك مندرته طوال أشهر الصيف والخريف والربيع، ولا طريق لهم إلى مصطبة إبراهيم صليب إلا المرور من وراء قعدة المقدس عازر صبحي ليتجنبوا المرور من أمامه، أي أنهم سيمرون بحذاء فرش القطن من إحدى الجهات. لقد ظنوا أن الأنفار القائمين بالحراسة لا سلاح لهم سوى النبابيت أو الخناجر والسكاكين، لكن لسوء حظهم أن الأنفار كانوا مسلحين ومتأهبين بالبنادق والطبنجات. كانوا ساهرين إن لم يكن بدافع اليقظة في المراقبة فعلى الأقل بنواح إسطاسية الذي لا يمكن لأحد على الإطلاق أن يهنأ بنوم بمجرد أن يطقطق اللهب في صوتها. شعروا بوجود أشباح تتسلل زاحفة على بطنها.. مين هناك

مين هناك، فما رد أحد؛ فأطلقوا النار على الأشباح، فارتدت عليهم طلقات مكثفة، صاروا جميعًا يتبادلون إطلاق الرصاص من كل ناحية في غباء وعشوائية، كل من استيقظ مذعورًا في عزبة الحجر بادر بإطلاق الرصاص دفاعًا عن داره ضد غزو مسلح اقتحم بلدتهم. ربنا ستر على القطن من الاشتعال وإلا كان الحريق زمانه الآن في منية الكردي، لكن نفرا قد مات؛ أما بقية الأنفار الذين جُرحوا جميعًا واستقرت الطلقات في أجسادهم فقد أجمعوا على رؤيتهم لمعاطي وهو يهرب، فطاردوه، لكنهم عجزوا عن الإمساك به.

عمي العمدة ظل مغشيًا عليه طوال النهار مع أنه كان يروح ويجيء ويتكلم ويرد على أسئلة المباحث والنيابة. وكان عمي عابد يحلف بأغلظ الأيمان بأنه لا هو ولا أخوه العمدة يعرفان شيئًا عما حدث ولا عن المكان الذي اختبأ فيه اللعين معاطي. ولكن المفاجأة سرعان ما صدمتنا فدوختنا، إذ قلب وكيل النيابة في أوراقه وسحب ورقة، قرأها بسرعة، ثم نظر إلى عمي العمدة قائلاً بلهجة رسمية:

ـ «أين عمار عواد البراوي وعبد الغني عواد البراوي؟».

بصوت متكسر ولسان ناشف هتف العمدة مذعورًا:

ـ «ما لهم سعادتك؟!».

ـ «مطلوب القبض عليهما الآن!».

ـ «نهار أسود! لماذا؟ ما شأنهما؟!».

ـ «عمدة عزبة الحجر عازر صبحي يتهمهما بتدبير وتنفيذ ما حدث!».

ـ «يا سعادة البيه..».

ـ «لا وقت للكلام هنا يا عمدة!.. اقبضوا عليهما!».

هكذا صاح في رجاله بخشونة، فصاح معاون المباحث فيمن حوله:

ـ «من فيكم عمار ومن فيكم عبد الغني؟».

من منظرهما الغارق في الرعب والذهول عرفهما معاون المباحث فأشار إلى أحد رجاله فتقدم وسحب يديهما بخشونة وربطهما في بعضهما بالكلبشات تم سحبهما إلى عربة البوكس فورد الزرقاء الواقفة أمام الدوار، دفعهما إلى الصعود إلى صندوق العربة وسط ضجيج هائل من الصوات واللطم والنواح وتمريغ الوجوه في الطين والتراب، وفزع الأطفال. كان المنظر مروعًا. رحت أصفق كفا على كف في ذهول.

يبدو أن دهرًا طويلاً قد مر، إلى أن أفقت على نفسي جالسًا في الدوار وسط عدد كبير من الرجال المذعورين المرتعبين الأكثر هلعًا من الأطفال. في ذهولي وشرودي كانت تبلغني من حين لآخر عبارات لا أميز بالضبط من هو قائلها لكني أميز فيها أسماء لكبار المحامين في طنطا وكفر الشيخ، وأسمع برطمات وغمغمات تسب ديك الأقباط الغدارين، وأسمع صوتًا كصوت أمي يناديني في وهن: أستاذ حمزة، يغطي عليه صوت إسطاسية يستغيث بالمنتقم الجبار، وصوت مصطفى ابن عمي يقول لأبيه: تسافر معي الآن إلى كفر الشيخ نطلب مقابلة النائب العام، وصوت عمي العمدة يجأر بحرارة من قلب

متمزق: أستغفر الله العلي العظيم! بلوى وارتمت فوقنا على الصبح!..
فجاوبه صوت أمي من فوق سطح القاعة المواجهة للدوار:

ـ «اكفنا شر المخبي يا رب!».

عندئذ زالت الدوشة من أذني، صحوت تمامًا. أصابني من داخلي زلزال رج قلبي وعقلي هلعًا من شر «هذا المخبي». ترى، هل بدأ القضاء الأعلى يعيد ترتيب أوراق القضية؟ أم أنها كانت في الغيب مرتبة ومطروحة للنظر الإلهي منذ قيامها على الأرض إلى الآن؟. بدني يقشعر، أشعر ببرودة ثلجية، أنقل البصر بين الجالسين، لا أجد بينهم ثمة من دفء. طارت نظراتي إلى أمي فوق سطح القاعة، قمت من فوري ذاهبًا إليها، لعل رأسي فوق ركبتها يتخلص من هذا الزحام الذي يصدعه بقسوة مؤلمة، حيث اسودت الدنيا في ناظري، وبدا مستقبلي في النيابة العامة وفي القضاء سكة مظلمة تمامًا، فضلا عن أنها مليئة بالحسك والأشواك السامة.

منتديات مكتبتنا

(٤)

ثُقب على منور داخلي

كنت مارًا من أمام دار سيد أبو ستيت ساعة العصرية، فالتقيت ابنه رشاد وابن عمه أدهم يتشاحنان في مناقشة غامضة ظننتها نوعًا من الهزار الثقيل يتبادلان فيه التهديد بكسر الرقاب وتطليع الأرواح. ما أن رأياني حتى كفا عن الكلام، أقبلا نحوي في مرح كان من السهل اكتشاف أنه مصطنع. وبدا لي أنني ظهرت في الوقت المناسب لإيقاف المشاحنة قبل تهورهما، إذ إنهما مشهوران بالتهور لأتفه الأسباب. قال أدهم لرشاد:

ـ «أشوفك بالليل تكون عقلت!».

ومشى رافعًا يده لي بالتحية. أما رشاد فقد تعلق في ذراعي وحلف مائة يمين أن أدخل لأشرب الشاي مع أبيه في المندرة. وأضاف ـ ليحفزني على الموافقة ـ قائلاً إن أباه في حالة هستيريا منذ يوم القبض على ولديْ العمدة؛ فلعلني أضبط دماغه بكلمتين. سلمت أمري لله ودخلت.

استقبلني سيد أبو ستيت بحفاوة كبيرة. بقي مضطجعا على المصطبة المقابلة، فصارت بيننا مساحة كبيرة في فراغ المندرة. لهذا سرعان ما أهملنا واستغرق في شرود شبه ذاهل؛ وفجأة انفجر مثل بربخ، نسي وجودنا، راح يولول مكلما نفسه على دفعات كزخات مطر شهر أمشير، يسأل ويرد على نفسه. كلامه مطلي بالسخرية كعادته دائمًا حيث لا تعرف إن كان جادًا أم هازلاً:

ـ «يا لمصيبتك الثقيلة يا سيد يا بو ستيت أنت وابنك رشاد وابن أخيك أدهم!.. هذه الولية إسطاسية وجهها شؤم علينا! دعاؤها ممسوس!.. ريق الجن في صوتها بنت المركوب!.. يظهر والله أعلم أن الله بدأ يستجيب لدعائها علينا؟.. يظهر أن ملائكة الرحمن ضاقوا بمناحتها اليومية فأرادوا إراحة أدمغتهم منها بفعل شيء يسكتها أو على الأقل يطمئن بالها إلى أن قلبها سيشفى من الوجع بعد ضربنا جميعًا واحدا بعد واحد!.. فهذه بلوى سوداء رمي بها العمدة عواد البراوي في ولديه! جاءته الكارثة لحد عنده وأخذت ولديه من فراشهما من الدار إلى النار!.. يعلم الله بماذا سيحكم عليهما القاضي في الجلسة المحددة لمحاكمتهما يوم الأربعاء الأول من الشهر بعد القادم في محكمة الجنايات في كفر الشيخ!.. الدور والباقي علينا!.. إذا كانت إسطاسية سرها باتع إلى هذه الدرجة فإننا؛ عابد البراوي وأنا وابني رشاد وأدهم ابن أخي نصبح مرشحين للانتقام!.. على الأقل باعتبارنا متهمين سابقين.. والمتهم في بلدتنا يبقى متهمًا إلى الأبد حتى وإن برأته المحكمة!.. قلبي غير مطمئن من الأساس لهذا الذي جرى وكان!.. من يومها وأنا خائف في نفسي وأتوقع حدوث مصيبة لنا وللبلدة كلها بسبب نواح هذه الولية التي بشرت على بلدتنا بالحداد

لسنوات!.. بنت المركوب نصبت خيمة عزاء دائم فرضته على البلاد كلها! ولا توجد قوة قادرة على إسكاتها وإخماد نارها!.. ماذا إذن لو كان ابنها هو سيدنا المسيح عيسى ابن مريم؟!.. ما يدهشني أن بنت المركوب هذه خيبت ظني وظن جميع الناس الذين استهزءوا بضآلة شأنها وظنوها خياطة هدوم على باب الله يعني امرأة غلبانة لا تهش ولا تنش!.. الآن يتضح أنها جبروت! أنها القوة! أقوى من المصيبة! من الشرطة! من المحاكم!.. فهذه وتلك في نظرها عون للمجرمين وستر لهم!.. لم تكتم الحزن في قلبها حتى تموت كمدا!.. لم تقبل أن يقتل ابنها بالمجان! ويبقى القتلة على قيد الحياة!.. أستغفر الله العظيم إني لا أشك في عدله أبدًا أبدًا أبدًا.. لكني أيضًا لا أشك في رحمته وقبول توبة التائبين.. إنما.. إنما..»..

ـ «وحّد الله يا آبا.. إيه؟ ما صدقت أن انفتحت في الرغي! هل اشتقت للخطرفة؟ نسيت نفسك وضيفنا العزيز؟!».

ـ «أهلا وسهلا مرحبًا بالأستاذ حمزة الغالي ابن الغالي! نحن زارنا النبي!.. لا تؤاخذني يا أستاذ حمزة! مخي مطيور مما حدث لعمك العمدة!».

ـ «هل تتوقع أن يحدث لك شيء مثله والعياذ بالله؟!».

ـ «تف من بقك يا رجل! فال الله ولا فالك! ولكن.. نعم.. لماذا لا؟ لا أحد يختار ما يحدث له.. و.. لا أحد يعرف الغيب!.. وعلى كل حال.. كل ما يجيء به المولى نقبله طبعًا غصبًا عن بوزنا!».

ـ «يظهر أنك تشعر بالذنب يا عم سيد؟!».

ـ «سيبك منه يا أستاذ حمزة لا تشغل بالك؟! إنه كما قال مطيور! يعني مخه فاكك حبتين هذه الأيام!.. كلما شاف مصيبة يشخ على روحه كأننا مسئولون عنها!.. ينوي أن يشبهنا لله في لله!. اعمل فيّ معروفًا يا أستاذ وخليه يعقل!».

ـ «يا مجنون يا ابن المجنونة! أخيرًا أصبحت رجلاً محترمًا ومن حقك أن تجالسني هكذا وتتهمني بالجنون؟! والله بركة! إحنا ف ديك اليوم؟ خلاص يا عم! كن أنت المعلم وأنا الصبي!.. جاتك نيله عليك وعلى أمك!».

ـ «أحسدك يا رشاد على حب أبيك لك!».

ـ «هو الذي علمني أن أكون صديقه وأهزر معه على كيف كيفي طالما أني في النهاية أحترمه وأُطيع أوامره!».

ـ «قل لي يا أستاذ حمزة قبل أن أنسى..».

ـ «أقول ماذا يا عم سيد؟».

ـ «هل باركت لعمك عابد ولابنه مصطفى؟».

ـ «على ماذا يا عم سيد؟ على المصيبة التي انعك فيها عمي العمدة؟!».

ـ «يه يه يه! أما علمت بالخبر؟.. قد شربنا الشربات في دار عمك عابد مساء أمس!.. وسألت عنك على فكرة! فقالوا إنك مقتصر عنهم ولا داعي لإزعاجك!».

ـ «بصرف النظر! ما مناسبة الشربات؟!».

ـ «مصطفى ابن عمك ترقى إلى وكيل أول وزارة التربية والتعليم!

وغدًا سيسافر مع ابنه بالفولفو إلى مصر القاهرة ليتسلم منصبه في الإدارة المركزية في الوزارة.. وكان عمك عابد يتفاهم معه في أمر بيت أثري قديم في جاردن سيتي ليشتريه ليكون مقرًا للعائلة هناك وبالمرة يسكن فيه مصطفى وعياله.. يعني إيه جاردن سيتي دي يا أستاذ حمزة؟!».

ـ «والله ما أعرف يا عم سيد! لكنها فيما أظن أحد أحياء القاهرة السكنية! وفيها أظن أيضًا يسكنها الأثرياء!».

ـ «ربنا يعطينا ويعطيك!».

سمعنا طرقًا خفيفًا على الباب، وصوت نحنحة، وكلمة: يا ساتر، تبعها دخول أدهم أبو ستيت، حيانا برفع يده من بعيد، ثم جلس بجوار عمه على المصطبة:

ـ «أنا بعد ما مشيت ربنا ألهمني فرجعت جريًا قبل ما يمشي الأستاذ حمزة! قلت لعله يحضرنا في الموضوع ويعقل رشاد بكلمتين!».

دون أن أدري أفلت لساني!:

ـ «من بالضبط مطلوب تعقيله؟ رشاد أم أبوه؟!».

هبّ رشاد هاتفًا:

ـ «أبي مثلما قلت لك!».

شوح أدهم في وجه رشاد:

ـ «أنت يا رشاد راكب دماغك بتبرطع وتدهوس فوقنا كلنا!».

ـ «حقي!».

شخط فيه أبوه سيد بجدية:

ـ «كسر حُقك! تأدب يا ولد قدام الناس!».

نكس رشاد رأسه في ضيق. كان من الواضح أنه مشحون بغضب مخيف، وأن عفاريت الشر تتعارك وراء خديه المتفخين غيظًا وكتمانًا. قلت وأنا في حيرة من أمري:

ـ «ما الحكاية بالضبط يا أدهم؟».

أشار أدهم نحو عمه:

ـ «أبويا سيد يقول لك!».

صاح سيد في عصبية:

ـ «قل له أنت!».

نظر لي أدهم ورفع ذراعه متحفزًا:

ـ «صلِّ على النبي!».

ـ «عليه الصلاة والسلام!».

ـ «زده صلاة!».

ـ «عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام!».

ـ «الأمر وما فيه أن رشاد ابن عمي يريد الـزواج من أختي حميدة!».

ـ «ابنة عمه وزيتنا في دقيقنا فما المانع؟».

هتف رشاد في استحسان:

ـ «الله يفتح عليك! قل لهم!».

في مرارة وأسف قال أدهم:

ـ «البنت لا تريده! تقول إنه أخوها ولن تتخلص من أخوته فكيف تصبح زوجته وهي تختشي منه؟!. ثلاث سنوات ونحن في هذا الموال.. إيه الحل؟!».

في رفق شديد قلت لرشاد:

ـ «القضية منتهية إذن يا رشاد!.. فعلا! البنت محقة في موقفها! قرابة الدم ستبقى حاجزًا بينكما بالفعل يا رشاد! فكن عاقلا واترك بنت عمك تشوف حالها! عيب عليك!».

ـ «والله ما أنا قادر يا ناس! حبها ضارب في قلبي! لا أتصور مخلوقًا غيري يتزوجها! سأموت في الحال إن هذا لا قدر الله حصل!.. بنيت مستقبلي على أنها معي! كل حاجة أفكر فيها أشوفها تفكر معي! فإيه الحل؟!».

ـ «تضحي بقلبك يا أخي من أجل خاطرها! المحب الحقيقي يفعل هذا على فكرة ما دمت تكلمت في الحب!».

ـ «على كل حال أما أشوف!».

وقف أدهم غاضبًا يكاد يشق هدومه:

ـ «تشوف إيه يا رشاد شبكة البنت الليلة!».

ـ «من العريس يا أخ أدهم؟».

ـ «عبد العزيز حمودة من منية أبو مريكب يمكن تسمع عنه يا أستاذ

حزة! معاون زراعة ابن ناس طيبين! طبعًا ستشرفنا الليلة! ستجد الدعوة وصلت إلى الست الوالدة! مع أننا سنحتفل على القد نظرا لخاطر ظروف العمدة!».

ـ «ربنا يتمم بخير إن شاء الله!».

ـ «اقرص لي ودن رشاد قرصة تفكره بعقله!».

ـ «رشاد جدع! عن إذنكم!».

مشيا معي لتوصيلي إلى آخر شارعهم، فطالعنا في الجرن الخاص بهم عمال الفراشة يدقون أوتاد صيوان، وإذن فسوف يقيمون فرحًا الليلة. لا بأس على كل حال، لعل البلدة تخرج من هذه الكتمة الكئيبة الخانقة.

منتديات مكتبتنا

(٥)

اكتشاف الخال

بعد مغادرتي دار سيد أبو ستيت عدت إلى دارنا مصابًا بدوار في رأسي، أكاد أتطوح كالسكران. كنت أشعر أن رشاد أبو ستيت يمشي على مقربة مني، بحذائي أو ورائي لم أكن أدري، ولكن ظله الثقيل السمج كان يلفحني من كل ناحية فأخشى التلفت حتى لا أصدم به، فصرت أوسع الخطى لكي أنسلخ من سحابته قبل أن تكتم أنفاسي. صحتي جيدة ولكن الفوران في رأسي كان صاعدًا من وجع في قلبي الذي التهب فجأة في دار سيد أبو ستيت، وجعل يضخ في رأسي خواطر وأفكارًا محملة بالسموم كانت قد علقت به من رذاذ كلام سيد وخطرفته. إن ما استجمعته من خواطر واستوحيته من أفكار آلمني إلى حد الشعور بالندم على قبولي هذه العزومة الخاطفة على كوب شاي لم أذقه بل لم أنتبه إلى وجوده أمامي. ولكنني مع ذلك عدت ألوم نفسي على شعورها بالندم وعلى ضعفها أمام ما يستنتجه عقلي من معلومات. فإذا كنت قد صبرت واحتملت كل ما سمعت من اعترافات وهلوسات حرصت على تدوينها كما هي، بما تضمنته

من هجوم حاد على عائلتي بألفاظ جارحة؛ فإنني يجب أن أواصل الصمود وأكتسب قوة أشد على الاحتمال إذا كنت حريصًا حقًا على معرفة الحقيقة فيما يختص بقضية قتل تحوم فيها الشبهات حول عائلتي ليس باعتبارها القاتل المباشر بل باعتبارها حكومة البلدة قد أهملت في القبض على الجناة إهمالا فاضحًا لا يليق بعمدة يدعي القوة والعدالة وينتمي إلى عائلة كان عميدها إماما جليلا، ثم كيف نسيت أني أخذت على عاتقي عهدا بأن تكون هذه القضية الخاصة فرصة تدريب عاطفي ونفسي ومهني، تدريب عملي بالذخيرة الحية إن استعرنا مصطلحًا عسكريًا دالاً؛ يجب أن تتكون في بنياني النفسي عضلات قوية تحمل الأثقال الجسيمة من الهموم والهواجس والوسوسات دون أن تؤثر بالسلب على موضوعيتي، على صفاء رؤيتي، على تجردي الكامل من الهوى الشخصي. فلأحتمل إذن، فلأؤكد لنفسي من جديد أنها قضيتي، إن نجحت في الكشف عن الحقيقة لنفسي، وفي استقراء نتائج الضغط النفسي الرهيب الذي يحدثه ابتهال إسطاسية في أهل بلدتنا وما يكشف عنه من خبايا على هيئة متفجرات نفسية تجعل المريب يكاد يقول: خذوني؛ إن نجحت في ذلك أكون قد نجحت في استكشاف بُعد جديد من أبعاد الجريمة والعقاب، وكيف ينزل بالمجرمين عقاب الله الذي ينتظره جميع الناس في النهاية. أقول لنفسي باختصار: إن أنا نجحت في الانحياز للعدالة فسيكون ذلك دليلا على أني سوف أصبح جديرًا بشرف النائب العام، قادرا على تحمل مسئولية شرف الله إذا ما قدر لي الوصول إلى منصة القضاء.

بهذه القناعة خف الانقباض عن صدري، فدخلت على أمي هاشًا باشًا. تمددت على الكنبة التي تريحني أكثر من السرير. جاءت أمي

وقرفصت فوق الحصير لصق الكنبة، راحت تمر يدها فوق جسدي ترقيني وتتثاءب. فاستدرجني التثاؤب إلى النوم. وفيما أنا بين النوم واليقظة سمعت صوت الخفير الخصوصي لعمي العمدة يقول لأمي وهو واقف على باب القاعة إن حضرة العمدة يسأل عن الأستاذ حمزة ويطلب رؤيته. وسمعت أمي تشوح في وجهه بقولها: الأستاذ حمزة نام خلاص! أما يصحى حابلغه. ولكن الخفير يتوسل قائلا: ما ينفعش يا ست أم حمزة الراجل طالب يقعد مع ابن أخوه دلوقت وهو فاضي. فقالت أمي بنعومة: يقعد معاه فين؟ في الدوار؟ فقال الخفير: جوه في قاعة حضرة العمدة، فسألته: حد معاه! تأتأ بشفتيه نافيا ثم أضاف: حضرة العمدة نايم في السرير لوحده. عندئذ انتفضت قاعدا، هتفت:

ـ «أنا جاي وراك حالا! اسبقني أنت!».

جلست أمي بجواري على الكنبة، ثم استدركت فوقفت. كان باب القاعة مواربا بعد انصراف الخفير، فأغلقته وعادت إلى الجلوس بجواري. نظرت لي، لعلها تحاول أن تستشف من ملامح وجهي ما قد يكون خافيا عليها من أمر هذا الطلب المفاجئ. يبدو أنها لم تجد في ملامحي شيئًا سوى الحيرة، سألتني:

ـ «عمره ما عملها! يا ترى عايزك في إيه؟!».

تذكرت أنه بالفعل لم يسبق له أن طلبني لمقابلته في يوم من الأيام، إنما أنا الذي يطلب المقابلة كلما احتجت إلى شيء من المصروف. لحظتئذ خامرني الشك في أن يكون رشاد أبو ستيت قد تكلم أمامه أو أمام أحد خفرائه ذاكرا أنني زعلت وأخذت على خاطري من

عمي عابد لكونه أخفى عني خبر ترقية ابنه مصطفى الذي احتفل به في داره ووزع الشربات على المدعوين؛ مما أوعز لعمي العمدة بأن يستدعيني ليعتذر لي بأي شكل يطيب خاطري.

أفضيت لأمي بما يخامرني، فضربت صدرها بيدها في ارتياع أفزعني منظره في عينيها:

ـ «ياخرابي! للدرجة دي؟ يخاف أن أحسده؟ عمري ما كنت حسودة!.. إنما لا.. عمك عابد شكله مش مظبوط من ناحيتك! قلبه أسود!.. كنت حاسة! الآن تأكدت!.. لكن لا يهمك! لا تلمه على كل حال!».

طفرت الدموع من عينيها، سرعان ما مسحتها بأطراف أناملها ثم وقفت في شموخ وقوة تنطويان على سماحة وصفاء نفس. أشارت بإصبعها نحو باب القاعة آمرة في بشاشة:

ـ «روح له! بارك له! وابعث برقية تهنئة لعمك عابد ولابن عمك مصطفى!.. أحسن عمل تعمله ما داموا عاملوك مثل الغريب!».

هندمت جلبابي، قبلت يد أمي، خرجت. مشيت في الدهليز إلى البوابة الخلفية المفتوحة على فناء غير مسقوف، أرضه مرشوقة بروث البط والدجاج والخرفان والمعيز حودت يمينا إلى دار عمي العمدة، هي صورة طبق الأصل من دار عمي عابد إلا أنها أقل رونقا وجدرانها ملوثة بأكف من دم الذبائح ورسوم بالوشم الأخضر لموكب الحج، كما أن زريبة المواشي ومنخ الجمل ومخزن التبن في مبنى يفصل بين دارنا القديمة ودار عمي العمدة هذه. دخلتها.

حزن قابض للصدر يخيم على الدار. النسوان في الردهة كلهن

يلبسن الأسود، زوج عمي وزوج عمار وزوج عبد الغني وبناتهن الصبايا. ممنوع فتح الراديو أو التليفزيون.

- «سالخير!».

- «يسعد مساك يا ضنايا!

هكذا نابت زوج عمي في الرد نيابة عنهن..

- «عمي فوق؟».

- «في أوضته يا حبيبي!».

كان مضطجعا على سريره ذي العمدان النحاسية. على الكومدينو المجاور له كوب زجاجي فيه بقايا عصير الليمون، ومنفضة سجائر تتكوم فيها الأعقاب. صافحته بقوة، دافعا يده ليبقى على وضعه، إلا أنه اعتدل قاعدا، فسحبت الكرسي الخيزران الوحيد في القاعة، وضعته لصق السرير وجلست في مواجهة عمي:

- «سلامتك يا عمي!».

- «تسلم! منه لله اللي كان السبب!».

- «شدة وتزول إن شاء الله!».

- «يا ريت يا حمزة! يا ريت!».

هتف بها من أعماق أعماقه، بحرارة غير المصدق أن هذه الشدة بالذات يمكن تزول، ثم أردف:

- «قلبي حاسس إن القضية دي مش حتعدي بسلام!».

ـ «تفاءل خيرا يا عمي!».

ـ «مش قادر يا حمزة يا ابني! ليه مش عارف! قبلها بيومين شفت خير والصلاة على النبي!».

يا لها من رؤيا مفزعة: رأى نفسه يقف بلبوصا كما ولدته أمه فوق جزيرة سوداء صغيرة ضيقة في حجم هذه الكنبة، وسط بحر هائج بلا برور ولاشطآن، لا مراكب ولا قوارب. لا أي كائن حي، لا شيء سوى السماء ملبدة بالسحب فوق رأسه والموج الهادر من تحته. هل شفت في عمرك موجا أسود، حتى رذاذه أسود؟ تفقس الموجة من ضرب رأسها بالموجة فينشق قلبها عن رذاذ أسود كالحبر؟ هل شفت في عمرك موجًا ليس يلمع من بعيد؟.. هو شاف، وكان خجلا من سفور عورته التى بدت له قبيحة جدا. وكان واثقًا أن ملايين العيون غير المرئية تتفرس في تفاصيل جسده العاري بنظرات مدببة كالمسامير تنخسه في كل موضع، فراح من الحيرة والارتباك والبلبلة ينادي لعل أذنا تسمعه، فما خرج من حلقه إلا زئير كعواء الذئاب، فما درى إلا والأمواج من حواليه صارت كلابا مسعورة تنهش لحمه بضراوة، تتخاطفه من كل ناحية وهو لا يني يعوي كالذئب، إلى أن هزته الحاجة أم عمار، انتشلته قبل أن يلفظ أنفاسه. ليلتها بقي مؤرقا يدخن السجائر، ليفاجأ عقب صلاة الفجر بطلقات الرصاص تنهمر كالمطر في ذلك الصباح المشئوم، أوسخ صباح شافه في حياته. وحينما فوجئ بأمر القبض على ولديه عمار وعبد الغني أدرك في الحال أن الله ينتقم منه على ذنب ربما يكون قد جناه دون أن يدري. ولحظة أن شاف العسكر يقبضون على ولديه وسط فزع العيال وصراخهم شعر بنفس

الوجع الفظيع الذي وجعه في الرؤيا من أنياب الكلاب المسعورة. ثم إنه قال:

ـ «تصور يا حمزة أنني الآن أعذر إسطاسية على ما هي فيه، وأكاد أفعل مثلها؟!».

كان منظره بدون العباءة والزعبوط أشبه بخروف عجوز أزيلت فروته الصوفية أبله النظرات بارك وسط الروث يجتر طعاما وهميا يلوكه. رحت أبحث فيه عن الملامح المتشابهة مع وجه أبي وشخصه وقوامه النحيل المختلف عن قوام أخويه، وكان تأثير أبي على ألسنتهم جميعا واضحًا، فأمي تتكلم بالفصحى في الموضوعات الجادة، وكذلك عمي عابد وعمي العمدة تجري الفصحى على لسانيهما دون اغتراب حتى وإن كانا لا يفهمان معاني الكثير من المفردات. فيما عدا ذلك لم يفلح أبي في تربية الضمير في هذه العائلة لسبب أو لأسباب خارجة عن إرادته بكل تأكيد. قال عمي العمدة فجأة:

ـ «أما لو ربنا ينجي ولاد عمك يا حمزة.. ندرن عليّ.. أ.. أفضل بقية حياتي جوه الحرم النبوي!.. يا سلام يارب لو غفرت لي المرة دي! المرة دي بس يارب!.. إذا كنت أنا غلطت فعلشان خاطر العيال سامحني!».

ـ «ولا يظلم ربك أحدا يا عمي فاطمئن!».

ـ «ماهي المصيبة أستغفر الله العظيم! سبحانه وتعالى لا يظلم أحدا.. البني آدم مننا أصله وسخ! أحسن واحد يظلم نفسه هو البني آدم!».

ـ «مظبوط! معك حق والله يا عمي!».

ـ «باركت لعمك وابن عمك؟».

ـ «بمناسبة إيه يا عمي؟!».

ـ «ابن عمك مصطفى عقبال أملتك بقى وكيل أول وزارة التعليم!.. يعني الحمد لله ربنا عاوز يفرحنا بأي شكل!.. وهذه إشارة إلهية تدعو للتفاؤل يا حمزة!».

ـ «معنديش فكرة والله يا عمي لكن ألف مبروك!».

ـ «هو عمك ما قالكش؟ معلهش إنت عارف إنه ملخوم ومش دريان! كان الله في عونه هو الآخر!».

ـ «كان الله في عوننا جميعا!».

ـ «على كل حال! زمانك بتسأل نفسك أنا عاوزك ليه؟».

ـ «فعلا يا عمي!».

ـ «شوف يا سيدي!.. إنت عارف طبعا إن حقك هو نصيب المرحوم أبوك في الأرض اللي ورثناها عن جدك، الأرض اللي استصلحناها دي طبعا تخصني أنا وعمك أبو مصطفى!».

ـ «أنا حاسبتك يا عمي؟ وده وقت حساب برضه؟!».

ـ «متآخذنيش! كل واحد من حقه يعرف دخله من خرجه!.. مبدئيا.. كل اللي بتعوزه بتأخذه! وآخر كل محصول الست والدتك بتبقى عارفه أخذت كام وفاضل لك كام!.. ده طبعا ما يمنعش إنك تاخد مننا اللي تعوزه! سواء ليك أو مالكش!.. إنت ابننا!».

ـ «إيه بس مناسبة الكلام ده يا عمي؟!».

ـ «سألتني!.. أقول لك يا سيدي!».

ـ «تفضل يا عمي!».

ـ «بقى الأمر وما فيه إني دلوقت بافض الشركة اللي بيني وبين إسطاسية في مكنة الطحين ومكنة الميه! عشان ما يبقاش فيه أي احتكاك بيننا وبين عزبة الحجر باللي فيها!».

ـ «على خيرة الله! شيل ده عن ده يرتاح ده من ده!».

ـ «إيه رأيك لو أدخلك أنت والست الوالدة شريك في المكنتين بدال إسطاسية؟».

ـ «إزاي؟!!».

ـ «إنت لك عندي مبلغ باقي حساب! والباقي ممكن ندبره من نصيبك في المحاصيل اللي جايه!.. إذا إنت وافقت تدخل معانا شريك آخد فلوسك وأكمل عليها من جيبي وأديها لإسطاسية وتغور في ستين داهية في سنينها السودة دي!.. وحيبقى زيتنا في دقيقنا وحيبقى لك ربح إضافي تقبضه كل شهر كل يوم زي ما أنت عايز!.. إيه رأيك؟».

دارت رأسي. أصابتني عدوى كابوسه، فشعرت كأنني واقف في قلب بحر بلا شطآن. حاولت تقدير الموقف وتمحيصه وتقويمه وفهم دوافعه وأبعاده فدارت رأسي في حلقة مفرغة..

ـ «سكت ليه؟».

ـ «إديني فرصة أفكر يا عمي!».

ـ «آه، لأ، فكر طبعا وشاور الست الوالدة!.. قدامنا وقت لحد ما نبدأ التنفيذ يعني أسبوعين تلاتة!».

ـ «حاضر يا عمي! عن إذنك!».

ارتاعت أمي حين أبلغتها الخبر، صارت تصفق كفا على كف، تقوم إلى دولاب الهدوم، تفتحه ثم تغلقه وتعود، ثم تجلس، ثم تنتفض واقفة بعد برهة، تذهب إلى صندوق فرعوني الزخارف مدسوس في ركن من القاعة حيث يستخدم كمقعد عند اللزوم، تهم برفع غطائه ثم تتراجع، كل ذلك وهي لا تكف عن الولولة والبرطمة المبهمة الكلمات. كان يبدو أنها تريد قول شيء خطير يصعب عليها التصريح به، لعلها متحرجة، أو ربما خائفة؛ إذ هي تتلفت حواليها وتتجه بنظرها إلى باب القاعة كلما شرعت في الكلام. أخيرا تممت على ترباس الباب فتأكدت من إغلاقه، قرفصت أمامي حتى ينكتم صوتها في الأرض. قالت:

ـ «يا ولدي! مكنة الطحين أنت شريك فيها قبل أن تتعرف على اسمك!.. يا ربي! بماذا أصف هذا الرجل؟ متخلف عقليًّا؟ يجوز! فاقد الذاكرة! محتمل! سايق العبط على الهبالة؟ واضح!».

كانت قد بدأت تلهث وتعرق من المجهود الذي تبذله في الفحيح المكتوم في جلسة الإقصاء الضاغطة على قلبها، ناهيك عما هي فيه من توتر. أنشبت أظافرها في لحم شلتة الكنبة، متساندة عليها لتنهض واقفة، قد احتقن وجهها وأربدت ملامحه. حركت قبضتها المضمومة

كأنها تقول بها: طول بالك، ثم اتجهت إلى الصندوق، سحبت ضفيرة شعرها فتشت في حناياها عن المفتاح المربوط في الجديلة، قرفصت، مدته وفتحت به القفل الصغير، رفعت غطاء الصندوق، جعلت تعكرش في محتوياته. أخيرًا أمسكت بها، علبة أسطوانية الشكل كالماسورة التخينة لعلها مصنوعة من النيكل اللميع، برمت غطاءها ورفعته، أقبلت نحوي وهي تنزع من قلب العلبة الأسطوانية لفة ورق مبروم على نفسه، ورق أزرق سميك عليه أختام وتوقيعات، تنبعث منه رائحة الورق الجديد ممزوجة برائحة رطوبة على رائحة نفتالين على رائحة هدوم عتيقة كل قيمتها أن فيها مُدّخر من عرق الراحل. أقعت مرة أخرى أمامي:

ـ «عمك فاقد الذاكرة أو يستهبل! ينسى أن كل الأوراق عندي!.. وكيف يتذكر وهو عمره ما فكر في أوراق ولا تعامل مع أوراق؟ لا هو ولا عمك عابد يعرفان فك الخط!.. كل شيء كان يتم مع فضيلة الشيخ حامد!.. العقود والجلسات التي تسبق العقود!.. الاتفاقات والأسعار!.. كل مدفوع! كل مدخول إلى دارنا كان يتم بمعرفة الشيخ وبحساباته!.. في هذا الصندوق نوت أشكالا وألوانًا!.. اليوم لم نعد نعرف لنا دخلا من خرج! لم يعد لنا حساب!.. لكن المرحوم كان دائمًا يؤكد لي أن الحساب لا بد أن يتم في نهاية الأمر! إن الحساب حتمي! مهما تأخر الحق عن أهله لا بد عائد إلى نسلهم من بعدهم!.. وكل مدان لا بد أن يسدد دينه إن عاجلاً أو آجلا!.. كان يقول لي إن الله يوقع بعض الناس في أزمات ينقبض فيها رسمالهم عنهم لوقت يطول لسبب من الأسباب ويتضح أنه كان رزقًا مدخرًا لعيالهم وأحفادهم إذا هم كانوا على وعي وطالبوا به!.. لن يموت حق

وراءه من يطالب به.. هذه شريعة الله يا ولدي!.. إني الآن متأكدة أن عمك عابد الذي وصفه أبوك بأنه مثل الفوطة الزفرة قد حرر عقودًا مزورة تثبت ملكيته وعمك عواد وحدهما للمكنة والأرض والدور كلها! يعني لو فزنا بهذه القاعة فحسب نكون من الفائزين!.. ولكن لا.. على جثتي إن حدث.. هذه العقود فيها كل شيء بما فيه الأرض المستصلحة ومخاطبات الحكومة بشأنها.. عقودها مع الحكومة باسم الشيخ وإخوته! الشيخ أولا! وهو الذي تكرم بإضافة إخوته وكان يستطيع استئجار من يفلحها لحسابه لكن ما هكذا الشيخ حامد أبو حمزة!».

ـ «بالمناسبة يا أمي! تراودني الرغبة في التبرؤ من هذه العائلة والابتعاد عنها قبل أن يتأثر مستقبلي بعارها وسمعتها التي ساءت بعد موت أبي!.. لقد ماتت بموته! لم يبق منها سوى الرائحة النتنة!».

قرصتني بنظرة من عينيها قرصة موجعة ألهبت دمي، نظرة تطفح بالتوبيخ والاحتقار والاشمئزاز والفجيعة. لكزتني في كتفي بقسوة اختفى منها مذاق الأمومة:

ـ «العار الذي ستجلبه على نفسك بالتبرؤ من عائلتك أوجع من العار الذي يسببه لك سلوكها!.. ستخلق لنفسك عقدة نفسية تبقى كالدمل المزمن إن أخفيته يفضحك الوجع! وإن أظهرته رغمًا عنك أثرت به قرف الناس!».

ـ «فماذا يكون الوضع في رأيك يا أعز الناس؟!».

ـ «عائلتك كانت إلى يوم قريب مشهورة بالنُبل والكرم والتقوى

في حياة أبيك!.. ولكن! قام فيها من لوثها وسوأ سمعتها!.. فهل إذا وجعك إصبعك وجعًا قاسيًا يكون الحل في بتره؟! أم في علاجه بكل الطرق؟».

ـ «العلاج يحتاج لنطاسي عملاق!».

ـ «لماذا لا تكونه؟».

ـ «أنا؟!».

ـ «أنت لم تحاول! وإن حاولت فلن تفشل!.. خلِّ بالك يا حمزة.. عشمي أن تقوم أنت بغسل سمعة العائلة!.. لعلها على يديك تسترد هيبتها وتقواها!».

ـ «ليتني أكون على مقاس هذه الثقة!».

قالت في ثقة راسخة كأنها تقرر أمرًا لا مفر من تنفيذه:

ـ «ستكون بعون الله!».

دست الأوراق في العلبة الأسطوانية، برمت غطاءها فأحكمت إغلاقه بالقلاووظ:

ـ «مهمتك الآن يا حمزة أن تخفي هذه العلبة وهذه النوتات في مكان سري آمن!.. خالك عبد الودود القصبي محام كبير في طنطا كما تعرف! وطول عمره يحلم بأن تتمرن في مكتبه إن أردت المحاماة!.. لديه خزنة في مكتبه! وأخرى في بيته! وثالثة في بنك مصر! يخبِّئ فيها وصايا زبائنه الكبار وما يخاف عليه من مستلزمات ومجوهرات!.. سافر إليه غدًا.. سلمها له وخذ بيانًا بها احتفظ به في جيبك!.. هذه

فرصة لأن تعيد حبال الود مع خالك! أنت لم تزره منذ كنت في الثانوية العامة يوم أيد فكرة أبيك وشجعك على دخول كلية الحقوق!».

استحسنت فكرتها، لكأنها طاقة ضوء انبعثت من منطقة كانت منسية تمامًا وإن بشكل مؤقت؛ فكرة اكتشاف خالي عبد الودود القصبي أشرقت في رأسي، لامتني لومًا شديدًا على تعمدي تجاهله فيما مضى لسبب لست أدريه على وجه التحديد، هل لأنه يعيش في طبقة أعلى؛ لشعوري المبكر بأنه يستعلي على عائلتي ويستصغر شأنها كلما أمعن في مدح صهره الشيخ؟ ألأنه لم يزرنا في بلدتنا مطلقًا؟ أم لأنني غير معجب بشخصيته المتعجرفة رغم عظيم الشبه بين طريقة أمي في الكلام وطريقته لدرجة التطابق أحيانًا في البلاغة والطلاقة وترتيب الأفكار بل ونفس المفردات في كثير من الأحيان؟.. أم لأن أمي وضعته أمامي منذ الصغر كقدوة مفروضة عليّ ولا بد أن أحتذيها هي على وجه التحديد لا غيرها حتى دوشتني وحولته إلى كابوس يجثم على صدري أثناء المذاكرة: اجتهد لتصبح مثل خالك عبد الودود! شف ماذا حققه خالك عبد الودود! خالك عبد الودود قال ذات يوم كذا وكيت! خالك عبد الودود كسب القضية الفلانية والقضية العلاَّنية! خالك عبد الودود خالك عبد الودود خالك عبد الودود حتى قرفت من سيرته وكرهته وقررت نسيانه لأتفوق على نفسي وربما عليه؛ راودتني أحلام في اليقظة والمنام، أراني فيها قد صرت كذا وكذا، أتخيل نفسي عظيمًا مهابًا وخالي عبد الودود يتودد إلي ويتفاخر بأنه خالي.. إلخ إلخ. الآن فحسب، أنا بكل تواضع وأريحية أفخر بأنه خالي؛ بل لقد تغيرت حالتي النفسية تمامًا وانزاحت عن دماغي كل الكوابيس المبهمة. صفوت تمامًا، حضنت أمي وقبلت جبينها

الشبيه بجبين خالي عبد الودود. في تلك اللحظة فحسب، تيقنت من أن أمي هذه منتوج ثقافي إنساني من خلطة مصرية فريدة: ثقافة أبي الشيخ المستنير ابن مدرسة الإمام محمد عبده، الذي كان يشركها في قراءاته ومذاكراته ويملي عليها خطبه المنبرية؛ وثقافة خالي عبد الودود القانونية، الذي كان يتخذ من أمي سكرتيرة خصوصية له منذ انقطاعها عن الدراسة بعد الشهادة الابتدائية إلى يوم زفافها على أبي، فكان هو الآخر يملي عليها مذكراته القانونية ويدربها على التعامل مع الكتب والموسوعات والمجلات العلمية وكيف تنقل منها فقرات بعينها وتحضرها له قبل كتابة المذكرات والدفوعات وما إلى ذلك. تذكرت وأنا في الثانوية العامة تقريبًا أن كلامًا قد دار بين أبي وعمي عابد حول عقود وأوراق ثبوتية معينة، وأن أبي قال له إن الأوراق كلها محفوظة عند صهره عبد الودود القصبي المحامي. إني لواثق الآن تمام الثقة من أن عمي عابد يحسب لخالي عبد الودود حسابا يمنعه من الاستندال التام في معاملتنا بعد رحيل أبي. إنني وأمي اليوم أحوج ما نكون لخالي عبد الودود، وهذه أنسب فرصة للسفر إليه في الكتمان.

نفحتني أمي خمسة جنيهات من تحويشها من ثمن بيض الدجاج الذي تفلح في تربيته. رتبت حقيبتي الصغيرة واتكلت على الله إلى الطريق الزراعي أتصيد إحدى عربات الأجرة.

(٦)

رفرفة القلب

فرح خالي عبد الودود فرحًا كبيرًا جدًا برؤيتي. اتضح أن أبي قد ترك عنده أوراقًا بالفعل هي حجة الدار القديمة والأرض المقامة فوقها، وغير ذلك من أوراق خاصة بجميع ممتلكاتنا حتى المتنازع عليها مثل الأرض المقامة فوقها مكنة الطحين وهي الوحيدة غير المسجلة في الشهر العقاري. ولقد طمأنني خالي عبد الودود إلى أن أحدا لن يستطيع التلاعب بحقوقي وحقوق أمي. ثم إنه قام بتوثيق محتويات العلبة بتوزيعها على ملفات فرعية ثم ضمها جميعا في ملف كبير سميك الغلاف ثم وضعه في الخزنة الحديدية ذات القفل الرقمي، وأمر سائقه بتوصيلي إلى بيته لأستريح وأتغدى وأسلم على من لم أرهم منذ كانوا أطفالا.

ما أجمل هذا الذي حدث؛ يومان اثنان أمضيتهما في ضيافة خالي عبد الودود القصبي. لقد اتضح جليا أنه أحد أهم كبار المحامين في منطقة الدلتا بأكملها. مكتبه طابق بأكمله في واحدة من عمائر أبيه

الكثيرة: ثلاث شقق مفتوحة على بعضها؛ يرتع فيه عدد كبير من المحامين الشبان تحت التمرين. ولمكتبه فروع في كفر الشيخ ودسوق والمحلة الكبرى وقلين. ثم إنه من كبار الأثرياء، يعيش في بذخ مروع، رفاهيته لا حدود لها؛ يكفي أنه أحد مؤسسي مارينا ومفتتح الساحل الشمالي بأكثر من ڤيلًا باسمه وأسماء عياله رغم أنهم - ويا للمفارقة - يقيمون في الخارج بجنسيات مزدوجة.

قصة غرام أبي كادت تتكرر معي خلال اليومين اللذين عشتهما في بيت خالي. قلبي رفرف بقوة مذ وقع بصري على الآنسة راندا. قالب من الشيكولاتة، خلاسية البشرة ساحرة شهية المذاق على البعد؛ فما بالك لو اقتربت حثيثا؟ شعنونة إلا أنها عاقلة جدًّا، قوام سمهري، نحيل، مفسر بدقة حاسمة في هارمونية ناعمة كأنها نحت فرعوني للأميرة ميريت ابنة رمسيس الثاني وزوجه في نفس الوقت، حتى ابتسامتها قريبة الشبه بها في تمثال أخيم الشهير، متفتحة، متبحرة في الموسيقى والغناء في جميع الأجيال.. في جميع الشعوب المغنية من كوبا إلى زائير، تجيد الرقص بجميع أنواعه وتدهشك حين تتحدث عنه بجدية ومهابة كما يتحدث زكي نجيب محمود عن فلسفة ابن رشد، من العمق إلى الخفة تتجدد، لها صور مع محمد منير وعمرو دياب ومايكل چاكسون، وصورة لها وهي طفلة تخمش بأظافرها الطرية وجه المطربة داليدا، وعندها أوتوجرافات فيها توقيعات لعمر الشريف وعادل إمام ونور الشريف وشادية ويسرا ونادية لطفي ومديحة يسري ممن تلتقيهم في الساحل الشمالي وفي عزائم يغرم خالي غرامًا كبيرًا بإقامتها لبعضهم، أو في حفلات أعياد ميلادهم التي يدعى إليها خالي فتروح هي معه. إلى كل ذلك فهي تقرأ الشعر والقصص،

وعواميد الصحف، ولها رأي في الأوضاع السياسية ينم عن وعي حقيقي، ولها كذلك رأي في الزواج حيث تصفه بأنه أفشل مؤسسة اخترعها الإنسان؛ لأنها قامت من وجهة نظر رجولية نفعية حيث الرجل يبحث عن جارية تخدمه وتمتص شهواته، والمرأة تبحث عن ظل يحميها وينفق عليها.. إلخ. مجنونة لكنها أسرتني؛ فأمضيت معظم الوقت معها بمفردنا لساعات طويلة نسوح فيها عبر الموضوعات من السياسة إلى الفن. وقد لاح لي أنها قابلة للتأقلم بسهولة؛ ففيها من المرونة ورجاحة العقل والرشد ما يكفي لإقامة حياة زوجية مثالية إلا أنها فيما بدا لي رافضة للزواج، ربما لأن الخُطَّاب قد أساءوا فهمها، أو لعلها تضع شروطًا تعجيزية، الله أعلم على كل حال. وضح أيضًا أنها كانت هي الأخرى سعيدة باكتشافي، لا تخجل من إعلان ذلك، لا تني تعلق وتعطيني ملاحظات عن شخصيتي وأفكاري، أذهلتني بنفاذها ووصولها إلى فهم دقيق لشخصيتي. يا إلهي، هل يعيد التاريخ نفسه؟! إن خالي عبد الودود نفسه سعيد جدًا باكتشافي، وبارك ترشيحي للعمل في النيابة، وتمنى لي القبول فيها، وقال إنه كان يتمنى لو أنني تمرنت في مكتبه لأكون ذراعه اليمنى ويخلص في تدريبي كما ينبغي أن يكون التدريب على فهم القضايا والبحث في تفاصيلها عن مفاتيح تفتح السكة إلى البراءة، وأشار بما يقرب من الوضوح الكامل إلى إمكانية إقامتي في شقة مستقلة لصق شقته السكنية؛ ولكن بما أنني راغب في السلك النيابي والقضائي فإن ذلك يسعده، على أن أضع في عيني حصوة ملح وأظل على اتصال دائم به لمجرد الاتصال سواء بضرورة أو بغيرها.

وعدته بذلك وعدًا قاطعًا. ويوم مغادرتي عشت لحظات عرفت

فيها طعم الحب ومذاقه السحري المنعش، الباعث على الإشراق في مواجهة الحياة: ساعدتني راندا على تعديل ربطة العنق، ثم سحبتها برفق من حول رقبتي واختفت بها قليلا ثم عادت برباط عنق غاية في الفخامة من ماركة عالمية شهيرة، قالت إن أباها قد هجر مثل هذا الذوق الشبابي الخلاب. حين أحكمت ربطتها بتمهل لكي تريني طريقة اللف وكيفية العقدة المطلوبة حسب حجم ياقة القميص واتساقها مع حجم ياقة الچاكيت؛ نظرت في المرآة فرأيت شخصًا آخر لكنني ما لبثت حتى أحسست بمدى حقارة البدلة التي أرتديها.

على أن كهرباء النشوة الكبرى سرت في بدني حينما وقفت راندا ورائي ممسكة بطرفي الچاكيت لكي أضع ذراعي في الكمين، ثم هندمتني بأمومة منعشة للقلب، ثم سبقتني إلى الباب ممسكة بحقيبتي، فتحت الباب، لم تتحرج من أن تقبلني على خدي، ثم تسلمني حقيبتي، وتظل واقفة في فتحة الباب إلى أن غاب جسدي في بئر السلم.

في طريقي إلى موقف السيارات الأجرة اشتريت بعض الجرائد، قرأتها كلها وأنا جالس في الكرسي المجاور للسائق. فتحت الحقيبة لأدسها فيها، فلفت نظري مظروف مستطيل عليه اسم المكتب كان مدسوسًا في الجيب الصغير الملحق بغطاء الحقيبة السمسونيت. التقطته بقلب واجف، فتحته، فلوس! رزمة فلوس من فئة المائة جنيه، عشرة آلاف جنيه مع بطاقة باسم الأستاذ مكتوب على ظهرها بالقلم الحبر الأخضر: إلى سكرتيرتي القديمة حليمة، جزء تافه من فضلك السابق على أخيك عبد الودود. تجمدت مشاعري لبرهة وجيزة، نشف ريقي، سرعان ما تقبلت الأمر ببساطة، بل ابتسمت

وقررت إغلاق المظروف بشريطه اللاصق والادعاء بأنني لا أعرف ما بداخله، ولا أعرف من الذي دسه في الحقيبة.

كنت في حالة من الصفاء لم أعرفها في حياتي من قبل أبدًا، لكأنني أولد الآن من جديد. إن ما حدث اليوم بدا لي كأنه «بروڤة» لحياة زوجية هنيئة راقية. ولكن، هل تراني قادرًا على مجاراة هذه الطبقة الجديدة القديمة معًا في مظاهرها الاستهلاكية الفاقعة؟ وهل تستطيع راندا أن تنسلخ عن هذه الرفاهية المطلقة لتعيش حياة متواضعة في ظل من يحبها وتحبه؟ إن المرونة الواضحة في شخصيتها تشي بأنها تستطيع ولكن الواقع له أحكامه غير المتوقعة دائمًا. على كل حال هذا شيء سابق لأوانه؛ فمهمتي الآن صعبة ويجب أن أتفرغ لها بتركيز كامل لعلني أستطيع استخلاص حقوقي وحقوق أمي من براثن عمي عابد، وتحقيق الاستقلال الاقتصادي، والعمل على تطوير أو تجديد دارنا القديمة أو البحث عن غيرها أو حتى الرحيل عن البلدة نهائيًا والإقامة في المدينة التي سيقدر لي العمل بها.

الوصلة المتفرعة من الطريق الزراعي واصلة إلى بلدتنا، والتي كنا نمشيها في حوالي ثلاثين دقيقة في طريق معبدة لكنها محفوفة بأكوام الردم وأشجار الجزورين والصفصاف والكافور مصطفة على الجانبين فاردة جناحيها على شكل قوسين يحيطان بمدخل البلدة حتى لتبدو البلدة من بعيد كمجموعة من أعشاش جدلتها العصافير من آلاف السنين بين الأفرع المتكاثفة.. اليوم أصبحت هذه الوصلة تشغي ليل نهار بعربات الأجرة ذات الماركات القديمة بموديلات عتيقة ممنوع ترخيصها في مدن العواصم، كلاكساتها أبواق تطلق

أصوات كاريكاتيرية ساخرة كالضراط، تحتشد بعشرات الركاب فوق بعضهم. السيارة التي ركبتها لحسن الحظ لم تكن مكتظة كغيرها، مما أتاح لي أن أتعرف على الكثيرين من ركابها وأصافحهم ويصافحونني، بعضهم من نفس شارعنا. أتاح لي ذلك أن ألاحظ أن شيئًا ما قد تغير في وجوههم، أو غاب عن وجوههم، لعله الحميمية التي كنت ألمحها في الوجوه من أول نظرة.. ما بال الجميع يتلبسهم الوقار كلما نظرت فيهم، ينكسون رءوسهم، يردون التحية بكثير من التحفظ في احترام شديد؟!.

أنزلتنا السيارة عند الجمعية الزراعية على شاطئ ترعة المشروع، ذلك هو موقفها، ولا ضير، فأي واحد سواء في شرق البلد أو غربها أو شمالها أو جنوبها لن يستغرق السير إلى داره أكثر من خمس دقائق داخل أحشاء البلد. من الجمعية الزراعية إلى دارنا تخريمة إلى شارع داير الناحية حيث تقع دارنا في نهاية جزئه الأفقي المستقيم، حيث يبدو الجرن الخاص بنا أمام دارنا ملتقى لعدة روافد. مشيت هذه المسافة شاعرا بالاغتراب كأنني أمشي في بلدة ليست بلدتي وإن كانت تشبهها، ألتقي الناس في الطريق فيردون على تحيتي في تجهم، أمر على الجالسين فوق المصاطب أو أمام الدكاكين وهم مندمجون في ضحك وهزار فما أن يلمحونني حتى يكفوا عن كل شيء ويلوذون بالصمت، ويردون السلام بلهجة رسمية كاملة العبارة لكن لا دفء فيها. اللون الأسود بدأ يقترب حول دارنا. نساء يلبسن الأسود خارجات من دارنا أو ذاهبات إليها. الحزن يخيم على الجرن، وعلى الكلاب الراقدة فوق أكوام السباخ. هل يكون عمي العمدة قد مات؟.. ما أن دلفت داخل دارنا حتى هبت في وجهي عاصفة من الصوات الملتاع في

هجوم كاسح كقطيع من الخفافيش جعلت ترفرف فوقي تنشب مخالبها في وجهي. تسمرت في وقفتي فزعا. أغمضت عيني لبرهة، فتحتهما، ساحت نظراتي تبحث عمن يخصني في هذه الدار، أمي، فلقد توهمت من هذه الهبة التي استقبلت بها أن أمي ربما تكون هي التي توفيت، فدارت بي الأرض وانبثق في الظلام في خيالي عسكر ممسكون بعمي عابد يقودونه إلى محكمة الجنايات حيث اتهمته أنا على الفور بأنه دبر لقتلها لاستلاب ما لديها من أوراق. الحمد لله، الحمد لله، لمحت وجهها المميز بينهن. انعطفت على قاعتنا، فلحقت بي لتفتح الباب بالمفتاح.. كم هي حريصة طول عمرها!.

من وراء ظهرها سربت ذراعها وأغلقت باب القاعة بالترباس، ثم ارتمت على الكنبة:

ـ «اقعد! البقية في حياتك!».

ـ «في من؟!».

ـ «الدكتور مصطفى ابن عمك عابد!».

فزعت، غامت الدنيا في عيني:

ـ «في حادثة؟ عملوا حادثة بالعربية؟».

ـ «لا لا.. مات ميتة ربه!».

ـ «سبحان الله! كيف؟ لم يكن مريضًا!».

ـ «سكتة قلبية!».

تهاويت جالسًا بجوارها، ما لبثت حتى وجدتني أنفجر في البكاء

الحار. بعد أن تعبت من البكاء وقفت، وضعت حقيبتي في الدولاب، سحبت عدة مناديل ورقية من علبة على الترابيزة..

ـ «الحق بالرجال في دار عمك عابد! المعزى شغالة من البارحة! واللطم من قبل البارحة! من لحظة وصول التليغراف إلى لحظة وصول الجثة! سأجهز لك لقمة حتى تعود!».

منظر عمي عابد وجع قلبي، فحاولت نسيانه والانصراف عن التفكير فيه. المندرة ملآنة عن آخرها بناس معظمهم غرباء من بلدان مجاورة. الصمت مطبق حتى في اللحظات التي يتوقف فيها صوت القرآن الكريم. كنت مبدد الخواطر، يعتريني ولع لمعرفة التفاصيل، كيف مات؟ أين؟ لماذا؟ هل يموت العريس ليلة دخلته؟!.. صرت أبحث بين الجالسين عن شخص يألفني وآلفه. توقفت عيني عند الأسطى فرج أبو العلا سائق الفولفو عند عمي عابد، فهو الذي سافر بهم إلى القاهرة.. وهو الذي رافق الجثمان، أقصد الجثمانين. ذلك أن عمي عابد فيما بلغني من طراطيش كلام في قعدة النسوان في فناء دارنا قد وقع مغشيا عليه وظل في غيبوبة لوقت طويل، ولولا نبل فرج أبو العلا وحسن تصرفه لمات عمي هو الآخر. فرج أبو العلا، هذا الولد الشهم الطيب النبيل ليس سائقًا محترفًا، إنما هو من شباب مصر التعساء الذين يجني عليهم تفوقهم وتفتحهم وصحوة ضميرهم ووطنيتهم. أمثاله أصبحوا عُملة مرفوضة في جميع الأسواق التي كانت في الأصل هيئات ومؤسسات تدير الدولة. مهنة فرج أبو العلا الأصلية مدرس إعدادي للمواد الاجتماعية، تخرج في كلية التربية بتقدير جيد جدًا. كان له نشاط ثقافي ملحوظ في الكلية وفي

قصر ثقافة كفر الشيخ؛ لكن هيئة التدريس في مدرسة بلدتنا تآمرت عليه واضطهدته لأسباب تبدو غامضة لكنها كرَّهت فيه أولياء الأمور، فحالفه سوء الحظ مع طبيعته المندفعة التلقائية، فتم فصله من التدريس. التهمة أنه: علماني، مع أنه، لا رافع التهمة ولا المتهم ولا أنا ولا أحد ممن يرددون هذه الكلمة كاتهام بالكفر يعرف ما معنى كلمة علماني هذه. لكنها مع ذلك كانت نكبة على فرج أبو العلا. صحيح أنه خفيف الظل، والناس جميعًا يستلطفونه، ولكن أحدًا لا يقبل أن يتوسط له في شغل بله أن يشغله عنده. ولذلك فقد رحب ترحيبًا كبيرًا حينما عرض عليه عمي عابد أن يعمل عنده سائقًا للفولفو، كسائق نظيف محترم يحمل شهادة عالية، كما أن منظره مشرف ويتميز باللباقة والطلاقة؛ غريق تعلق في قشة!.

منتديات مكتبتنا

(هـ)

صُبْح مشئوم

«قطيعة تقطع فرج وأبو اللي جابو فرج.. هذا المشوار الشؤم جعلني أقطع الخلفة، أشك أنني سأنجب أطفالا بعد اليوم، الخضَّة قطعت قلبي..

بيني وبينك أنا من حال المبتدأ ما كنت راغبًا في العمل عند عابد البراوي حتى لو أعطاني مال قارون كل شهر.. ولكن الغلطة غلطتي، وغلطتي في طيبتي..

الرجل ـ متآخذنيش ـ يهودي، يهودي؟ طلاق تلاتة إن اليهودي أرحم منه.. إنه.. إنه.. بصراحة.. يستحق ما جرى له وأكثر!..

المشوار من أوله لآخره كان شؤما في شؤم، حتى ارتباطي بعابد البراوي كان شؤمًا في شؤم.. لقد ضحك عليّ.. أوهمني أنه سيتوسط لي عند ابنه الدكتور مصطفى ـ عليه رحمة الله ـ ليعيدني إلى التدريس بعد فصلي منه ظلما وعدوانا منذ ألف وخمسمائة يوم وخمس ساعات إلى الآن..

أنا على نياتي كما يعرفني الجميع، صدقته، وما كان يخطر لي على بال أبدًا أن ابنه الدكتور مصطفى ـ لا يجوز عليه إلا الرحمة ـ هو الذي كتب المذكرة القانونية التي ترتب عليها فصلي من مهنة التدريس بتهمة أنني علماني، يعني شيوعي كافر لا يؤتمن على تربية النشء في المدارس.. عرفت هذا الخبر بكل أسف بعد أن اختلطت بأهل الدار من كبيرهم لصغيرهم في توصيلات واستقبالات بالفولفو لا تنتهي ليل نهار.. زلة لسان من الأخ جمال عابد، هو في الأصل زميلي في كلية التربية في نفس الدفعة وتم تعييننا معًا في مدرسة البلد في يوم واحد.. جمال كان متفتح العقل، يكتب الشعر والقصص ويمثل في المسرح المدرسي ويشرف على مجلات الحائط ويقيم حفلات السمر.. وأنا كنت قرينا له في هذا النشاط، وعندما فُتح باب الإعارات بالنسبة لمدرستنا كان أخوه الكبير مصطفى من بين كبار المسئولين في مديرية التربية والتعليم في كفر الشيخ، فساعد أخاه جمال، فسافر جمال إلى السعودية، ومصطفى نفسه سبقه إلى الإعارة ومكث هناك خمس سنوات وجاء بفلوس كثيرة جدًا ساعدت أباه على بناء هذه الدار الجديدة وبناء دار له في كفر الشيخ، لكنه جاء معه بحالة من الدروشة صار فيها حنبليا في كل كبيرة وصغيرة، على الغير فحسب، أما على نفسه فإنه خلف الجدران بحبوح لا يعترف بتحريم أي شيء على الإطلاق، هكذا لمست بنفسي منذ عاشرته وتغلغلت في جوانياته، إنما هو رأى أن التمثيلية رائجة ومربحة جدًا فضلاً عن أنها مسلية: أن يلبس شخصية الورع والتقوى كأنه النبي المرسل، يبالغ في الحنبلية، معتمدًا على أن لعائلته سمعة قديمة في الورع، فلأنه ليس يستطيع أن يملأ جبة عمه الإمام فقد لبس خرقة المتصوف تحت البدلة الفخمة، ويقيم الحضرة

والذكر في دارهم ليلة كل خميس، وكل هذا - متآخذنيش - ليغطي على سمعة أبيه وعمه العمدة التي أصبحت - متآخذنيش برضه - مداسة بالبُلغ في البلاد كلها..

الدور والباقي على جمال، هو الآخر أمضى خمس سنوات في مدينة أبها السعودية، فجاء سعوديا صرفا، يلبس الدشداشة والعقال. البلد كلها استعجبت، صحيح أن السعودية فيها أهالينا وإخوتنا ونحن جميعًا نحبهم ونحترمهم ما في ذلك شك ولكن لكل إنسان هويته وشخصية بلده التي يجب أن يحترمها وإلا فهو لا يحترم نفسه أصلا.. البلدة كلها استغربت وسخرت، وألقت النكت، ولكن الدشداشة يا جدع أصبحت في ازدياد، أبوه وإخوته أصبحوا يلبسونها، شيئًا فشيئًا تعلم خياط بلدتنا تفصيل الجلباب السعودي أبو نصف ياقة مقفولة وأساور بأزرار كالتحف، لكنهم لا يقنعون بتفصيله ولا بقماشه فيبعثون في شراء الجلاليب من السعودية من أقمشة الحرير السكروتة الهفهافة.. الواحد منهم يمشي متبخترا في شوارع البلدة، والريح يواجهه ويعصف بجلبابه الحرير الشفاف يحصره بين ساقيه فتتجسد عورته كأرنب يتطوح يمينا وشمالا تحت الجلباب بشكل قبيح تتحرج منه النساء وخاصة الفتيات مثلما يثير غضب الرجال..

هو حر طبعًا أخونا جمال عابد أو غيره ولكن المثل يقول: تأكل ما يعجبك وتلبس ما يعجب الناس.. هو حر أيضًا يعتقد ما يشاء ولكن عندما يكون مدرسا ابتدائيًا ويذهب إلى مكان الدرس ليمارس عمله التربوي عليه أن يخلع ميوله ومعتقداته الشخصية ويلتزم بالأعراف والتقاليد المرعية في المظهر وفي السلوك ناهيك عن التزامه بالمنهج

العلمي الذي أقرته الوزارة ووضعت فيه فلسفة الدولة في التربية والتعليم.. أخونا جمال لم يفعل شيئًا من هذا، أخذها سبهللة، في منتهى الاستهتار بمناهج الوزارة وبكل شيء اعتبر كأن هذه المدرسة ملكه الموروث عن جده ومن حقه أن يفعل فيها ما يشاء على كيف كيفه، يذهب إلى المدرسة بالدشداشة والعقال، منتعلا الشبشب الجلدي أبو أصبع ورجله بارزة مفلطحة متشققة الكعبين، وليس رجله وحدها هي البارزة بهذا الشكل الصادم القبيح، إنما تخيلوه يمشي في الفصل بين الصفوف وأمام السبورة، والفصل بنين وبنات معًا، وعورته الأشد قبحًا بارزة ومجسدة في عيون التلاميذ، وحتى «الكلوت» الأبيض أو الملون ظاهر مع الفانلة كخريطة بالطباشير على جسده القمحي الغامق.. المصيبة أنه يعلم التلاميذ أشياء غريبة عن أجدادنا الفراعين الكفرة!!..

لا تسألني كيف تأتى له أن يفعل هذا دون أن يردعه رادع، لأنكم جميعًا تعرفون أن الرادع نفسه أصبح مردوعا على جميع الأصعدة، فكل مفصل إداري بشري أصبح تلفانًا ملسوعًا بالرشوة ملوثًا حتى النخاع خاضعًا لقانون الفساد عن طيب خاطر عملا بمقولة مصرية قديمة: إن نزلت بلد بتعبد العجل حِش وارمِ له، الجميع فاسد من القمة إلى القاع، وزبالة الطوابق العليا تغرق السلم وتضاعف حجم النتن فوق درجاته إلى أن يأتي يوم ـ لعله قريب جدًا ـ تندفن فيه العمارة كلها تحت زبالتها، فتأكل الزبالة الزبالة، فنحن جميعًا، البلدة هذه كلها، كائنات ولدت في الزبالة وفيها تعيش..

ناظر المدرسة لحيته واصلة إلى صدره، وزبيبة الصلاة ورم داكن في

جبهته يفرز لون الجير كأنه يتعهدها بالتربية والنفخ والعجن لتكون لافتة يراها الأعمى ليتأكد أن هذا الرجل من عتاة الرُّكَّع السُّجَّد، بيده مسبحة طويلة. هو الآخر قادم من إعارة سعودية قد شبع فيها حتى التخمة والبشم، ولم يعد يشغله أمر ترقيات فلا حافز لديه، بات كائنا مشبعا بما كان يحلم به من مال فأصبح العمل أداء واجب ووجاهة اجتماعية وهو في الواقع يلعب دورًا في التحلل وتفكيك الأسس.. وكيله صفوت النجار يباريه في مظهر الورع، المدرسون الأوائل والموجهون، معظمهم توسط لهم الدكتور مصطفى للسفر إلى السعودية بحكم منصبه في المديرية، ليس بالمجان طبعًا، لا، بل بفلوس باهظة: عشرين وثلاثين وربما أربعين ومائة ألف أحيانًا إذا كان المعار سيكرر الإعارة أو يمددها حيث يخترع له الدكتور مصطفى أسبابًا وجيهة متماهية مع القانون.. كلهم أصبحوا دعاة بقدرة قادر لأن سوق الدعاة قد جَبَر.. بات منظرهم جميعًا ـ برغم فخامة ملابسهم المترهلة على أجسادهم ـ مثل كائنات غريبة ذات عيون فضولية، تسلطية، تجسسية، قلقة، تومض من خلف لحى كثيفة تحجب ما يمكن أن يظهر على بشرة الوجه من مشاعر تتضح من خلالها دخائل البشر وتتوضح شخصياتهم، اللحى نقاب رجالي يخفي وجها خلقه الله مشرقًا بنوره، اضطر إليها سكان الصحراء لتحمي بشرة وجوههم من الاحتراق فما حاجتنا نحن إليها؟!.. كائنات تشع بالعدوانية أو بافتراض العدوانية فيمن ليس ملتحيا وبلا زبيبة، يرتهب منهم الأطفال فيضيع تركيزهم، تتجمد أخيلة الأطفال رعبا من وصف جهنم وعذاب القبر والسعير يوم تقوم القيامة وملك الحسنات وملك السيئات.. إلخ، بعض الأطفال شعر رءوسهم يطقطق ويشيب من الهول، بعضهم الآخر

لا يحتمل قلبه الصغير صور العذاب التي يتفنن المعلم في حكيها فيضطرب ويصاب بأمراض بدنية ونفسية مبكرة خاصة إذا كان الطفل قد كذب مرة أو ارتكب خطأ وعرف أنواع العقوبات التي سينالها يوم القيامة، فأي هول هذا؟! إنهم يقيمون القيامة بالفعل في الأخيلة الخضراء التي لم تبدأ الحياة بعد!.. حضرة الناظر لم تعجبه حجرة الأشغال التي يتنفس فيها الأطفال ويظهرون قدراتهم الإبداعية، فقال إن الرسم والنحت على أي مادة وكذلك الموسيقى حرام ولهو تجد فيه الشياطين مرتعًا خصيبًا، فقام بتحويل الحجرة إلى مصلى، يصلي فيها المعلمون ومن ورائهم الأطفال.. يومًا بعد يوم صارت مهزلة يومية، دورة مياه المدرسة تحولت إلى ميضأة همجية تشكو من تخمة الغائط وخراب الصنابير والسيفونات والأحواض التي صارت كلها جرباء متصدعة متخلعة، نشعت مياهها على الجدران في جميع الفصول، صنعت بركًا من الغائط السائل رائحته لا تطاق مع أن عمال السباكة والتنظيف يلاحقونها يوميًا بالتسليك والترقيع ونقل مياه الصرف إلى أماكن بعيدة خارج المدرسة.. صارت المدرسة مستنقعًا بمعنى الكلمة، وإن اعترض معترض مثلي أو حتى أبدى ملاحظة أو نقطة نظام هبَّ في وجهه مائة صوت يستهول ويستنكر ويستحرم: تعترض على الصلاة؟ يا للكفر! يا للضلال!.. المضحك المبكي أن بعضهم عندئذ يشير إلى مستنقع الصرف ـ الذي أسهم هو في إحداثه بقدر كبير ـ قائلاً في استيعاظ: أليس هذا من غضب الله علينا لأننا ضللنا وأصبحنا نعترض على الصلاة وعلى ما شرعه الله؟.. يا لهو بالي يا جدعان.. لا يا معلم الغبرة، هذا ليس من غضب الله إنما هو من مؤخرة سيادتك عدم المؤاخذة ومؤخرات

أمثالك المطروح فيها البركة.. منظر العيال الأقباط يشرخ قلبي؛ ما أن يدق جرس الوضوء لصلاة الظهر بدلا من الفسحة، ويصطف التلاميذ في طابور خارجين إلى الميضأة، فلا يبقى في الفصل إلا خمسة ستة من الأقباط، كل معلم يفوت عليهم في الممر يرميهم من الشباك بنظرة اشمئزاز، لا يخلو الأمر من معلم سمج يعرف أصلا أنهم أقباط ومع ذلك يتجاهل ويسأهم في شخطة قاسية: قاعد ليه يا حيوان إنت وهو؟ ما سمعتوش جرس الوضوء؟ لكأنه يتلذذ بأن يقف الأطفال في خجل وارتباك قائلين: أصل إحنا.. إحنا أقباط يا أستاذ، فيزوم كأنه هو الحيوان لاويا بوزه قائلاً: طب اترزع اقعد، مما جعل العيال الأقباط يسارعون بالخروج من الفصول والتجمع في ركن قصي إلى أن تنتهي الصلاة فيعودون جميعًا إلى الفصول.. الأخ جمال عابد أكثر سماجة، حين يحكي للتلاميذ قصة الدعوة الإسلامية وما لاقاه النبي عليه الصلاة والسلام من عنت وحروب في سبيل نشر الدعوة، لا يتورع عن تثبيت نظره على التلاميذ الأقباط حين يتحدث عن الكفار والنصارى ومكائدهم، وهو من جهالته لا يدري - أو لعله من الجهالة يدري - أن التلاميذ المسلمين الجالسين مع زملائهم يتابعون نظرته، فيصيبهم في الحال نفور شديد جدًا من زملائهم الأقباط هؤلاء باعتبارهم من نسل النصارى الجاحدين الكافرين بالنبي ورسالته أعداء الإسلام!!..

أعطني عقلك وأنت ترى هذه المناظر، وترى بعض العيال المسلمين يتحرشون بزملائهم الأقباط لله في لله دونما سبب، يخطفون كراريسهم وأقلامهم وأكياس طعامهم، يلقون رذاذ الحبر على ثيابهم النظيفة.. هؤلاء عيال سفلت أخلاقهم من شدة سفالة معلميهم.. قد

كنت أتطوع بفض هذه الخناقات، وتأديب العيال المعتدين، بالتهويش بالعصا أو بالشخط أو حتى بلسوعة سطحية.. من سوء حظي أن العصا لسوعت إسماعيل ابن أخت زوجة الدكتور مصطفى -رضي الله عنه وأرضاه!!- فقامت القيامة.. قاد جمال عابد الحملة ضدي، كتب شكوى ذكر فيها كل كلمة خرجت من فمي في لحظات ضيق سابقة لا علاقة لها باللسوعة، وصفني بالسوقي وبأنني أستعمل ألفاظا غير لائقة في الدرس، وأنني أعلم العيال الكفر وأحرضهم على الخروج على النظام، وزينها بتوقيع هيئة التدريس وبعض أولياء الأمور، ثم شيَّعها إلى المديرية.. هو شهر واحد، وجاء القرار بفصلي.. من يومها والقضية في ثلاجة المحكمة تدور في حلقه مفرغة حتى يئست من كسبها فصرفت النظر عنها تركتها للمقادير تصرٍّفها بمعرفتها كيفما تشاء..

فلما فاتحني عابد البراوي في أن أقود له سيارته بما أني سائق ماهر وكان عندي سيارة فولكس واجن خنفساء قديمة اضطررت لبيعها بعد فصلي لعدم قدرتي على سدّ نفقاتها.. في الحقيقة ترددت رغم احتياجي لأي فلوس حتى وإن كانت تافهة في نظر غيري.. اعتذرت، فقال لي بالمفتشر إنه سيأمر ابنه الدكتور مصطفى بالعمل على إعادتي للتدريس أو على الأقل في وظيفة معادلة في الوزارة تناسب شهادتي ومدة خدمتي إن أنا خدمته في قيادة السيارة، إنه متمسك بي لأنني سائق شكله محترم ولبق ومعه شهادة عالية وصاحب مهارة في القيادة، وبالإضافة إلى ذلك أفهم في ميكانيكا السيارات وأستطيع إصلاح أي عطل فيها..

أنا من عبطي صدقت ووافقت.. بيني وبينك كنت مبسوطا لأني سأقود هذه السيارة الفخمة التي تنقل سرعاتها بنفسها تلقائيًا؛ يعني تستطيع قيادتها وأنت متربع.. العائلة أصبحت مبسوطة من وجودي تحت أمرهم وإذنهم وقتما يشاءون.. أصبحت واحدًا من العائلة؛ وكان البراوي مخلصًا لطبعه في أكل الحقوق والمماطلة في دفع أي شيء، وكنت على بينة من خصلته تلك، فاتخذت من السيارة رادعا يوقفه عند حده حين يفوت موعد القبض الأسبوعي كما اتفقنا ولا يدفع أو يحتج بأية حجة للتأجيل أو لدمج أسبوعين في بعضهما وما إلى ذلك من حيل قرعاء، عندها أترك له السيارة وأمشي غاضبًا مشيِّعا باللعنات والتهديدات بأني لن أضع مؤخرتي على كرسيها بعد اليوم، وأتعمد أن أترك له السيارة دائرة على مشهد من عياله وغيرهم، فيقوم هو أو أحدهم بإطفائها وإغلاق بابها وتغطيتها بالمشمع إلى أن يحين موعد مشوار قادم، فإن حان لوقته أو بعد حين يحاول أحدهم إدارة السيارة فيستحيل عليه ذلك، لأنني أكون قد فصلت أحد الفيوزات الذي لن يميزه أحد وسط غابة من الفيوزات في لوحة الكهرباء، لا تصدر السيارة أي صوت، وليس في بلدتنا ميكانيكية أو كهربائية في ورش اللهم إلا عيال هواة يتعلمون الزيانة في رءوس اليتامى على رأي المثل، فإذا كان الميكانيكي أو الكهربائي المتخصص يلزمه وقت طويل حتى يفهم تراكيب السيارات الحديثة المسماة بالـ «فول أوتوماتيك» فما بالك بالعيال الهواة؟! إنهم يفسدون أكثر مما يصلحون، ولو انطبقت السماء على الأرض فإن عابد البراوي لن يسمح لغشيم منهم برفع غطاء السيارة.. في الحال يأمر البراوي عياله بالكف عن العكرشة في العدة.. يجيء من يناديني: إنت فين يا أستاذ فرج من الصبح؟ الآن

صرت أستاذًا خلِّ بالك!.. يدس في يدي الورقة أم عشرين ثم يتمهل فأبقى مادًا يدي، فيتمهل وهو ينزع العشرين الأخرى من سيالته، وإذ أراه سيتمهل مرة ثالثة أرمي بالورقتين في جيبي و.. سلام عليكم! إنت حتنقطني؟ فبوجه مكفهر يرمي في يدي بقية السبعين التي أستحقها طرفه عن الأسبوع المنصرم؛ وقبل أن أدير السيارة لا بد من مشهد تمثيلي أبحث فيه عن سر العطل وأنا فاعله، وقد أطيل البحث وأرسم الحيرة وأتهم الذين عكرشوا في العدة فأحدثوا خللا في الشبكة الكهربائية الضاربة في الهجاصية وما إلى ذلك من مصطلحات يرددها الأسطوات، المهم أن أحدًا لن يفهم ما الذي فعلته بالضبط حتى نطقت السيارة وحينئذ يكون لنطقها فرحة تمتعني وأنا أراهم يلتقطون أنفاسهم وتنفرد وجوههم ويكفون عن قراءة الفاتحة وعدية يس وآية الكرسي من الآيات الكريمة التي يستعينون بها على طرد العكوسات وهزيمة إبليس اللعين، وكأن القرآن الكريم عندهم تميمة لقضاء الحاجات ينسونها بعد قضاء المصلحة!..

الدكتور مصطفى أكذب من أبيه، ضلالي على الطراز الحديث.. أبوه كلمه فعلا عن مشكلتي، فاستمع باهتمام ثم قال إنها مهمة سهلة، سوف يفعلها بإذن الله.. وكنت كلما التقيته في توصيلة إلى كفر الشيخ صباح السبت من كل أسبوع، حيث ينجعص متعنطزا على الكنبة الخلفية، يحكي لي حكايات غامضة عن سوء الأوضاع في البلد وعن خراب الذمم، وكيف انتشرت الرشوة وأصبحت رسمية مباحة، وكيف أن الخدمات موجودة والأعمال كثيرة ولكن.. لمن يدفع، وأنه شخصيًا قد توسط لواحد مثلي في المنطقة الفلانية فتكلف هذا الواحد مبلغ كذا.. وهكذا.. وهكذا.. فيين وفييين على ما فطنت

إلى أنه يساومني ـ بطريقة حديثة ـ على المبلغ الذي أستطيع دفعه مقابل خدمته لي في إعادتي إلى الوظيفة ولو خارج التعليم، زاعمًا وبقوة ـ شف الصفاقة والبجاحة ـ أنه شخصيًا ليس يقبل على عياله مليمًا حرامًا، إنما هو يتوسط لله من أجل عيالي وكله أسف في الواقع على سوء الأخلاق!.. هل رأيت في حياتك بجاحة ونتانة بمثل هذا الوصف؟! هل هذا شخص عرف ربنا وذهب إلى الحج وملس على شباكه صلى الله عليه وسلم وكبر وأقام حضرة أسبوعية في داره يأكل الفتة بالضأن ويجمع على حسها خرفانًا وبقولاً من المريدين السذج الغارقين في بلهنية من العيش؟!..

طرمخت عليه، من شدة احتقاري لم أقل له أبيض ولا أسود، إن الخسيس يبقى خسيسًا مهما اغتنى ومهما وصل إليه من مناصب، ولكني صرت متأكدًا أن مصطفى عابد البراوي هذا كان مريضًا نفسيًا، لم يكن طبيعيًا أبدًا..

يوم جاءنا خبر ترقيته إلى وكيل أول وزارة التربية والتعليم وأنه مطلوب للسفر إلى القاهرة للعمل في الإدارة المركزية كان هو في البلدة ليلتها يقيم الحضرة.. وكنت سهرانًا معهم في الحضرة، فلاحظت أنه شاتت، لا حضور له في الحضرة، وكلما بارك له أحد رد عليه بسرعة ثم يلوذ بالصمت، حتى استغرب الكثيرون شروده وعدم شعوره بالفرحة، فمالوا على بعضهم وتهامسوا بأنه مخضوض من المنصب، وقيل بل المفاجأة، وقيل بل من الشعور بفداحة المسئولية، وقيل بل إنه ـ يا مغفلين ـ يفكر الآن في كيفية سرقة الدرجة المتبقية ليصعد إلى منصب الوزارة رأسا، وقيل كذلك ـ أي والله العظيم في نفس الحضرة

ـ إنه اشترى هذا المنصب وبإمكانه أن يشتري ما هو أكبر!.. ليلتذاك أمرني عند انصرافي بأن أكون منتظرًا داخل السيارة بعد صلاة الفجر مباشرة صباح السبت لكي أوصله إلى القاهرة ليكون في مقر الوزارة عند الضحى..

في الموعد خرجت من دارنا على شاطئ ترعة المشروع بجوار الجمعية التعاونية الزراعية، فإذا بصوت إسطاسية يصافح وجهي كزخة مطر مفاجئ سمج ولامع ومربك.. المسافة بين دارنا وعزبة الحجر فركة كعب، والصوت من فوق سطح دار إسطاسية على قمة المرتفع الجبلي يركب الهواء الرائق إلى بلدتنا، فينفرد تارة، وتارة أخرى يتناسخ وتتصادم أصداؤه مع المآذن والمباني العالية فتتفتت وتتساقط فوق رءوس أهل بلدتنا؛ إن صوت هذه الولية مثل الذرَّة ينشطر ويتفجر فتتصدع منه النفوس وتمتلئ بالشروخ فتصير آيلة للسقوط.. قلت: يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم صبحنا وصبح الملك لله! هل أنا ناقصك يا إسطاسية في هذا الصباح الفتاح تصفعينني بالعدودة على وجهي وأنا متوكل على الله إلى سفر؟!.. حودت يمينا وعبرت القنطرة إلى الوصلة التي تقودني إلى شارع داير الناحية، فصار صوت إسطاسية يصفعني في جنب وجهي اليمين، ثم في مؤخرة رأسي، ففوق رأسي كأنه يلاحقني أنا وحدي ويدق في رأسي المسامير بالشاكوش!.. زفني النواح زفة حارة إلى أن دخلت السيارة.. كأي سواق محترف طوقتها بالفوطة الزفرة، تممت على الزيت، والبنزين، والفرامل، والدبرياج، أدرت، بدأت التسخين، كل ذلك ونواح إسطاسية يتموج فوق الهواء يقترب ويبتعد، يعلو ويهبط..

النواح دهم الدكتور مصطفى وهو خارج من باب الدار قادما نحو السيارة، صار يبرطم ويغمغم ويدمدم من شدة الغيظ.. أجزم أنه سب دينها ودين الكفرة على صباحها ذاك الشؤم، واكتملت وصلة الشتائم والسباب بمجرد ظهور أبيه، صار صوتاهما معًا يتناطحان مع صوت إسطاسية تناطح الخرفان في مشهد من الكوميديا السوداء، كل من الطرفين يستنزل اللعنات بحرارة، إسطاسية على عدو مجهول، وهما على عدو معلوم هو إسطاسية، تقول إسطاسية مثلا: أشوفه متقطع حتت تحت القطر، فيردان معًا في الحال: إن شا الله انتي واللي جابوكي!.. صار المشهد مضحكا، فتشبثت بالضحك استدرارًا للتفاؤل.. كنت أريد أن أتفاءل بأي شكل، ولو كان لنا طريق آخر حتى وإن كان لفة طويلة كنا قطعناه لكي نبعد عن سكتها، إنما المصيبة أنه طريق وحيد، يعني لسنا نمر من أمام باب دارها فحسب بل ستكون نارها وصوتها فوق رءوسنا مباشرة.. زحفت الفولفو متجاوزة دار إسطاسية ودار المقدس عازر صبحي الساهر فوق مصطبته حتى الصبح، تتساقط من فوقنا اللعنات، تنذرنا وتمنينا بعشرات الكوارث التي يجب أن تصادفنا في الطريق.. فلما اضمحل صوتها في بطن الأفق خطفت نظرة في المرآة العاكسة لما ورائي، فهالني منظر الدكتور مصطفى الجالس وحده على الكنبة الخلفية فيما جلس أبوه على الكرسي المجاور لي.. لقد انفجر في بكاء مكتوم، جسده المكرش المحشور في بدلة وصديري يهتز ويرتعش من النهنهة والأهأهه، وأبوه ميت في جلده مرعوب لا يعرف كيف يسكته كما لا يعرف ما السبب..

بسلامة الله وصلنا إلى القاهرة مع ارتفاع شمس الضحى، قبل أذان الظهر صرنا في مقر وزارة التربية والتعليم ـ صعدنا ثلاثتنا إلى مكتب

الوزير، انتظرت في الاستراحة مع البراوي ودخل الدكتور مصطفى إلى الوزير.. ثم خرج بعد خمس دقائق، صار يدخل حجرات ويخرج منها إلى حجرات، يمكث في بعضها وقتا.. أخيرا ظهر وفي صحبته أحد السعاة، أشار إلينا بأن نتبعه، فتبعناه، فقادنا الساعي إلى غرفة في نهاية الممر، فتحها، دخلنا وراءه، قال الساعي للدكتور مصطفى:

ـ غرفة سعادتك! أطلب لسعادتك مدير المكتب والسكرتيرة؟

فقال الدكتور مصطفى:

ـ مش وقته! هات لنا الأول قهوة!

واتجه إلى المكتب فجلس إليه. كان يبدو فى حالة دوار، وبدا أن رأسه يكاد يكون منفصلا عن كتفيه، يعتدل فينكفئ فيعتدل بصعوبة، امتدت يده إلى لوحة الأزرار، عجز إصبعه عن الوصول إلى الزر المطلوب الضغط عليه، عيناه كانتا أشبه بقرص الشمس عند الغروب، تجمدت الجفون فلا حركة للرموش، صعد سواد العينين واختفى تاركا جفنين مفتوحين على بياض راكد عكر ضارب إلى الزرقة الداكنة، ثم انكسرت رقبته فانكفأ رأسه فوق صدره.. قمنا مذعورين صارخين، أبوه يهزه وأنا أدعك فوق قلبه دون جدوى.. برهة طويلة كانت ظلاما دامسا لا صوت فيه على الإطلاق، سرعان ما انقشعت فإذا بالوزارة كلها قد حضرت واحتشدت الغرفة بالرءوس والأجساد والصخب الهائل..

بعد حوالي ساعتين خرجنا من مستشفى قصر العيني نحمل جثمانا وشهادة وفاة؛ توقف مفاجئ في الدورة الدموية.. رجال الوزارة قاموا

بالواجب، دفعوا تكاليف سيارة نقل الموتى.. دخلنا البلدة بموكب من سيارات بزحف جنائزي، منفرد! أنا بالڤولڤو في المقدمة، أما البراوي ففي سيارة إسعاف خاصة بالوزارة ومجهزة للطوارئ، وركب معه من يباشره ويواسيه لأنه قد بدأ يفيق من الغيبوبة.. وكنت أظن أنه لن يعيش أكثر من ساعتين ثلاثة بالكثير، ولكن ها هو ذا يقوم مثل الحصان.. أقول في عقل بالي: إن الله مد في عمره ليعذبه ويحرق قلبه، ولكنني صرت واثقا أن القلب الميت ينجب عيالا كالأبالسة إن ماتوا ليس يحترق ولا يتعذب!».

منتديات مكتبتنا

(٧)

زفاف العاشق الطعين

عندما صحوت في الضحى قالت أمي وهى تزيح قرص البيض المقلي من الطاسة الساخنة إلى الطبق: إن أدهم أبو ستيت طرق بابنا منذ قليل ودعاني لحضور فرح أخته حميدة على معاون زراعة من عزبة نصيف، وقبله بدقائق فات وفد من نسوان دار أبو ستيت ودعوها هى الأخرى لتشرفهم بالحضور، خاصة أنهم يحبون أن تخرج البلد من حالة النكد هذه وتفرح نكاية في إسطاسية، وبالأخص لأن دار أبو ستيت جاملونا وأجلوا فرح الدخلة بعد الشبكة ما يزيد على خمسة أشهر. فهمت أنا من هذه الحاشية أنها لا تمانع بل تدعوني صراحة لحضور الفرح على سبيل رد الجميل بجميل. وحينما جلست بجواري تطبخ لي الشاي على وابور الجاز المؤنس بونينه الحميم كما كانت تفعل مع أبى كل صباح؛ زفرت كأنها تخفف عن صدرها حملا ثقيل الوطء عليه:

ـ «اليوم الخميس! وغدا الجمعة! و..».

قاطعتها مازحا:

ـ «وبعد غد السبت!».

فزفرت مرة أخرى:

ـ «يا ترى يا هل ترى!».

ثم رفعت رأسها إلى السقف ضارعة:

ـ «هات العواقب سليمة يا رب لأجل حبيبك النبي!».

ـ «ما المناسبة؟! السبت مشئوم مثلا؟!».

ـ «نسيت يا حمزة؟! قضية عمار وعبد الغني!».

هتفت كالملسوع شاعرا بالتقصير:

ـ «يا..ا..ا..ه! نسيتها فعلا! كانت يوم الأربعاء! منذ حوالي ثلاثة أسابيع!».

ـ «الجلسة قبل الماضية كانت مؤجلة لتقديم مذكرات!.. الجلسة الماضية تأجلت للنطق بالحكم!».

ـ «ما شاء الله عليكي يا أمي! أحسدك والله على هذا التركيز والاهتمام بهما أكثر من أمهما!».

ـ «أنا بالفعل أمهما! في كل صلاة أدعو الله أن يفك حبسهما ويعودان لعيالهما!.. يتقطع قلبي من أجلهما! ومن أجل وقف الحال الذي أصابنا!.. هذه ضربة تقصم ظهر العمدة وظهر العائلة كلها!».

صبت الشاي الثقيل من السخان في البراد فوق السكر وكتمت بخاره بالغطاء:

ـ «تشرب الشاي وتمشي إلى عمك العمدة».

ـ «ليه؟».

ـ «ليه؟! أمرك غريب! تدعي الغباء؟».

ـ «العفو يا ستي!».

ـ «اجلس معه بعض الوقت! شد حيله! زمانه بطنه بتكركب مسكين!.. خفف عنه بكلمتين!

طيب خاطره!! مجرد وجودك بجانبه سيريحه!».

ـ «كلك واجب والله يا ست الكل!».

ـ «فاكر لما كنت بتنام تحلم بالواجب وانت طفل؟».

ـ «من قرصك الموجع!».

ـ «يظهر أنك أحيانا كثيرة تحتاج للقرص!».

قرصتني! ووجعتني فعلا!.

صلينا المغرب والعشاء وراء عمي عابد في مندرتنا التي كانت مزدحمة بالزوار من أصحاب المشاجرات اليومية التي يحتاج فضها إلى كثير من الشخط والنطر وربما السب. كان سيد أبو ستيت جالسا معنا من بعد صلاة العصر، يرابط لصق عمي العمدة، رأسه وألف سيف أن يرافقه كل من عمي عابد وعمي العمدة إلى فرح ابنة أخيه خصوصًا أن ابنه رشاد امتثل لنصيحتي ـ كما يقول ـ واستعقل، سلم أمره لله ما دامت البنت لا تريده، وكان جدعا فحضر الخطوبة والشبكة بدون الجنُونة التي كانوا جميعا يخشونها؛ صحيح أنه كان ينزوي في ركن

ويبكي ويأكل في نفسه من شدة الغيظ لكنه لم يفعل شيئا يكدر فرحة الصبية. وكانت وجهة نظر سيد أبو ستيت أن ذهاب العمدة إلى فرح بنت أخيه فيه تفاؤل، لعل الفأل الحسن يكون عنوانا على ما سيحدث إن شاء الله في جلسة المحكمة بعد غد؛ يعني منها تفاؤل ومنها ترفيه عن النفس التي جفت من شدة الحزن وكثرة الكرب منذ أن جأرت بوز الإخص إسطاسية بصوتها النكير فسودت فجر الأيام وصبحها، سوَّد الله عيشها وعيش الذين خلفوها. كل الحاضرين استحسنوا كلامه وأيدوه، اشتغلوا بالضغط على العمدة: مين عارف؟ خليها فرح تفضل فرح! وعقبال ما ننقل الفرح هنا قدام الدار بعد حكم البراءة إن شاء الله!.. وهكذا وافق العمدة.

قبل أن ننصرف طبَّ علينا وكيل المحامي قادما من كفر الشيخ في سيارة مخصوصة، اختلى بعمي العمدة وعمي عابد وأنا، فطمأننا على البراءة المتوقعة، وطالب ببقية الأتعاب. لحظتئذ انقبض قلبي فشعرت بعدم الثقة فى هذا الوكيل وفي محاميه وفي القضية برمتها، وكل ما استطعت فعله أنني نبهت على عمي بعدم دفع أي مليم إلا بعد انتهاء الجلسة، ولكن عمي عابد كان أخبر مني بشغل وكلاء المحامين فعرف الرد المناسب، غمز الوكيل بورقة مالية غير معلومة ووعده خيرا يوم اللقاء في المحكمة.

مضينا إلى الفرح مدفوعين برغبة في التغلب على القلق ودفنه في ضجيج الفرح. أمسك عمي العمدة بيدي وتخلف بي عن الركب قليلا، ليقول لي إنه قد صرف النظر عن إشراكي في ماكينة الطحين لأن جمال ابن عمي عابد قد دخل شريكا بدلا مني، يقصد بدلا

من إسطاسية، وأن إسطاسية قد تخارجت من الشركة وأخذت كل مستحقات ابنها على داير مليم.

شكل الفرح يشي بأن العريس من عائلة ميسورة الحال، فهناك عدد كبير من السيارات الملاكي راكنة على تخوم السرادق؛ ثم إن الكراسي والمنصة المسرحية ونقشة قماش السرادق الزاهية، وكثرة عدد لابسي البدل الفخمة وأربطة العنق آخر موديل، وامتلاء السرادق عن آخره بناس أشكالهم محترمة، كل ذلك يؤكد أنها ستكون سهرة طيبة ترج البلدة من الفرح المدخر في صدور الناس، بفرقة من الآلاتية والمطربين والراقصات. وقد سمعت من طراطيش كلام حولي أن فرحا مماثلا مقام الآن في عزبة نصيف ينتظر قدوم العريس بعروسه.

حاذاني الأسطى فرج، لا بأس فالأسطى لقب أصله الأستاذ، مشى بحذائي ونحن نقترب من مدخل السرادق الملعلط بالنيون، ثم لكزني هامسا:

ـ «العريس على فكرة من أصحاب الخزن المشهورين!

فاسد بالسليقة! ضلوعه في الفساد يرشحه لمنصب الوزارة في حكومة الحزب الوطني! أو الخزن الوطني!».

ـ «يقال إنه معاون زراعة!».

ـ «هذه هي البدلة التي يلبسها والبطاقة التي يحملها! ويقبض مرتبها من الحكومة ببدلاته وحوافزه كأي كادح في الشغل وهو في الواقع لا يرى مكتبه في الجمعية الزراعية!.. إنها شغلته الأصلية! شغلة عائلته هي تخزين المحاصيل الزراعية بطريقة علمية تحميها لسنوات طويلة

لإخفائها من الأسواق حتى تجف الأسواق فيمزمزون في بيعها في السوق السوداء! وأهله وإن بدوا فقراء فلاحين فإنهم مياه تحت تبن! يصدرون البطاطس والبصل والفواكه الطازجة إلى فرنسا وإنجلترا وألمانيا؛ جبابرة في شكل بؤساء! أثرياء فى شكل شحاذين! مضروب بهم المثل على البخل الشديد إلا فى أمور الفشخرة الكدابة!.. أتحدى الحكومة أن تعرف شيئا عن أموالهم المتلتلة في ممتلكات سرية!.. إنهم أسخياء في شيء واحد فقط: الرشوة!».

تقدم أهل العريس نحونا، صافحونا بحرارة. هتف الواقف على الخشبة العالية معلنًا الترحيب بحضرة العمدة وأهل منزله الكرام، ردد أسماءنا واحدا واحدا، واصفا كل فرد منا بأجمل الأوصاف، وعقب كل وصف سلام يَعزفه الآلاتية: جملة موسيقية هتافية رنانة تحتويها نقرات الدربُكّة وتدندشها شخاليل الرق. وسُعت لنا أماكن في المقدمة على شكل قوس متاخم لخشبة المسرح؛ يواجهنا قوس مماثل يحتله أعيان أهل العريس الذين راحوا يمعنون في تقديم التحية لنا بالسجائر والنارجيلات وأكواب العصائر. كان على الخشبة مطرب وراقصتان سمينتان جميلتان حقًا.

كانت منصة الكوشة مستقلة وحدها في ركن متصل بالخشبة المسرحية منفصل عنها في آن، تستطيع الراقصة العبور إليها والعودة منها كجزء من حركة الرقصة. فيها جلست العروس فوق كرسي مرتفع، وعلى قرينه الملاصق له جلس العريس. كلاهما أجمل من الآخر، إلا أن العروس بالفعل فاتنة وتبدو بنت باشوات، واللبس الإفرنجي الصرف متسق على جسدها كمانيكان، وتسريحة شعرها

تشهد بأن كوافيرة كفر الشيخ ماهرة جعلت من وجه حميدة أبو ستيت نجمة إغراء سينمائية تتفوق بكثير جدًّا على صور أغلفة المجلات الملونة. حقا حقا هي لم تكن مناسبة على الإطلاق لابن عمها رشاد أبو ستيت أو بالأصح لم يكن هو يستأهلها، ليس فحسب لأنها حاصلة على دبلوم التجارة وهو جاهل لا يفك الخط؛ وإنما لأنها نمط لطيف ورقيق جدا من الفتيات الحييات، يندهش الواحد منا كيف يمكن أن تولد من أصلاب ناس بهذه الخشونة والعنف.

المطرب تسلطن على الآخر، سيطر على الحضور. ساد الهدوء والصمت لبرهة طويلة في خشوع أمام رهبة صوت آلة القانون وهى تمهد لدخول المطرب في متن الأغنية بعد انسحاب الموال. حينئذ بدا كأن صمت الليل يخلع أرديته ليظهر ما كان خافيا تحت ركام من الأصوات. في هذه البرهة الوجيزة التى تتمهل فيها الأوتار للانتقال إلى مقام أعلى، دخل صوت إسطاسية مندسًّا بين همهمة الأوتار فكأنه عصفور ضال راح يتخبط فى سقف السرادق ثم اندفع خارجا من بين الثقوب في سرعة مذهلة لكنه لسع وجوهنا وهز أعطافنا، لكن صوت آلة القانون سرعان ما أنعش مشاعرنا، وصوت المطرب يعصف برءوسنا الطائرة على لحن أغنية محمد عبد المطلب: يا حلاوته لما قابلني وقال.. دا الوصل جميل حلو يا محلاه شفت حبيبي. هدرت صيحات الجماهير تزلزل السرادق، وهدرت طلقات الرصاص في الفضاء تؤكد أن لأصحاب الفرح عزوة ومهابة.

لكزني الأسطى فرج، نبهني إلى منظر يستحق الالتفات: رشاد أبو ستيت ـ العاشق الطعين ـ وابن عمه أدهم أبو ستيت ـ شقيق

العروس ـ كل منهما يعلق بندقية في كتفه ويقف كالحارس على جانب من خشبة المسرح، يتبادلان إطلاق الأعيرة النارية في الفضاء المفتوح فوقهما. انتبهت كذلك إلى سيد أبو ستيت يرقب ابنه بابتسامة بلهاء، على وجهه غبطة الزهو بابنه الذي امتثل للواجب العائلي وقهر قلبه.

كفت أصوات الآلات وتوقف الرقص بعد انتهاء الأغنية، وبدأ سباق النقوط من أهل العريس بأوراق مالية كبيرة من فئة الخمسين والمائة، مع كل ورقة تتردد الأسماء، ووراء كل اسم تحية موسيقية وعدة رصاصات في إيقاع متتابع سريع. في تلك اللحظة ـ وكأنني في رؤية حلمية ـ رأيت ماسورة البندقية في يد رشاد أبو ستيت قد نزلت عن الفضاء ومالت في اتجاه مقعدي العروسين في الكوشة بشكل يبدو عفويا إلا أنه أفزع أدهم ابن عمه الذي كان يرقبه في الطرف المقابل في استرابة. عندئذ شعرت بقلبي يسقط في الأرض لدرجة أنني نظرت في الأرض بحثا عنه، فما كدت أرفع الطرف إلا وماسورة بندقية رشاد قد صوبت على العروسين تتدفق منها النيران المدوية، فاندفعت من جبيني العروسين نوافير من الدم قوية الاندفاع صبغت جميع المرئيات بالأحمر القاني، وفي لمح البصر صار الكرسيان خاليين. وقبل أن نلتقط الأنفاس كانت رصاصات أدهم أبو ستيت ـ الواقف قصاده مباشرة ـ قد غربلت جسد رشاد بإحكام شديد، ومع ذلك أصيب الكثيرون بجروح من الطرفين.

انجرفنا في بحر هائج من الصوات واللطم والجعير والضرب، ناس تدوس وتتكوم فوق ناس، كراسي تتكسر فوق رءوس وأكتاف، اختلط النساء بالرجال بالأطفال، شبت النار في السرادق. جريت

غارقا في دم لا أدري مصدره، لمحت عمي العمدة يجري لاطما خديه بيديه، وعمي عابد يجري وراءه صائحا: نتفاهم قبل البلاغ يا عمدة. لم أدر إلا ويد قوية تقبض على ذراعي فكأنما انتشلتني من حلم كابوس. كانت يد أمي قد ماتت على ذراعي غير مصدقة أنني ما زلت حيا. في الطريق إلى دارنا كانت أمي متشبثة بإبطي، وبجوارها الأسطى فرج الذي أصر على توصيلنا. وكانت الدنيا قد خمدت خمودا مريبا، وانفسح الفضاء أمام صوت إسطاسية الذي بدا حينئذٍ.. كأنها تنوح على ما جرى لتوِّه.

منتديات مكتبتنا

(٨)

حفل افتتاح مهيب

بتنا في سين وجيم لأيام طويلة. باتت أيامنا فجرًا واحدا أشد عبوسا واكفهرارا. بات الحزن الكثيف واقعا ضاغطا لا فكاك منه إلا أن تنفك طلاسم الجريمة ويقع القصاص من كل مجرم ضالع في الجرم فيكون ذلك إيذانا بعودة ضوء الفجر المحبوس في رداء الحداد الأسود. لن يقوم فجر حقيقي طالما بقي على سطح كسطح إسطاسية صرخة مكلوم تضرم النار في وجه الضوء تعميه بالدخان. إنه لدرس وعبرة يجب أن يعيه وأن يعتبرها شاب مثلي يطمح أن يكون من رجال العدالة في قابل الأيام. هو درس لخصه المأثور الشعبي بحكمته العميقة الخالدة: لا يموت حق وراءه من يطالب به. وإذن فهيهات أن يموت حق إسطاسية وقد تفرغت له بقوة وإصرار وعزيمة فرعونية لا تعرف اليأس ولا المستحيل. يكفي أنها أثارت في حياة الناس كل هذا الارتباك والتوتر؛ زلزلت استقرار الواقع الراكد والراقد فوق بركان من الخطايا؛ أقضت مضاجع اللاهين والمتواطئين فضلا عن الفاعلين؛ ففي ظل هذا الارتباك والتوتر والزلزلة والتأرق تحدث

الصدامات وتتقلقل الهموم المتراكمة فوق الصدور، فتندلق، تنفضح الأسرار، يكاد المريب يقول: خذوني.

كانت دارنا أتعس دار في كل البلاد، يليها دار أبو ستيت. لقد حلت بنا كارثة، مأساة مؤلمة تمزق قلب أمي وقلبي أنا أيضا. تكاد مأساة دارنا تقنعني بأنني في الواقع لست أصلح أن أكون من رجال العدالة؛ ذلك أنني برغم رفضي القاطع لسلوك وتصرفات كل من عمي العمدة وعمي عابد، واستعدادي العقلاني ـ نظريا ـ للوقوف ضدهما في ساحة العدالة وإدانتهما بضمير مستريح أراني الآن من فرط إشفاقي على أهلي وتأثري بما يجري لهم أكاد أتحيز لهم متجاهلا موقفي من العدالة برمتها، سيما وأن ما يصيب أهلي يصيبني بالضرورة في الصميم.

فيوم كنا جميعًا في سراي النيابة بكفر الشيخ نُدلي بأقوالنا في حادث مجزرة الفرح، وكل من عمي العمدة وعمي عابد وسيد أبو ستيت جثث مرمية على دكة ميري رمادية اللون غير مريحة. وكان الليل الداخل علينا شاحبًا كظيمًا ثقيل الوطء بطيء الإيقاع كأنه يتلذذ هو الآخر بتعذيبنا. ذلك أن جمال ابن عمي عابد كان هو الوحيد الذي لم يستدع للتحقيق فتمكن من حضور جلسة النطق بالحكم في قضية ابنيْ عمه؛ عمار وعبد الغني عواد البراوي؛ فإذا هو يدخل علينا بطيئًا كالليل نحاسي السحنة يتراكم الصدأ القاتم على وجهه، والخبر كان دامعًا في عينيه؛ فانحط بجوار أبيه على الدكة وانفجر باكيًا؛ فتدهورنا جميعًا حواليه نعلن البكاء الجماعي بصوت عال مقموع في آن. أخيرًا نطق بالخبر: حكمت المحكمة على كل من عامر عواد البراوي

وعبد الغني عواد البراوي بخمسة عشر عامًا أشغالا شاقة وغرامة قدرها عشرة آلاف جنيه لكل منهما.

تعثرت الحياة في دارنا تمامًا؛ فعامر وعبد الغني هما دولاب العمل في فلاحة الأرض؛ كل شيء يتم بمعرفتهما من حرث وبذر وري وحصاد بدونهما لم يكن عمي عابد يستطيع فعل شيء مفيد. الآن أصبح هو في حاجة لمن يعنى به. ثم إن الصرف على المحامين وتكاليف السفر المستمر وأخيرًا هذه الغرامة كل ذلك نشف ريقنا. إيراد ماكينة الطحين وماكينة المياه قد هبط إلى ما يكفي بالكاد مصاريف السولار وأجور العمال والحراس. ففي هذه الشهور القليلة نشط أكثر من شيخ بلد من البلدان التابعة لعموديتنا فاشترى ماكينة للطحين ومضربًا للأرز وماكينة لشفط المياه؛ فامتنعت عنا زبائن كل هذه البلدان وتبعهم بعض أهل بلدتنا استرخاصًا لأسعار الماكينات الجديدة أو استثقالاً لظلنا.

بتنا ـ أمي وأنا ـ في وضع مؤسف. نصرف من الفلوس التي أهداها خالي عبد الودود لأمي. وعمي العمدة لم يعد يعطيني أي فلوس. وأنا في شدة الحرج من مطالبته، يكفي أن أرى ما هو فيه من فقر وتعاسة. إن نصيبي من محاصيل القطن تبقى في حوزته باعتباره الوصي الرسمي علي بما أنني لم أكن بلغت سن الرشد بعد يوم مات أبي، يحتفظ به أمانة ويعطيني منه بالقسطاس ما يكفي مصاريفي ونفقات تعليمي في الجامعة التي دخلتها قبل رحيل أبي مباشرة. في العادة لم يكن ذلك يشغلني، حيث كانت أمي هي التي تعرف حسابي لدى عمي العمدة بالمليم محصولا بعد محصول، تكتبه ليس في نوتة فحسب بل في رأسها

دفعة بعد دفعة، مبلغ كذا يوم شراء البدلة، كذا يوم سحب الأوراق، أقساط الكلية والمدينة الجامعية.. إلخ. المضحك أنني وقد بلغت سن الرشد ولم أعد في حاجة إلى وصي لم أجد ما أطالب به من مدخرات. ولكن عزائي أن حالي وأمي كان أسعد بكثير من حال عمي وعمي.

غير أن الوقت قد طال في انتظار تعييني في النيابة العامة التي تقدمت إليها مدعومًا بتفوقي الدراسي طوال سني الدراسة، كما أن الكثيرين من أساتذتي في كلية الحقوق ـ وهم من أصحاب الأوزان الثقيلة في تخصصاتهم وذوي نفوذ قوي في الدوائر القانونية ـ قد رشحوني للعمل في النيابة العامة ودفعوني للتقدم إليها فتقدمت. ولكن يبدو أن الفرص محتجزة بالفعل لأبناء أمثالهم من زملائهم كما يشاع وكما ألمحت إلى ذلك بعض الصحف.

ضقت بالبطالة، برتابة الحياة في البلدة، أوشكت على اليأس من حلم النيابة العامة، مللت الفراغ والراحة، أجهزت على كل الكتب الأدبية التي جئت بها معي من الإسكندرية بل قرأتها أكثر من مرة. ليس في البلدة من يهوى القراءة لعلي أجد عنده ما يصلح للتبادل. حتى السفر إلى كفر الشيخ ودسوق بين أسبوع وآخر لدخول السينما والتجول بين المقاهي مللته هو الآخر لتكرار المناظر والوقائع كأنها نسخ بالكربون. لم يبق في الذهن شيء يميز شيئًا عن الآخر، يومًا عن يوم، جولة عن جولة، مقهى عن مقهى، حتى الأفلام السينمائية الجديدة رأيتها من قبل عشرات المرات في مئات الأفلام وإن بوجوه أخرى وأسماء أخرى لا تضيف حتى مذاقًا جديدًا أو إحساسًا جديدًا. بدأت الكآبة تقلبني من حالة نفسية رديئة إلى حالة أكثر رداءة وتدنيا. كانت أمي هي المرآة، أنظر في وجهها فأرى نفسي على الحالة التي أكون

عليها، مضافًا إليها ما ينبعث من قلب أمي من حزن وأسى على ما أنا فيه من ضيق وملل يصل في كثير من الأحيان إلى ضجر وعصبية وقلة صبر واستعجال لكل شيء بالشخط وبالصراخ أحيانًا. لم تكن تملك إلا أن تطرح صدرها العريض كالملاءة فوقي فأغيب فيه برهة طويلة يغلبني فيها البكاء، الشيء الوحيد الذي يزعجها ويثير اشمئزازها واحتقارها. ما أن أحس برعشة الرفض والانزعاج من بكائي تنفذ منها إلى أوصالي حتى أشعر بالندم فأكف عن البكاء شاعرًا بالخجل كأني ارتكبت عملا فاضحًا، فأنفيه باستقطاب البسمة والتعلق بها.

في حالة الضياع تلك، فاجأنا «جودة» ابن عمي عابد، قادمًا من السعودية. كان يعمل هناك مهندسًا زراعيًا لمدة تزيد على عشرين عامًا تحول خلالها إلى مليونير، يرتدي الجلباب الأبيض القصير يطلق لحيته، لكن لا بأس عنده من ارتداء البنطلون الجينز والـ تي شيرت الملون. الزي الإسلامي في نظره ليس يمنع من الكچولة الأمريكية والرطانة الإنجليزية باللهجة الأمريكية الضاربة في سقف الحلق عن غطرسة النفخة الكدابة التي أكرهها كراهية شديدة. ولا بد أن يضع في حديثه معك ـ بمناسبة أو بدون ـ جملا اعتراضية بين قوسين ينبهك فيها إلى أنه متزوج من أمريكية ولهذا انطبعت إنجليزيته بلهجة الأمريكان، ويعدك ـ بمناسبة أو بدون ـ أنه سوف يعرفك عليها لكي تعرف هي أن له عزوة محترمة في بلدته إلا أن ذلك لن يحدث حتى ينتهي بعون الله من ترميم الڤيلّا التي اشتراها في كفر الشيخ ثم يستدعي المدام المقيمة الآن مؤقتًا عند أهلها في ولاية فلوريدا الأمريكية. وإلى ذلك فهو مولع بإطلاق أسماء عياله الأربعة على أي مشروع يفكر فيه مريم وچانيت وفيصل وفهد.

زارني جودة ابن عمي في قاعتنا بالدار القديمة بعد أسبوع من مجيئه إلى البلد. جاء ليقدم لي ـ كما قال ـ خدمة العمر؛ ثم عرض مشروعه في حضرة أمي وعمي عابد وابنيه جمال وعبد المعبود الطبيب البيطري المقيم في طنطا، وهو مختلف عن أخيه جودة في المظهر إذ لا يرتدي سوى الملابس الكاچوال على طول الخط صيفًا وشتاء. المشروع عبارة عن مزرعة للدجاج، أرباحها تصل إلى خمسمائة في المائة إذا أسست بالشكل العلمي الذي يعرفه جيدًا، وإذا أديرت إدارة أمينة تكون شريكة في رأس المال حتى تخاف عليه. وقد فتش المهندس الزراعي جودة ابن عمي عن شريك سعيد الحظ فلم يجد أنسب مني، زيتنا في دقيقنا. فإن قبلت أن أكون شريكًا له في المشروع فإن المساهمة المطلوبة مني في رأس المال مجرد قطعة أرض زراعية بعيدة عن المساكن، هي على وجه التحديد القطعة التي يمكن أن تجيء من نصيبي إذا ما تم تقسيم أرضنا علينا. فبمجرد موافقتي سيتم تقسيم الأرض بالفعل ـ الذي سيتم بطبيعة الحال عما قريب ـ وكل واحد يصبح حرًا في نصيبه يزرعه بمعرفته أو يؤجره لمزارع فلاح أو يبيعه أو حتى يبوره. وبما أننا أهل في أهل، فسيراعى عند التقسيم أن تجيء القطعة التي من نصيبي ضمن المساحة القريبة من الطريق الزراعي لتسهيل العمل في المزرعة. وفي مقابل قطعة الأرض هذه سيقوم هو ببناء المزرعة وتجهيزها بكافة المعدات والأدوات والفراريج وكل شيء، كل ذلك على نفقته هو، يعني أنا بالأرض فحسب، وهو بالعلم والخبرة والمادة. ويستطيع المشروع أن يستفيد مني في الإدارة ـ تحت إشرافه العلمي طبعًا ـ نظير مرتب شهري خارج الأرباح؛ يعني أكون مسئولا عن الحسابات ومباشرة العمل في المزرعة ليتفرغ هو للتسويق والتطوير وما إلى ذلك.

أمي وافقت على المشروع في الحال. كانت تريد أن تعرف دخلها من خرجها بأي شكل على أي نحو يكون، أن تستقل وابنها بملكية محددة، ويا حبذا لو دخلت في مشروع كهذا مضمون الربح فعلا. كذلك كانت - وربما كان هذا هو الدافع الأكبر وراء موافقتها - فرحة بأني أخيرًا سوف أجد عملا يستغرقني؛ ومن يدري؟ فلعلني أفلح في هذه السكة فأصير رجل أعمال ممن يسيطرون على الحكم ويقبضون على أمعاء البلد وأحشائها حتى باتوا هم الدولة والدولة هم. وعلى كل حال - تقول - إن جاءتني وكالة النيابة العامة فيا دار ما دخلك شر، أمسك بالوظيفة ويبقى المشروع شغالا بمدير آخر. خلاص يا أمي، على بركة الله.

السرعة التي تم بها تقسيم الأرض وتحديد الحدود وكتابة عقود وتسجيلها، أذهلتني؛ فحينما يتعلق الأمر بمصلحة ابن القابض على السلطة في العائلة فإن الأمور تمشي بسلاسة دونما أي مشكلة. وكانت مناسبة تاريخية عظيمة لأن يجيء خالي عبد الودود من طنطا بأوراقنا المدخرة لديه، فيمكث في ضيافتنا ثلاثة أيام أشرف خلالها على عملية التقسيم برمتها. نجح خالي عبد الودود القصبي في تخليصي من قبضتهم إلى حد كبير جدًا، فتم - بالمرة - تقسيم العقارات، فآلت إليّ ملكية الدار التي أعيش وأمي في قاعة منها، بأكملها، في مقابل استغنائي عن نصيبي في ماكينتي الطحين والمياه؛ على أن ينقدني عمي العمدة ما في ذمته لي من نصيبي في محاصيل قطن سابقة احتفظ بها بصفته الوصي الرسمي عليّ قبل بلوغي سن الرشد.

***

سرعان ما بنيت المزرعة. كان نصيبي من الأرض فدانين، بنيت المزرعة على مساحة كبيرة جدًّا، ربع فدان، وأنقذني خالي عبد الودود من الحيرة في فلاحة المساحة المتبقية فاقترح زراعتها حديقة فواكه؛ إلا أن أمي اعترضت، واختارت أن تعهد بها إلى فلاح يزرعها ونقاسمه محصولها، ونضمن بذلك غذاءنا على طول المواسم الزراعية، وأحسنت اختيار فلاح ورع تعرفه جيدًا وتتعاطف مع عياله، فسلمناها إليه بموجب عقد حرره خالي قبل سفره بساعات قليلة.

كل شيء تم على ما يرام. كانت بالفعل شيئًا مفرحًا، بل مبهرًا. وكانت خطة الدعاية أن يأتي محافظ كفر الشيخ لافتتاحها مع نخبة من كبار المسئولين في المحافظة. وقد تقرر أن يكون ذلك عند بداية الإنتاج، مع أول طرحة للثمار، ويكون المهندس جودة قد انتهى من ترميم الڤيلّا، وأفاق من دوشتها لكي تكون زوجه حاضرة هي الأخرى في حفل الافتتاح. ما لبثت حتى وجدتني شعلة لهب مقتبسة من المهندس جودة. الانشغال الفعلي المثمر يستغرق الذهن والبدن. لم يعد صوت إسطاسية يمنعني من النوم. تصالحت أذني معه فاستطاع سلطان نوم المجهدين أن يذُبَّه عن مسمعي أثناء انغماري في زبدة النوم الشهية ساعة السحر. أصحو كل يوم مبكرًا. أصبح عندي دراجة بخارية خاصة بي من مالي الخاص أحببتها وزينتها، أركبها إلى المزرعة. أصبحت أختلط بحسابات ومراجعات ومرور على وحدات الإنتاج لمذاكرة الملاحظات التي دربني عليها المهندس جودة والدكتور عبد المعبود ابن عمي باعتباره بيطريًا، كانت العائلة تتعشم أن يشرف على مزرعة المواشي بدلا من عمي عابد؛ لكن لسوء حظنا وحظه أن وباء جنون البقر الوارد إلينا من بلاد الإنجليز كان سببًا مباشرًا في

تصفية المزرعة فلم تقم لها من بعد قائمة؛ فلما تخرج عبد المعبود ابن عمي لم يكن أمامه من فرصة للعمل إلا في سلخانة طنطا، فما صدق أن افتتحنا مزرعة للدواجن، فخصص لها زيارة أسبوعية كانت ذات فوائد شديدة الأهمية جعلتني أتجنب الكثير من الأخطار الصحية قبل حدوثها، سيمّا وأن المهندس جودة قد استمرأ الاعتماد عليه وانصرف هو بكل تركيزه إلى تشطيب الڤيلا ثم فرشها، مما اضطرنا إلى تأجيل الافتتاح الرسمي أكثر من مرة.

غير أننا لم نتقيد بالافتتاح بل بدأنا الإنتاج بالفعل على امتداد عام بأكمله أثبت الدكتور عبد المعبود خلاله كفاءة في التسويق والبيع وفي التحصين الصحي والتنظيف المعقم للأقفاص والمراقد وفي تحسين أنواع الأطعمة. بدأنا نشعر بنشوة النجاح، الأرباح بالفعل كثيرة إلا أن العمل شاق حقًا. وقد آلمني في نجاح المشروع أن الأمهات في بلدتنا أصبحن يستسهلن شراء الدجاج بدلا من وجع الدماغ في تربيته، فخلت الدور في البلدة ـ ومن بينها دارنا ـ من عشش الفراخ والبط والأرانب، اللهم إلا بعض ناس ممن لا يثقون إلا في دواجن من تربية أيديهم.

إلا أنني خلال ذاك العام الحافل بالشقاء وبالنجاح معًا قد تأكدت ـ وبشكل حاسم ـ من عدم قابليتي الشخصية لاستيعاب مفردات هذه الصناعة بله أن أكون من الناجحين فيها معتمدًا على إمكاناتي الذاتية. نعم هناك نسبة ربح لا بأس بها على الإطلاق لا يمكن أن توفرها حتى أكبر الوظائف في الدولة، وهي قابلة للزيادة في قابل الأيام بطبيعة الحال؛ ولكنها في المقابل يلزمها عناء بدني وذهني

لا أظنني قادرًا على تحملها لفترة طويلة. فإذا اعتبرنا أن عام التأسيس يتركز فيه الجهد بطبيعة الحال، يبقى أن طبيعتي الشخصية غير تجارية؛ نفسي لا تحب أن تشغل نفسها طويلا بمسائل المكسب والخسارة، وأحوال الأسواق، ولوثة الخوف على رأس المال من الانكماش بله الاضمحلال. شخصيتي غير مؤهلة لذلك، لن تقبل الوقوع في لوثة الحرص على جمع المال والخوف عليه. تلك حال تفقد الإنسان إنسانيته، تجعله، ربما في غفلة منه في أحسن النوايا، يضحي بكل شيء في سبيل إنقاذ ماله من الضياع؛ فمن أصبح صاحب مال يستحيل عليه العودة إلى الحياة الطبيعية بغير مال، ولسوف يضرب في كل اتجاه، في كل شيء، في كل قيمة، دفاعًا عن استمرارية في النمو بغير حساب إلى ما لا نهاية.

مرحبًا بأن أكون شريكًا في مزرعة للدواجن ناجحة، وبشكل مؤقت طبعًا. أما أن أكون مسئولا عن إدارتها فكلا وألف كلا بتعبير قدامى المحامين. إن استمراري في هذا العمل سيكون هدما متواصلا لشخصيتي التي بنيت على دراسة القانون نتيجة عشق للقانون؛ يعني في غضون خمس سنوات على الأكثر تكون عقليتي القانونية قد اضمحل وهجها وحلت محلها عقلية التكريس للبيع والشراء، بما سيجرانه - لا بد - من تحديات للقانون سافرة أو مستفزة؛ ناهيك عن أن جسدي قد بدأ يخشوشن، ومظهري قد بدأ يترهل، وقاموسي اللغوي قد بدأ يتلون بمفردات سوقية، وصوتي قد درب على الاحتداد والشخط بغير موجب أحيانًا، وَطبْعي نفسه قد طرأت عليه بقع سوداء غبراء، تضع أمي يديها عليها كل ليلة حيث تضبطني متلبسًا بالكذب، والإسراف في الحلفان بأغلظ الأيمان، والتشويح،

وفوق ذلك كارثة التدخين الذي أدمنته مع القهوة في مجالسة الزبائن مقتديا بالمهندس جودة ابن عمي الذي لا يغادر البايب حنكه فيظل قابضًا على مبسمه بأسنانه ليواصل الحديث فتخرج كلماته كأجنحة عصافير ترفرف وسط عواصف من الدخان الكثيف.

كانت أمي أسبق مني في الشعور بالفجيعة من هذه التغيرات التي طرأت على شخصيتي ومظهري. نظراتها المرورة تحدق في سلوكي متسائلة: أهذا هو الحيلة الذي حلمت بأن يكون وكيلا للنيابة وقاضيا أو محاميا مرموقًا مثل خاله عبد الودود القصبي؟! أيصبح هكذا عاملا خشنا يركب الدراجة ويرتدي البرنيطة والبنطلون الجينز والقميص الـ تي شيرت؟! أهذه يد أفندي محترم ابن مدارس أم يد أجير تشققت من طين الأرض؟! كانت تكاد تبكي من الفجيعة لكنها تكتم في نفسها. وكنت أشعر بها، وتفجعني فجيعتها؛ وقد استمرأتُ تجاهلها مغمورًا بحماستي للمشروع وإقبالي على العمل في حد ذاته باستمتاع كان يرضي مزاجي آنذاك. إلا أنني ـ وقد اكتمل عام من عمر المشروع ـ أصبحت على يقين من أن أمي في أعماقها رافضة لاستمراري فيه رفضًا قاطعًا، خاصة وأنها لم تكن تحلم بأن تنجب من الشيخ الإمام حامد البراوي رجل أعمال ينضم إلى هذه الطغمة من الفاسدين الذين ركبوا على صدر مصر فحكموها بالبلادة والطرمخة والاستهبال وصمموا على عدم تركها إلا بعد الانتهاء من بيعها بالجملة والقطاعي لكلاب السكك؛ إنما حلمتْ بأن تنجب قاضيًا ينشر العدل بين الناس مثلما كان أبوه ينادي ويفعل. لم يكن الشيخ في يوم من الأيام طالبًا للمال فكيف يطلع من صلبه من يتحول إلى عابد للمال كعمه عابد؟!.

قرأت كل هذا بوضوح في عينيْ أمي، وفي كلماتها القليلة التي تتبادلها معي؛ فبيتُّ النية على مفاوضة المهندس جودة في إعفائي من أي عمل إداري مهما كان مرتبه كبيرًا؛ فليبحث عن مدير إداري محترف، لأعود أنا إلى مهنتي الأصلية التي درستها وتفوقت فيها: القانون، في أي ساحة من ساحاته حسبما ترسو بي المقادير في بحارها الواسعة. صارحت أمي بهذا القرار لإدخال الطمأنينة إلى قلبها؛ فأضاء وجهها في الحال. وقد أفضيت بهذه النية إلى المهندس جودة وأقنعته بتأييد موقفي، فأقنعني بتأجيل الكلام في هذا الأمر إلى ما بعد الحفل خاصة أنه بات على الأبواب. كان يتعشم في أن أراجع نفسي خلال هذه الأيام القليلة القادمة. ونظرًا لانشغاله بالإعداد للحفل على أرقى مستوى لم أشأ إخباره بأنني قد اتفقت بالفعل مع أخيه عبد المعبود على أن يأخذ إجازة مفتوحة من وظيفته الحكومية ويتفرغ لإدارة المزرعة، وأن عبد المعبود سعيد بهذا العمل.

يوم الحفل كنا جميعًا في الڤيلّا من صبيحة ربنا، نرتع في الحديقة الجميلة، نلعب الطاولة والشطرنج، نشرب الشاي مرارًا والقهوة العربية تكرارًا. والمهندس جودة لا ينِي يتحرك ويتكلم ويعطي الأوامر المشددة في تجهم، ويلقي النكت الضاحكة في انبساط وانشراح، يذهب إلى المطبخ ليطمئن على كميات الطعام ومدى إتقانه وإبهاره، يشرف على تعديل مواقع الكراسي والأنتريهات المتعددة ليوسع دائرة كبيرة للوقوف وللرقص على أسطوانات تدار على جهاز إلكتروني رائق الصوت. كل ذلك وفنجان القهوة في يده لا يفرغ إلا ليمتلئ ولا يمتلئ إلا ليفرغ، والسيجار الكوبي يهبط إلى القداحة الذهبية ويرتفع مشتعلا في الدقيقة الواحدة عديدًا من

المرات، والحيوية تتدفق منه كشاب في العشرين يجهز لحفل عرسه؛ بل لقد قالها بالحرف:

ـ «الليلة هي ليلة زفافي الحقيقية! فأنا تزوجت امرأتي زواجًا ناشفًا كالطبيخ القرديحي! وقد أعطانا الله من وسع! وآن الأوان لعرسنا أن يقام! فالذي لا تعْلمونه أنني اخترت هذا اليوم بالذات لأنه عيد زواجنا السابع عشر!».

ثم لما اطمأن إلى أن كل شيء على ما يرام، جلس معنا في الحديقة. تناولنا غداءً فلاحيًّا من أطايب الذبيحة. ثم استأذن ليستريح في غرفته ولو لساعة واحدة حتى يقوى على استقبال المدعوين واستضافتهم كما ينبغي لضيوف من علية القوم.

غرفته كانت في الطابق الثالث والأخير بعيدة عن الصخب معزولة عن محيط العيال. ويبدو أنه استغرق في النوم بعمق، ففرحنا بذلك لشعورنا بمدى ما هو فيه من إرهاق. ظهرت حرمه الست مارجريت في الردهة الكبيرة، مرتدية فستان سهرة ينطق بالأناقة والأبهة وإن كان كل من عمي العمدة وعمي عابد قد امتعضا منه بشكل واضح لأنه عاري الظهر والكتفين فضلا عن أنه فوق الركبتين، وقد سرحت شعرها في فورمة اللافورمة، تركته منطرحًا يغطي ظهرها بجدائله الطويلة السخية، تتكوم مقدمته فوق جبينها كالتاج الملكي تنزل منه خصلة مقوسة تلامس طرف عينها اليسرى. إنها بالفعل جميلة ومحترمة بغض النظر عن الفستان وهو بالنسبة لها ولمجتمعها غير مستنكر على الإطلاق. رحبت بنا بابتسامة وهزة رأس، رطنت بالعامية المصرية: يا مرهبا أنتم سرفتم!.. فضحكنا جميعًا مسرورين من مرونة لسانها

وطرافة حروفنا عليه. قال لها عمي العمدة كأنه يكلم خادمته ست الدار:

ـ «مش تروحي تصحي الباشمهندس بقى؟ دي العشا خلاص حتِدَّنْ!.. هو خُمّ نوم ليه كده؟!».

فضحكنا مرة أخرى، وهزت مارجريت رأسها ونظرت إلى عمي العمدة ووجهها كله علامات استفهام باسمة. فانبرى عبد المعبود ابن عمي بإنجليزية متقنة فنقل لها ما قاله عمي العمدة. فضحكت هي بصوت عال ترددت أصداء رناته في أركان الردهة، وهزت رأسها في موافقة، مرددة: أوكي! أوكي! جود! ومشت إلى السلم المواجه العريض جدًا والدائر حول نفسه بثلاث ترسينات فوق بعضها بارزة كلها للجالس في الردهة. جعلت تصعد الدرج النائم في استرخاء. تابعناها بأعيننا حتى اختفت. انطلق صوت أذان العشاء، فقام عمي عابد ليؤم الصلاة في ركن مجاور للباب، فاصطف خلفه عمي العمدة وجمال وأخوه عبد المعبود. واتجهت أنا إلى دورة المياه كي أتوضأ لأني قد غفوت قليلا في قعدتي؛ فما كدت أقترب من دائرة السلم حتى هبط فوقي صوت خطوات مضطربة، يليه صوت الست مارجريت ينادي في اضطراب: مسيو همزة! مسيو همزة!. مضطربا بدوري نظرت إلى أعلى. فلوحت لي بذراعها أن اصعد وتعال.

صعدت إليها في الطابق الثالث. مشت أمامي وجسدها ينتفض. دفعت باب الغرفة مرددة بالإنجليزية: جودة لا يريد الاستيقاظ. كان الدكتور جودة نائمًا على ظهره مفتوح العينين كأنه يمزح بتدبير فصل ضاحك يفتتح به حفل الليلة. انحنيت عليه هززته برفق. جسده يهتز

تحت يدي. رفعت ذراعه، تحسست النبض في رسغه. النبض متوقف. تركت ذراعه، فتهاوى. قلبي يوشك أن يتوقف عن النبض. كان علي أن أعترف علنًا بأن المهندس جودة ابن عمي.. قد مات، صعدت روحه إلى بارئها، فكيف أعلن هذا على أبيه وأخويه وعمي العمدة؟ وعلى زوجه وعياله؟.....

لم أفق من الغيبوبة إلا بعد وقت طويل جدًا، فكأنني أبعث من جديد بعد أن قامت القيامة، لأجد نفسي على سرير في مستشفى، وحولي أمي وخالي عبد الودود وابنته راندا حبيبتي، وزوج خالي - سرعان ما عرفت أنني في مستشفى خاص بطنطا، وأن خالي عبد الودود جاء بمجرد تلقيه برقية أمي فنقلني من مستشفى كفر الشيخ إلى هذا المستشفى لأعالج من تأثير صدمة نفسية عنيفة. كانت المعزى قد فاتت؛ وكانت هذه التي أسماها الطبيب ببوادر ذبحة صدرية مبكرة تمنعني من تجديد الحزن أو حتى الاقتراب من عالمه، الآن على الأقل.

منتديات مكتبتنا

(٩)

الجـذر الحـي

كانت حوسة؛ الست مارجريت كانت أكثر مني تشاؤما من المشروع ومن البقاء في مصر كلها. فماذا تطلبين يا ست مارجريت؟ طلباتها في الواقع محددة؛ بيع نصيب زوجها في المزرعة، بيع الڤيلَّا لعدم قدرتها على البقاء ساعة واحدة، سوف تستبدلها بشقة في أي عمارة تكون مقرًّا ينزل فيها العيال كلما جاءوا لزيارة قبر أبيهم. موقفي أنا الآخر واضح ومحدد؛ لا أريد الاستمرار في العمل في المزرعة لا مديرًا ولا شريكًا. وإذن فعلينا معًا أن نبحث عن مشترٍ للمزرعة بمعداتها ببضاعتها بالأرض المقامة عليها.

سارعت بالاستنجاد بخالي عبد الودود القصبي، الذي بادر باستدعاء خبراء على نفقة المزرعة قاموا بفحصها وتثمينها بالأسعار الراهنة، حددوا لها مبلغا من المال لا يمكن النزول عنه. ونشرنا إعلانًا عن بيعها في الجرائد القومية الثلاث: الأهرام والأخبار والجمهورية. تقدم إلينا عدد كبير من أهل المهنة؛ ولكن جمال وعبد المعبود أبديا

الرغبة في الشراء. وكان خالي عبد الودود ميالا لهما في الواقع لكنه أخذ يناور ببعض الراغبين في الشراء ويظهر لهما أننا على وشك التعاقد بين لحظة وأخرى، بل اتفق مع أحدهم على أن يجيء ويمثل دور المشتري ومعه دفتر شيكاته؛ وكان هدفه من ذلك تسريب رسالة خفية إلى الأخوين بأن الدفع لا بد أن يكون فوريًا على الترابيزة وإلا فهناك من هو جاهز لذلك بالسعر الذي نريد؛ وذلك حتى يجنبني ما يمكن أن يقع بيني وبينهما من مشاكل ومنازعات بسبب الدفع؛ إذ إنه بنظره البعيد الثاقب توقع أنهما - اعتمادًا على أننا أهل في أهل - ينويان تخليص حق زوج أخيهما وتأجيل فلوسي لحين ميسرة. وقد نجح؛ أقنعهما بتسديد حسابي أنا وتأجيل زوج أخيهما حتى يتصرفا في تجميع المبلغ بقرض بنكي أو ببيع أو برهن أو بما يتيسر لهما من حلول. الجميل في خالي عبد الودود أنه وقد اطمأن على حقي لم يشأ مغادرة الجلسة دون أن يساعدهما في البحث عن حل سريع؛ انفرد بالست مارجريت لمدة نصف ساعة، أقنعها تمامًا بالتراجع عن فكرة البيع هذه المخربة، وأن خير ما تفعله أن تترك لعيالها في مصر مشروعًا استثماريًا ناجحًا ينفعهم ويربطهم بأهل أبيهم، وأن التفريط في الڤيلًا حماقة سوف تندم عليها مدى الحياة. اقتنعت الست مارجريت وشكرت خالي بحرارة. وهكذا قام بكتابة عقد جديد بين سلفيها وأولاد أخيهما على أن تكون هي وصية عليهم. يومها اكتشفت لماذا أصبح خالي عبد الودود القصبي من أشهر المحامين وأغلاهم سعرًا وأكثرهم مهابة، إنها قدرته الفائقة على استخدام المنطق في الوصول إلى هدفه المحدد من أقصر الطرق وأبسطها، ناهيك عن دماثته ولباقته ودفء حديثه الذي يقنعك لأول وهلة بأنه صديقك الحميم المخلص الذي يستحيل أن

يغشك أو يخدعك؛ ذلك أن جبلة الترفع والتعفف والكرم المبذول في وضوح وشفافية تنفي عنه شبهة السعي وراء مكسب رخيص أو غرض وضيع. لقد غادرهم وهم في قمة السعادة به وبما فعل.

صرت أحتكم فجأة على بضع مئات ألوف من الجنيهات. اصطحبني خالي إلى بنك مصر الذي يتعامل معه. فتح لي حسابا. أودعنا فيه المبلغ كوديعة يجب أن أنساها تمامًا كأن لم تكن. وأثناء عودتنا بسيارته إلى مكتبه قال بلهجة تقريرية حاسمة:

ـ «يجب أن تبدأ حياتك فقيرًا! نجاحك في مستقبلك مرهون بأن تبدأ حياتك من حيث لا تملك شيئًا على الإطلاق! هذه الوديعة هي جهود غيرك إلا قليلا!.. فأرني اليوم كيف تكون! ما الذي ستحققه من مكاسب أدبية؟ من مستوى اجتماعي لائق! من كيان مرموق على صدره شارة العدالة وفي أعماقه صفاء وفي قلبه شرف!.. أنت ابن أبيك والوشائج بيننا ليست في المصاهرة بل فيما هو أسبق وأهم من المصاهرة! كلانا تربى على قيم مصرية نبيلة جوهرها الضمير والشرف والأخلاق والوطنية!.. لا يغرنك ما تراه اليوم من انهيارات في كل شيء فإنها ظواهر مهما استفحلت مؤقتة! مرهونة بزوال الصغار الذين وثبوا على مواقع الكبار!.. مصر أكبر من حاكميها بكثير جدًّا وهذا هو الضمان الأكبر على أن الأمور لن تبقى هكذا طويلاً!.. إن الفساد يطول عمره كلما انسحب الشرفاء من الميادين وآثروا السلامة وتخاذلوا فيفسحون المجال للصغار التافهين البلطجية!».

ثم نظر لي بطرف عينيه نظرة جانبية محملة ببوادر اشمئزاز سرعان ما تقلص على شفتيه بما يشبه الصدمة. ارتبكت في محاولة لتفسيرها؛

لكنه حين مروح بيده أمام أنفه فطنت إلى أنني قد نسيت نفسي وأشعلت سيجارة، ففي الحال رميتها من النافذة إلى الشارع. فشهق في استنكار:

ـ «ما هذا الذي فعلت؟!».

ـ «رميتها!».

ـ «في الشارع؟!».

ـ «مكانها الطبيعي!».

ـ «غلط!.. مكانها الطبيعي هنا!».

وسحب درج المنفضة الخاصة بأعقاب السجائر:

ـ «يجب أن تدرك أن رمي السيجارة في الشارع هكذا كأنك رميت الناس بالنار! بجمرة لهب قد يرفعها الريح إلى بؤرة الخطر!».

ـ «متأسف جدًا يا خالي! أعدك بأن أتخلص مما بقي في سلوكي من همجية البراوية!».

ـ «هذا ما قصدت أن أقوله لك!».

ثم قال بعد برهة:

ـ «أنت الآن ستتمرن في مكتبي! من اليوم سأجهز لك مكتبًا بجواري!».

وقبل أن أرد بالموافقة أو بالرفض أضاف:

ـ «لعلك تقنع أمك بأن تبقى هنا لتعيش معنا!».

ـ «سأحاول! عند عودتنا للغداء في البيت سأكلمها أمامك!».

ـ «على كل حال أنا أوصيت زوجة خالك بإقناعها! وجودها في البلد لم يعد له أي معنى! لست آتمن البراوية عليها وهي وحدها وسطهم!.. لا أقصد عدوانًا بل إهمالاً! لن يسأل فيها أحد منهم إن هي تعبت لا قدر الله!.. ثم إن الشقة في بيت أخيها خالية، كانت مدخرة لأن يتزوج فيها خالد ابن خالك لكنه ربنا فتح عليه واستوطن أمريكا! أصبح أستاذًا كبيرًا في الاقتصاد السياسي! صار باسم الله ما شاء الله خبيرًا في الأمم المتحدة! متزوج من ألمانية! هما معًا يحملان الجنسية الأمريكية!.. وحتى لو فكر في العودة إلى مصر فلن تنفعه مثل هذه الشقة!.. فلتسكنها أنت وأمك! هي هدية مني لسكرتيرتي القديمة! بعض حقها الذي لم تطلبه في ميراث أبيها!».

ـ «أشكرك يا خا..».

ـ «احترم نفسك! تشكرني يعني إيه؟!.. تفضل انزل.. انتظرني في حجرة مكتبي نفسها!.. عندي اجتماع في النقابة لمدة ساعة وسأعود ربما قبل ذلك!».

شعرت وأنا أصعد إلى المكتب كأنني قد عدت إلى وطني. كنت بالفعل مزهوا فخورًا، مفعمًا بمشاعر متزاحمة تبعث الخدر في رأسي، تصبغ الدنيا بألوان زاهية مبهجة. لسوف يتكفل خالي عبد الودود بتمرير طلب حصولي على عضوية النقابة، ولسوف أدخل بالفعل في معمعة القانون، سأرى الحياة على حقيقتها في هذه القضايا المتلتلة فوق المكتب وعلى ترابيزة الاجتماعات، ملفات ملفات ملفات. رائحة الورق تصيبني بنشوة. المكتبة مهرجان من الدواليب من

خشب الموجنه ذات أبواب زجاجية، بزخارف أندلسية، مجلدات مجلدات مجلدات، قوانين قوانين قوانين. مجلة المحاماة مكومة مربوطة في انتظار الذهاب إلى التجليد. فوق الدواليب صور وتماثيل: سعد باشا زغلول، النحاس باشا، مصطفى مرعي، فتحي رضوان، جمال عبد الناصر، أم كلثوم، الإمام محمد عبده، السنهوري، طه حسين، سيد درويش، أحمد عرابي، نفرتيتي، إخناتون. كل هذه الصور والتماثيل في غرفة الأستاذ وحدها، ناهيك عن بقية الغرف والردهات والممرات، ثلاث شقق مفتوحة على بعضها موصولة بممرات، بعديد من الصالونات والأنتريهات والأركان المنزوية. أجهزة الكمبيوتر منتشرة بكثافة في كل الغرف. ففي المكتب فريق بأكمله من محامين راسخين يعتمد عليهم في مهام صعبة، وفريق آخر من محامين تحت التمرين من أمثالي يتعلمون من زملائهم الكبار أبجدية المهنة. أما الأستاذ فيرجع إليه للتصحيح أو للإفتاء أو للتوجيه والتلقين أحيانًا، ولتشريح القضايا الصعبة الميئوس منها حيث يقوم بما يشبه عمل الجراح النطاسي، يستأصل الأورام، يستقطب الدفوعات.

في طريقنا إلى البيت للغداء قال:

ـ «لعلك أخذت فكرة عامة عن المكتب!».

ـ «أحلم أن يكون لي مثله في يوم من الأيام!».

ـ «أتوقع أن يكون لك! ما دمت تحلم فسوف تفعل!».

أضاف بعد برهة:

ـ «جزء كبير من إصراري على تمرينك في مكتبي رغبتي في تجهيزك

لأن تكون محاميًا من طراز العمالقة الذين رأيت صورهم في مكتبي! هؤلاء صنعوا مجد المحاماة في مصر!.. وكانوا سياسيين بنفس قوتهم كمحامين! ثم..».

ولاذ بالصمت عندما أوقفته إشارة المرور الحمراء وكان يستطيع أن يخطفها كما فعل غيره دون أن يكون مخالفًا لكنه توقف ثم تقهقر بعيدًا عن الخط الذي كاد يتجاوزه قبل انتهاء اللون الأصفر. وبدا كأنه نسي ما كان يود قوله بـ: ثم. فلما انفتحت الإشارة واستأنف السير بقي صامتا. فسألته:

ـ «ثم ماذا؟».

ـ «ثم إن مكتبي لا وريث له بين عيالي! الولد الوحيد تجنس بالجنسية الأمريكية ولا أظنه سيعود بعد أن كبر وتألق هناك! إنه دارس للحقوق أيضًا لكنه عشق الاقتصاد السياسي وتبحر فيه واشتغل سنوات في البنك الدولي وأخيرًا عاد إلى الجامعة والأمم المتحدة معًا!.. البنت الكبيرة مروى متزوجة من مهندس زراعي وتقيم معه في هولندا!.. لم يبق إلا راندا وهي شخصية حالمة وغير عملية! يلزمها زوج رومانسي مليونير ينفق عليها كي تجلس طول النهار والليل تقرأ في الأدب وتسمع الموسيقى وتكتب مذكرات في مدونة خاصة بها على الإنترنت!.. بالمناسبة هل لك موقع أو إيميل؟!».

ـ «مع الأسف يا خالي! لم أدخل هذا العالم حتى الآن! لكني سأتعلم بسرعة! سأشتري لاب توب نقالي أتدرب عليه!».

ـ «منذ عشرين عامًا قال الصحفي الكبير أحمد بهاء الدين إن من

لا يجيد التعامل مع الكمبيوتر سيعتبر أميا جاهلاً حتى لو حصل على الدكتوراه في الأيام القليلة القادمة! اليوم تكاد مصانع الأقلام تغلق أبوابها!».

ـ «هذا مؤكد! سأمحو أميتي بأسرع مما تتخيل!».

بعد الغداء دخل خالي ليضطجع في غرفته. وانفردت أنا بأمي في غرفة الصالون وأغلقنا الباب علينا. نقلت إليها اقتراح خالي بأنه قد آن الأوان لنترك بلدتنا وتقيم معنا في هذه الشقة الواسعة التي تنتظرنا؛ فذلك يطمئن بالي عليها ويطمئن بالها عليّ طالما أني سأمكث هنا للتمرين في مكتب خالي. فإذا بملامح وجهها تزداد صلابة برغم رقتها ودقتها؛ وبلهجة حادة قاطعة:

ـ «ليكن في علمكما معًا أنت وخالك!.. لا راحة لي في الدنيا كلها إلا في الدار التي عشت فيها مع الشيخ حامد! إنه لم يمت إلا بالنسبة لكم! لكنه لا يزال يلتقيني وألتقيه كل يوم في دارنا!.. لن يهنأ لي نوم إلا في الفرشة التي كانت تضمنا في حضن واحد!.. إنني إلى اليوم لم أفرط في هدومه ولا الملاءات التي نام تحتها فكيف أفرط في الفراش وفي العائلة وفي الدار وفي البلدة كلها؟! هذا جنون!.. أكلما فكرت في زيارة قبر أبيك أصبح على سفر؟! لا.. خلِّك أنت هنا! إني مطمئنة عليك في أمانة خالك!.. تستطيع أن تزورني كل أسبوع مرة! كل شهر لو حكمت الظروف!.. اتركني أعود إلى صاحباتي ومرقد ذكرياتي!.. إني لا أزال أحب عائلة البراوي لأن الشيخ حامد كان منها! وإليها ينتسب ابني الوحيد!.. يعني لن أكرهها في يوم من الأيام.. لا أحب أن أعكر صفو حبي للشيخ! سوف يبقى اسم البراوي قرينا للشيخ

حامد البراوي! ولسوف تبقى أنت أيضًا أمينا على اسم البراوي.. أم أنك نسيت ما اتفقنا عليه ذات ليلة؟!.. أن تكون محاميًا أو قاضيًا يعني انتقال اسم عائلتك من عالم العوج واللبط إلى عالم محترم! وكلما اشتهرت وارتقيت يرتقي معك لقب العائلة فيزيح ما كان تحته من عفن!.. لن أكون لك أمًا! ولا يكون الشيخ لك أبًا إذا أنت اختصرت اسم البراوي في اسمك واشتهرت باسم حمزة حامد مثلاً! فكأنك ما اشتهرت ولن تسعدني شهرتك ولا مركزك مهما ارتقى بغير اسم البراوي!».

من الواضح أنها تخطط بقوة وإصرار للإبقاء على صلتي ببلدتي ومن ثم بعائلتي قائمة؛ فبما أني سأجيء إليها يوم الخميس من كل أسبوع وأغادرها صباح السبت فبالتالي سأبقى على اتصال دائم بالعائلة. إنها تخشى من الجفاء الذي يغلظ القسوة في القلوب؛ ثم إنها تؤمن بعقيدة راسخة كان يؤمن بها أبي وكل حكماء الشعب المصري: من فات قديمه تاه! واللي ما لوش قديم ما لوش جديد!.. «إن الإنسان يبقى أبد الدهر سويًا صافي القلب ناجحًا في مساعيه ما بقيت فروعه موصولة بجذوره الضاربة في الأرض؛ ولهذا يخطئ الإنسان خطيئة عمره حين يفكر في التنكر لأهله وفي الانسلاخ عنهم؛ يظل بقية عمره مشروخ النفس مهزوز الشخصية من فرط شعوره بالزيف في داخله».. تلك عبارات أبي بنصّها ماثلة في ذهني منذ الصباح المبكر؛ وما أكثر العبارات التي بقيت مطبوعة في ذاكرتي من خطبه ودروسه ونصائحه وتعليقاته وردوده على أسئلة الناس.

امتثلت لرأي أمي دون أدنى محاولة للضغط عليها. كنت مقتنعًا

تمام الاقتناع بوجهة نظرها. واتضح أن خالي كان يتوقع هذا واثقًا من حدوثه. فلما أفضيت إليه بما دار بيننا ابتسم في سماحة:

ـ «خلاص! حقها! اسكن أنت وحدك في الشقة المقابلة!.. الخادم سيتولى أمرك مما جميعه! لا تشغل بالك بأي شيء! ما عليك إلا أن تجيء فتأكل وتنام وتشوف شغلك بتركيز ورواقة!».

ثم إنه أخذها ونزل، تجول بها في مدينة طنطا، اشترى لها طائفة من الثياب، وزودها بعلب الحلوى والحمص لتفرق منه على من تشاء من أصدقائها، وصلى معها ركعتين في مسجد السيد البدوي، وسلمها لسائقه الخاص بالسيارة المرسيدس وأمره بتوصيلها حتى باب الدار.

منتديات مكتبتنا

(١٠)

الوقوع في الأسر

هنئت بالفعل في هذه الشقة التي كانت أشبه بمستودع للتحف الزائدة على الحاجة، والمقاعد والأطقم الكلاسيكية التي طردتها مظاهر الحداثة من بيت خالي ومكتبه مع أنها لا تزال تنطق بالأصالة وتقوى على مناطحة الزمن وتبقى جميلة مهيبة وإن كان بعضها ثقيلاً وضخمًا. لقد شعرت باتساق داخلي مع هذا الأثاث المتناغم برغم عدم تنسيقه؛ إذ هو مركون كيفما اتفق فى أماكن متحاضنة، هو الذي تحتاج كل قطعة منه إلى حيز متسع من حولها لتبرز شموخها وتفردها.

طابت لي الحياة تمامًا في البيت والمكتب. وكنت ألاحظ أنني في غاية الشوق دائمًا للعودة إلى البيت، وأتمنى أن لو طالت فترة الغداء أو العشاء لكي أستمتع برؤية راندا والجلوس معها، واستقطاب حديثها الطلي. لقد زال عني أثر الصدمة الأولى من تحررها في اختيار الأزياء على ذوق أجنبي صرف صادم لتحفظاتنا الشرقية؛ فسرعان ما اتضح لي أنها كائن إنساني بمعنى الكلمة، في غاية من

الرقة والنقاء، والطهر والبراءة، والاستيعاب الجيد للفنون كافة. العجيب أنها إلى ذلك ست بيت ممتازة، تعرف من فنون الطبخ وأصناف المأكولات ما يجعل من كتاب أبله نظيرة سجلا بدائيًا لمأكولات خشنة غير شهية غير صحية، ولا أدري متى ولا ممن تعلمت هذه الفنون. حين أنصت إليها وهي تشرح لي موسيقى الدانوب الأزرق أو إحدى السيمفونيات الشهيرة أو معزوفات الإيطالي بجانيني على آلة الكمان ـ ولديها شرائط وأسطوانات كثيرة له ـ أو تحلل أبعاد لوحة تشكيلية لسلفادور دالي أو بيكاسو أو فان جوخ ـ ولديها كتالوجات كثيرة تضم صورًا فخمة من هذه اللوحات ـ أو تدلني على ما وراء تجاعيد وجه سعد زغلول في تمثال محمود مختار من مشاعر بعينها شخصها أزميل النحات. حين أسمع وأرى كل هذا أشعر بأني أطير في الهواء محلقًا فوق أسوار جنة من جنات الخلد. إنها كائن أرقى من الشهوة الجنسية وإن بدت فيها فاتنة الإشعاع مثل المطربة فيروز، يتلخص فيها ـ باختصار دقيق مذهل ـ شموخ الفتنة، شموخ يحجِّمك ويفرض عليك احترامه وتبجيل صنع الله فيه.

بات شغلي الشاغل أن أعرف رأيها فيَّ. أقصد، ما إذا كانت تتباسط معي هكذا لأنها أحبتني؟ وهل أحبتني لصفات ومقومات ذاتية استأهلت حبها؟ أم أنها تتباسط معي لا أزيد ولا أقل بحكم صلة القرابة القريبة؟ أحيانًا يهتف بي هاتف في صدري بأن هذا موضوع سابق لأوانه. لكن الشهور تمضي وأنا غارق في حبها لدرجة تعجزني عن الطفو فوق السطح لأستبصر ماذا يمكن أن يكون هذا الحب وإلى أي مصير سوف يقودني. ثم إنها هي التي استغرقتني تمامًا، لم

تترك بيننا فرصة للغو الكلام، أو للشطط.. كل لحظة من لحظاتي معها كانت قرينة لفن الموسيقى بما هي زمن ملآن بجوهر ما؛ إن تخللته هنيهات صمت موضوعي ذي دلالة في سياق الجوهر سياق اللحظة. نعم، فحتى هنيهات الصمت بيننا تكون ملآنة بحركة للمعاني والمشاعر داخل النفس تقتضي صمت اللسان، ولا تقبل أن يتطفل عليها موضوع من خارجها؛ سرعان ما تلفظه اللحظة في التو كأن لم يكن، حيث النفس مكتفية بما هي فيه مستمتعة بما هو أرقى من أي شغل آخر.

قمعت في نفسي كل هاتف يحرضني على فتح موضوع الحب في حضرتها، سيطر على فؤادي خاطر مبهج راح يغبطني على هاتيك اللحظات التي أعيشها في حضرة راندا، وراح يسخر من فلوحيتي الريفية الخشنة قائلاً: إن لم يكن ما أنت فيه هو الحب في أسمى حالاته وأعمق معانيه فماذا يكون معنى الحب الذي تتصوره أنت يا مغفل! يا من لا تفهم الضرب إلا بالمسوقة الغليظة ولا تفهم الحب إلا بالثرثرة الفارغة وترديد عبارات مرعوشة مكذوبة بالضرورة لأنها أشبه بصيغ الخطب المنبرية القديمة التي كانت تطبع في كتب وتباع في المكتبات ليشتريها كل إمام مسجد جاهل خامل البديهة بلا قريحة، لينقش منها الخطبة المناسبة للمناسبة ثم يحفظها عن ظهر قلب أو يقرأها من الكتاب على المنبر، فهي في النهاية وعظ عام قيل فيه نفس الكلام مليارات المرات على امتداد القرون. وهكذا عبارات الحب والغرام المبثوثة في الأفلام والمسلسلات أصبحت لبانة على ألسنة من يتصورون أن هذا هو الغرام.

إنما الغرام الحق هو هذا الذي أصبحت أعيشه. إنه الجوهر الثمين للحب. فلا أظن مطلقًا أن الآنسة راندا.. يمكن أن تقضي معي كل هذه الساعات في محاورات واستماعات ومشاهدات في أريحية عظيمة دون أن يكون ذلك دليلا على التوافق والتماهي. ولكن السؤال هو: هل تقبلني راندا زوجا لها؟ صحيح أنني أفضل تأجيل الزواج حتى أستجمع الكثير من الخبرات العملية في سوق العمل لأبدأ مشروعي الخاص المستقل؛ إلا أن هذا السؤال سيبقى مطروحًا وبشكل يبعث على القلق.

ذهبت معهم إلى المصيف في الساحل الشمالي؛ فكثرت فرص الانفراد بخالي على الشاطئ. وفي إحدى الخلوات، وهو جالس على الكرسي المشمع تحت الشمسية مرتديًا المايوه فحسب، والفوطة مطروحة على كتفيه فكانت تفاصيل جسده قبيحة منفرة، طيات لحم فوق بعضها مع نتوءات كالقرع العسلي في الجنبين، كل ذلك تحت شعر غزير يغطي الصدر والبطن والساعدين والساقين فبدا لي نسخة من جدنا القرد بعد مرحلة الوقوف على قدمين. كان قد نحى الجريدة لتوه في سأم، وفي ضجر تركها للريح تعصف بها وتفصصها في ضجيج حتى صارت كمناديل تتلوى في الهواء وتعلق بالشماسي؛ فيما كانت راندا منعزلة بعيدًا قرب حافة الماء مرتدية نظارتها السوداء الثمينة، منهمكة في قراءة رواية (أولاد حارتنا) لنجيب محفوظ ـ التي استعارتها مني ـ لتحسم رأيها فيما يثار حولها من ضجة، وكان المصيف في نظرها فرصة للاختلاء بها والإجهاز عليها؛ وقد رشقت في أذنيها سماعة الهاتف المحمول، فعرفت أنها تستمع إلى الموسيقى المبثوثة عليه من قنوات فضائية تشترك هي فيها من أجل هذا

الغرض وغيره من أغراض المعرفة الفورية لما يطرأ على العالم من أخبار وظواهر.

في تلك الخلوة وجدتني أقول لخالي:

ـ «ألم تفكر الآنسة راندا في الزواج يا خال؟».

رفع ذراعه كأنه يكلم القاضي في المحكمة:

ـ «هذا أمر تحدده هي!».

ـ «ألم يتقدم لها أحد؟».

ـ «زوجها! هي التي ستحدده وتختاره بنفسها!».

ـ «وهل اختارت؟».

ـ «لا أظنها تختار من ورائي! على الأقل ستبلغني!».

ـ «إنها حقًّا مشكلة!».

ـ «زواجها تقصد؟!».

ـ «راندا نفسها! من ستختاره تكون أمه دعت له في ليلة القدر!».

ابتسم. بدت في عينيه نظرة مختلجة بحرارة التعاطف. إنها نظرة أمي نفسها طبق الأصل، من نفس العينين الصافيتين. صمت هنيهة ثم قال بلهجة ذات معنى:

ـ «ألاحظ أنك ارتقيت بذوقك في اللبس!.. لم تكن من قبل تهتم بهارمونية الألوان! ولا بأربطة العنق الثمينة وماركات البدل والقمصان والأحذية!».

ثم غالب الابتسامة وغالبته على الحياء؛ ثم أضاف ـ كأنما ليريحني وينهي الموضوع:

ـ «هذا شيء جيد على كل حال!.. بشرة خير يعني!».

أسكرتني هذه العبارة. ليست هي نفسها التي أسكرتني، بل اللهجة الدافئة التي قيلت بها وما تحويه من تفاؤل بدا لي حقيقيًا صادقًا، لكأن خالي عبد الودود هو الآخر يتمنى لو أن ما في مخيلتي قد حدث.

منتديات مكتبتنا

(١١)

اللهم لا اعتراض

إن لم يكن هذا الذي تعاملني به الآنسة راندا هو الحب في أسمى مراتبه وأجلى معانيه فماذا يكون الحب إذن؟! بحق الله أهي أمي التي ولدتني؟! والله وطربة أبي ما شعرت بمثل هذا الدفء والحنان الصافيين إلا في حضن أمي وهما جبلتان أصيلتان فيها. لعل الجينات الوراثية قد أعطتها من أمي الكثير. إلا أن دفء أمي وحنانها محكومان بكثير من الضرورات والمحظورات التربوية التي تحجب صفاءهما في كثير من الأحيان، أو تعكره في أحيان أخرى بتجدد الأحزان وتداعي الهموم. أما صفاء راندا فغير محجوب بأي شيء على الإطلاق. فحينما كنت طالبًا كانت حقيبة سفري تعج بالهدوم الوسخة وأنا في طريقي إلى البلد لكي تغسلها أمي وتكويها قبل عودتي بها إلى المدينة الجامعية. اليوم وأنا مسافر إلى البلدة ـ من طنطا هذه المرة لا من الإسكندرية ـ لا أحمل أية حقائب؛ فثيابي كلها مغسولة مكوية مرتصة أو معلقة داخل دولاب فخم من طراز كلاسيكي نادر من أيام الباشوات. لا شيء معي سوى حافظة جلدية فيها بعض أغراض تضيق عنها جيوب

البدلة. مشهد الوداع يا له من ساحر، أضع عمري كله رهن إشارتها في سبيل أن تودعني هي كل صباح هذا الوداع الرقيق: تسبقني إلى الباب كإوزة طويلة الرقبة لا تني تنفض رأسها فيتناثر العطر رذاذًا غير مرئي؛ لأنه يخبئ في الأنف لا يبرحه؛ ظهرها العريان حتى قرب حزام البنطلون سامق كضفتي نهر يجري فيه ضوء الله عاكسًا على بشرتها القمحية بريق شفرة الطمي، جميل في صراحة مطلقة، بريء، لا يفترض وجود عيون ذئبية شرهة تعضعض فيه على البعد؛ ومع ذلك ـ ويا للعجب ـ فإنه يزيل عن العين صدمة العري بسرعة فائقة فكأن سترة سحرية نزلت عليه فسكبت على العري مهابة. لم يكن سفورها ذاك يزعجني أو يثير شهوتي الجنسية بقدر ما يثير فيّ الرغبة في الارتباط بها كقيمة إنسانية تؤكد إلى أي حد يستطيع الإنسان أن يكون جميلًا، ونبيلًا، وباعثًا للسعادة في قلوب الآخرين. أتوق إلى أن يكون وجودي في وجودها، ووجودها في وجودي. ها هي ذي تفتح الباب، تستدرك فتوقفني أمام مرآة الباب لتسوي ما اختل من شعري الغزير النافر دائمًا على الجبين، بيدها الرقيقة الموسيقية تنفض ما قد تركته السيجارة من رماد فوق صدري؛ تصافحني بحرارة، بيد تجري في عروقها الجدية، لكأنها تطبع على يدك طبعها المطبوع على كفّها فتقرأه مشاعرك فتدرك في الحال أنك تصافح سيدة مهيبة قادرة على ردعك إن أخطأت الفهم وأسأت الأدب؛ حتى قبلتها التي تقسمها على خدي تطبع على وجهي لفح وجهها فيشعر وجهي بالامتنان العظيم لهذه المنحة التي لا تقدر بمال؛ حتى صوتها فتافيت أنثى منثورة ملمومة في آن:

ـ «سلم على عمتي!.. اركب السوبر جيت أحسن!.. يا ريت تاخد

تاكسي مخصوص يكون أفضل وأشيك! من الباب للباب! وأقعد أنا هنا مطمئنة أنك مرتاح في السفر! أرجوك! أرجوك! أرجوك للمرة التالتة بلاش تاكل فراخ في البلد! ولا بط ولا وز ولا حمام! إياك!.. أنفلونزا الطيور مش هزار! حالات الموت كل يوم في العالم كله! والناس عندنا ولا حياة لمن تنادي!.. مساكين حيعملوا إيه؟ حياكلوا إيه يا حسرة؟ لكن ده موضوع تاني! يلا بالسلامة!».

تحب أن تطيل الوقوف معي ما أمكن؛ يسرها أن وجدت مستمعًا جيدًا، طيعا، متفقًا مع آرائها على طول الخط. لقد كررت نصائحها هذه مرات عديدة منذ أن تفاقم وباء أنفلونزا الطيور خاصة في بلدتنا. وقد فوجئت في زيارة خميسية قريبة بأن أمي تقوم بنشاط كبير بين نسوان بلدتنا ترشدهن إلى خطورة تربية الدواجن داخل البيوت، بيوت الفقراء الذين لم يتنازلوا عن تربيتها في بيوتهم لعدم اطمئنانهم أساسًا إلى ما تنتجه المزرعة. كان لأمي من الدلال على نسوان هذه البيوت ما يجعلها تحسن استغلاله جيدًا، تعطي نفسها الحق في التسلل إلى البيوت والتجسس على عشش الدجاج، فإن وجدتها صاخبة أتت بصاحبتها وبستفتها ووبختها، ثم تحرض عليها جيرانها الذين سيضيرهم الخطر قبل غيرهم. تظل بها حتى تسلم المرأة أمرها لله وتبلغ «الصحة» لتأتي وتعدم الدجاج بمعرفتها. جميلة أنت يا أمي، تجيدين ملء فراغك بما يفيد، لا بد لك من حضور ما بقيت فيك أنفاس تتردد. هذا دور أنت مفتونة به. النسخة النسائية من الشيخ حامد البراوي. لهذا رفضت البقاء في طنطا وعدت إلى المكان الذي تتألق فيه شخصيتك فتشعرين بوجودك. لقد فهمتك جيدًا يا أمي؛ أنت تريدين استكمال دور الشيخ حامد البراوي. هو كان حميًا لدى

كل الناس بدرجة اقترابه منهم واختلاطه؛ ولهذا كانوا يكنونه بأبي حمزة، وكان هو سعيدًا جدًا بهذه الكنية. أنت كذلك يا أمي ينادونك: أم حمزة، وما أسعدك طبعًا باللقب، لكأن اسم حمزة أصبح قرينًا للشيخ، للتقوى، للسهر في الخير لمصلحة العباد.

ولكن... أخ خ خ خ خ..

هذا ما لم أكن حسبت حسابه. يا ربي، كيف لم يخطر ببالي وأنا أتابع حملات المقاومة لوباء أنفلونزا الطيور أن الخطر قريب جدًا من دارنا، بل لعله في قلب دارنا؛ مزرعة الدواجن فوق أرضي؛ جمال وأخوه عبد المعبود شريكان فيها، وفيها يقيمان ليل نهار، ودور العائلة الثلاث لا تأكل دجاجا إلا من المزرعة؛ فهل يا ترى توقفوا بعد انتشار الوباء أم ركبوا رءوسهم واستمروا يأكلون دجاجًا من المزرعة؟

يوم ذاك الخميس مرت بي سيارة الأجرة ـ التي انفردت بها وحدي من طنطا ـ على الطريق الزراعي الجديد الذي اكتمل مؤخرًا وأصبح يخترق قلب بلدتنا ليتصل بطريق مصر إسكندرية الزراعي. عندئذ انتبهت إلى المزرعة المقامة فوق أرضي السابقة والتي شاركت في تأسيسها، فإذا هي كثيبة خرساء ملوثة الجدران والنوافذ بهباب أسود لعله من بقايا حريق. نشع الماء لا يزال يرطب الجدران والأرض. انقبض قلبي من منظرها البشع. ما أن دخلت البلدة حتى دهمني حزن غامض راح يمشي معي في الشوارع صامتًا مكتفيا بنفسه. صليل عربة الإسعاف شق السكون بهدير مرعب. الكلاب راقدة في انكسار. ريح الخريف تملأ الجو بالغبار والقمامة المتطايرة. صليل عربة الإسعاف يبتعد ليقترب من جهة أخرى. رافقني الحزن حتى باب دارنا، حاسبت السائق في تعجل واضطراب وتوجس.

دفعت باب الدار الموارب. نساء في ثياب سوداء متربعات في الردهة على حصائر ومساند. ما أن دلفت عليهن حتى اندلع الصوات في وجهي، صار كبمب الأطفال يفرقع من كل اتجاه. لقد تكرر المشهد بحذافيره. مرقت داخلا إلى القاعة؛ فمرقت أمي ورائي في الحال. ارتمت على الكنبة ثم استدركت فقامت وأغلقت باب القاعة وعادت بظهرها إلى الكنبة فتهالكت على حرفها. كان وجهها الشاحب كبرتقالة تعصر نفسها دموعا كنت أشعر بلسعها فوق خدي أنا:

- «اللهم لا نسألك رد القضاء بل..».

قاطعتني من قلب يتقطع:

- «القضا حصل وخلاص! جمال ابن عمك تعيش أنت! أول امبارح نقلوه مستشفى المركز! إمبارح الصبح استلمنا جثته!.. ده تالت واحد يموت في مركز بلدنا!.. الدور والباقي على عبد المعبود! ودوه المستشفى النهاردة ربنا يستر عليه!».

انهمرت دموعي. تدهورت فوق الكنبة أنظر إليها ضارعًا في طلب التفاصيل. قالت إن المركب إن قادها رئيسان تغرق لا محالة، وقد نشب الخلاف بين الأخوين كل منهما يشكك في ذمة الآخر ويسعى إلى إبعاده عن الإدارة لينفرد وحده بكل شيء. كل يوم والثاني خناقة وتهديد بفض الشركة، وكل واحد يتهم الآخر بأنه السبب في تدهور الحال وتحقيق الخسارة. قالت امرأة عمي عابد إن عين الحسود قد اخترقت ولديها، وذهبت بنفسها في السيارة الفولفو لتقوم بتبخير المزرعة والولدين وتقرأ على من حسدهما عدية يس. ونظرًا لسوء

نيتهم جميعًا طارت بصة نار من منقد البخور سقطت في كومة قش خلف الجدار فيما هي - امرأة عمي - ماشية بالمنقد تلف به حول المزرعة وسحب الدخان تعمي عينيها. في تلك اللحظة كان خفير المزرعة - الذي ينام ويجلس فوق كومة القش هذه - قد شرب زردة الشاي وترك البوتاجاز النقالي وعدة الشاي في مطرحه ومضى لبعض شأنه، فسرعان ما هبت النار وكأن البوتاجاز قد ناداها فلبت نداءه وعانقته فانفجر فقامت قيامة الحريق. ربنا ستر، والفضل لصوات امرأة عمي التي تسببت في الحريق وتسببت أيضًا في إطفائه؛ فعلى صوتها الرنان، هرعت البلدة بأكملها فكافحت النار بالمياه وحاصرتها ومنعتها من الدخول. واقتنع الشقيقان بأن عدم صفاء النفوس يجلب الخراب؛ فتصافيا، وقاما بترميم ما احترق وما تدهور؛ ولكن العمل ما كاد ينتظم في المزرعة حتى جاءت هذه اللعينة المسماة بأنفلونزا الطيور، ورفض جمال بمخه الناشف أن يعدم الفراخ الدائخة فكان يذبحها ويعرضها للبيع ويجد من يشتريها. وسبحان الله، نجا من أكلوها وشبطت العدوى فيمن باعها لهم فمات نيابة عنهم، شف حكمة ربنا؟..

هكذا اختتمت حديثها وتمخطت في منديل ورقي. وهكذا تهاويت بجوارها ساندا رأسي بين يدي، وجسدي كله يرتج وينتفض كأنني أبكي لسنوات طويلة قادمة.

(١٢)

عائلتي ونظرية البدلة المقلوبة

كُتب الحداد على دارنا منذ رحيل أبي على وجه التحديد؛ ولكن الحداد الذي فرضته إسطاسية على بلدتنا كان لا يزال هو الأوضح والأعمق تأثيرًا في جميع النفوس. الحزن في بلدتنا لا يفرق بين مسلم ومسيحي، قبطي وعربي. الحزن وشيجة مصرية صرفة تجمع بين كل من شربوا وأكلوا من نيل مصر الفياض؛ وهذا التأثر الشديد في أهل بلدتنا بنواح إسطاسية واستنزالها اللعنات على قاتل ولدها دليل على عمق الروابط الوجدانية والعقيدية. إنه مظهر ليقينهم بأن الله سبحانه وتعالى لا يفرق بين أحد وأحد من عباده، ليس ينحاز لمسلم ضد مسيحي. وهو أيضًا دليل على أن المصريين المسلمين شديدو الثقة في الأقباط كقاعدة وطنية أساسية قبل نزول الأديان السماوية أيام كان آباؤهم وأجدادهم يعبِّدون الطريق للروح كي تصبح مؤهلة لتلقي ظهور الخالق الأعظم الذي شرع يرضى شيئًا فشيئًا عن عياله الأرضيين من خلال أنبيائه ورسله إلى أن ظهر خاتم النبيين وآخر المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، فوضع

الإسلام دستورًا للعلاقات الطيبة بين ذوي الكتب السماوية من سلالة ملة إبراهيم عليه السلام؛ وباتت العلاقة بين القبط المسيحيين والقبط المسلمين والعرب الوافدين علاقة أخوة فريدة، وضع اللسان الشعبي المصري قاعدة شعبية لها ملخصة في عبارة واحدة: لكل واحد نبي يصلي عليه.. فليس غريبًا إذن أن تحزن بلدتنا كلها لحزن إسطاسية.

غير أنه ليفزعني أن تحدث لعائلتي كل هذه الكوارث باضطراد سريع الإيقاع فلا يبدو أن أحدًا من أهل البلدة قد تأثر حقيقة؛ حتى عزاؤهم لنا مجرد أداء واجب يخلو تمامًا من الدفء والحرارة، كأن ما يحدث لنا أمر طبيعي!.. هل اعتادوا ذلك بالنسبة لنا في السنين الأخيرة؟ أم أننا أصبحنا عائلة بغيضة مكروهة من أهل البلدة؛ ولهذا يأخذون منا موقف التشفي؟ وإذا كنت أستشعر في أهل بلدتنا حبًا حقيقيًا صادقًا لشخصي أستطيع الجزم به وتأكيده بعشرات الأدلة الملموسة لي ولأمي؛ فهل تراني بقادر على إرجاع الهيبة لاسم عائلتي على أرض من الحب والمودة كما تحلم أمي؟! إن الأمر يبدو لي محض سراب، فلقد سقط اسم العائلة وليس ثمة من أمل في رفعه من جديد، اللهم إلا أن أفعل مع اسم عائلتنا ما كان يفعله راضي أفندي مدرسنا في مدرسة البلدة الإلزامية حينما كان يذهب إلى الخياط ببدلته القديمة ليفكها ويقلبها على الوجه الداخلي الذي حمته البطانة من الصدأ؛ فكان الخياط ينجح في إعادة حياكتها على الوجه الآخر فإذا هي تبدو جديدة زاهية ذات رونق تنبعث منها رائحة القماش الصوف الجديد، لكنها ـ للأسف ـ تبقى فيها عاهة مستديمة تثبت أن القديم لا يكون جديدًا تمامًا أبدًا؛ ذلك أن جيب الصدر في «الچاكت» يكون دائمًا في الجانب

الأيسر، فحين تنقلب البدلة على وجهها الآخر تنتقل فتحة الجيب إلى الجانب الأيمن فيتم إغلاقها بالرفا، لتبقى مثل شارة للفضيحة كل من يراها يعرف في الحال أن البدلة مقلوبة وليست جديدة.

فهل من الممكن أن أطبق على عائلتي فكرة البدلة المقلوبة؟! إن العديد من العاهات ستبقى آثارها ـ بعد إذ نفلح في علاجها كما هو مفترض ـ تشوه وجـه العائلة لأجيال قادمة.. فأي سراب هذا الذي تتشبثين به يا أمي؟!..

أفضيت بهواجسي وخواطري هذه للآنسة راندا. كنت في ضيافتها كعادتي مساء كل يوم حيث نستمع إلى جديد من الموسيقى ومن الغناء المصري القديم الذي نطرب له من أولاد فرقة الموسيقى العربية وفرقة أم كلثوم وأبناء سليم سحاب؛ أو نتكلم فيما قرأت، فيما سمعت، فيما شاهدت، أو نتفرج على فيلم أجنبي على جهاز الڤيديو كاسيت. وفي نهاية السهرة أنتقل إلى الشقة المقابلة التي أقيم فيها بمفردي لكي أنام؛ لتوقظني هي في باكورة الصباح برنات على تليفوني المحمول، فأعرف أن السفرجي قد جهز لي الفطور.

كنا في مساء الأربعاء ليلتذاك. وكان من المفترض أن أخلد للنوم قبل منتصف الليل بما أني على سفر إلى بلدتنا في صباح الخميس. ولما كنت أنسى نفسي عند جلوسي مع راندا فقد نبهتني وهي تدس الشريط في جهاز الڤيديو:

ـ «عارفة إنك لازم تنام الليلة بدري لكن الفيلم صغير!

مائة وعشرون دقيقة! ينتهي قبل ميعاد نومك!».

لكني فاجأتها بقولي:

ـ «سئمت من السفر! والبلد كئيبة! يسيطر عليّ إحساسي بأن دارنا هي مصدر الكآبة أكثر من دار إسطاسية وإن كانت دار إسطاسية هي الممثل الرسمي للحداد في بلدتنا منذ حوالي خمس سنوات تقريبًا!».

وقبل أن أصير بدوري مصدرًا للكآبة تداركت إلى الجانب الفكاهي في المأساة: حكيت لها حلم أمي الذي أراه سرابًا فيما يختص بمسألة تنظيف اسم العائلة على يدي العبد لله كأن أمي تفترض أنني عنترة بن شداد. فإذا بعينيْ راندا تتسعان، تفحان بريقًا جنونيًّا لم أره في عينيها من قبل. خيل إلي أنه بريق السخرية الحادة من سراب أمي المضحك؛ لكنني فوجئت بالآنسة راندا تطفئ جهاز الفيديو ثم تنتفض واقفة وقد اعترتها حماسة كأنها ستقود مظاهرة؛ ضمت السبابة على الإبهام في شكل دائري وراحت تشوح بيدها شاهرة أصابعها الثلاثة هاتفة:

ـ «وشرف ماما.. عمتي دي أعظم إنسانة شفتها في حياتي!».

ـ «تسخرين طبعًا!».

ـ «فشر! إني فخورة بها! يا سلام يا عمتي! الآن فهمت لماذا يُكن أبي لها كل هذا الحب والتقدير! لو كان الود وده لكتب لها كل ميراثه! وعلى كل حال فـ.. فـ.. لا داعي لأن أقول لك ما الذي ينوي بابا أن يفعله ليكافئ به عمتي!».

ـ «فهمت ماذا؟».

ـ «تأكدت أن عمتي هي صانعة أبي.. باختصار! رغم أنه أخوها الأكبر!».

- «كسبنا صلاة النبي!».

- «قبل أن تسخر! عمتي لها جذر ضارب في تاريخ عائلة بابا! يعني هذه صفة متكررة في نسائها ذات الأصول المصرية القديمة وريثة النساء القويات أمثال حتشبسوت وكليوباترا!.. تخيل يا حمزة أن عائلتنا على اتساعها في محافظة الغربية وكفر الشيخ لم تنجب شخصًا واحدًا فاشلاً أو خائبًا أو شريرًا أو تافهًا؟».

- «أية صفة هذه المتكررة في عائلة بابا؟».

- «عمتي صانعة رجال وليست بقرة ولودا! مربية أحلام! مُرضعة أخلاق!.. هل تأخذ بالك يا حمزة من تعبيرات أولاد البلد عن الماعون الطاهر والماعون النجس؟ أهالينا القدامى شعراء بالسليقة يا حمزة! يرمزون للمرأة بالماعون! إذا كان نظيفًا فلن يتلوث الجنين!.. عمتي هذه ممن يوصفن بالماعون الطاهر! توضع البذرة في رحمها فتتحول إلى كائن إنساني لا تشوبه شائبة من جهالة أو عقد نفسية!.. أنت طبعًا تعلم أن الجين الوراثي ليس يسجل الصفات الشكلية فحسب! بل يسجل ما ينطبع في نفوس الأجيال من عطب نتيجة عقد نفسية وقهر للأم أثناء الحمل!».

- «أنتِ فيلسوفة أيضًا! أشعر أمامك بالضآلة!».

- «وإذن فلست تكون ابنًا لعمتي!.. إن عمتي لا تنْجب شخصًا يشعر بالضآلة أمام أي أحد كائنًا من كان! لكني أفهمك جيدًا.. أنت لست ضعيفًا ولا جبانًا ولن تكون لأن بذرتك ليست هكذا ولا الماعون الذي احتواك معطوبًا!.. المشكلة في غاية البساطة يا حمزة!

لكنها في غاية التعقيد أيضًا!.. مشكلتك هي مشكلة الابن الأوحد لأبوين يعتزان بالخلفة لكنهما لم يرزقا منها إلا بواحد!.. غصبا عنهما أحاطاك بالخوف.. بالإفراط في الرعاية في مقابل أن تجتهد وتنجح في الحياة!.. وأنت من جانبك ركزت على المذاكرة فأحرزت النجاح الدراسي بتفوق! هذا جميل طبعًا ويحسب لك! لكنك ـ يا حلو ـ لم تدرب على المواجهات الصعبة لتكتشف فيها إمكاناتك الذاتية!.. على فكرة يا حمزة.. أنا متأكدة أن جوانياتك عمرانة بالنور والحب وفيها استعدادات كبيرة جدًّا لإحراز النجاح المبهر! لكن لعدم تدريبك على المواجهات وفك عقد المشاكل أصبحت أية مهمة ولو بسيطة تبدو لك مهولة محاطة بالغيوم! بالتعبير البلدي: تغرق في شبر مَيه!».

ثم تمهلت قليلا وفي عينيها غمزة أفصحت بوضوح عن أنها تعمد إلى استفزازي لمعرفة مدى حدودي الانفعالية ثم استدركت:

ـ «سراب ماذا يا أستاذ هذا الذي تتحدث عنه؟! دعني أقلد أبي في المرافعة: السراب عندك أنت وحدك! أما حلم عمتي فإنه منتهى العقل والحكمة! إنه أقل ما يجب أن تحلم به أنت! لا بل أقل ما يجب أن تفعله في حياتك! هو على فكرة أبسط مما تتخيل يا حمزة: أن تنظف اسم عائلتك من الوحل! وتعيد إليها هيبتها كما تقول عمتي! هذه يا حمزة ليست مهمة ثقيلة يكلفك بها أحد لكي يكون من حقك أن تراجعه في صعوبة تنفيذها! لا يا حمزة! أفق يا حمزة بجد أنا لست أمزح! إن هذه المهمة هي الأولى والأخيرة وليس في حياتك.. في مستقبلك مهمة أهم منها؛ أن تثبت للدنيا كلها أن عائلة البراوي أنجبت رجلا فاضلا ناجحًا خدومًا تكون قد أثبتَّ نفسك يا حمزة!.. أن تكون حمزة حامد

فحسب بدون لقب البراوي فلن يكون لنجاحك أي معنى! ستكون قد اشتريت دماغك ونفسك وحققت حياة هنيئة لشخصك لكنك ـ اسمح لي وإني لآسفة ـ تكون مجرد خنزير يمتلك جاهًا وثروة!».

لم يزعجني التشبيه على الإطلاق؛ فأنا أمام كائن ينطبق عليه ـ بكل دقة ـ الوصف الشعبي الشائع: شاي على ميه بيضا، ومعناه أن يُرى الشاي والسكر في الكوب الزجاجي تحت المياه البيضاء فيضمن بذلك عدم غليه أو غشه. الآنسة راندا إنسان «على ميه بيضا»، كل شيء في داخلها يمكن رؤيته بسهولة لفرط نقائها الإنساني. لم أنزعج بل ضحكت حينما سبقتني هي إلى معالجة تهورها في الوصف بضحكة خجلة ومتحدية للحرج في آن معًا؛ ثم ما لبثت حتى استدركت:

ـ «عمتي يا حمزة تحفزك على النجاح النبيل! وليس مجرد النجاح الشخصي!».

ـ «تركت أمًا في البلدة فوهبني الله أمًا جديدة هنا!».

ـ «كنت كسلانًا عن السفر؟!».

ـ «سئمت من حالة الحداد المستقرة في دارنا!».

ـ «لا تسأم!.. السأم مرض خلِّي بالك!».

ـ «لكن الإنسان من حقه أن يسأم!».

ـ «يسأم سأمًا جزئيًا في لحظة في لحظات ماشي، إنما يستسلم للسأم سيقوده السأم إلى كره الحياة كلها ورفضها!.. أي رجل يريد النجاح في حياته لا بد أن يتحصن ضد السأم! يطيل باله على كل شيء! يتفهم كل شيء! ومتى تفهمه يزول السأم تلقائيًا! يذوب في محاولات

التفهم!.. وعلى فكرة يا حمزة! السأم في نهاية الأمر غباء!.. الإنسان يسأم حين يعجز عن الفهم! حين يتوقف إدراكه عند حدود معينة يتجاوزها الواقع بالطول وبالعرض وبالعمق!.. شغل مخك يا حمزة! لهلبه! وسع صدرك.. عمّره بالناس وبالثقافة والفنون! افتح قلبك للحياة!.. قم الآن ونم ملء جفنيك على حقيقة موثوق منها يجب أن تظل ماثلة في ناظريك لأنها هي التي ستستدرجك إلى نوم مليء بالطمأنينة! حقيقة تقول: غدًا تشرق شمس جديدة بكل تأكيد!».

يخرب بيتك يا راندا، والله ما كنت أتصور أن يكون عقلك بهذا الرجحان. نفسك أيضًا كبيرة؛ إنك بالفعل صورة من أمي حديثة بمعنى الكلمة؛ أنت أمي بنصها وقد تثقفت وتفتحت على الفنون والآداب والعلوم.

كلام الآنسة راندا كان متوافقًا تمامًا مع قناعاتي وإن كانت هي بحكم موهبتها وثقافتها أبرع مني في التعبير عن نفسي، مما يؤكد لي أنها قد نفذت إلى داخلي وفهمتني جيدًا ؛ لقد غسلتني من الداخل، دعكتني بالليفة والصابونة فإذا بي كطفل وليد حممته أمه بماء دافئ فاستغرق في النوم. فعلا لقد نمت في تلك الليلة ـ ربما لأول مرة في هذه الشقة ـ بعمق يقارب الغيبوبة. لم أتقلب، وحينما سحبتني رنات المحمول الملحاحة من عمق سحيق بقيت قاعدًا على حافة السرير برهة لا أدري فيها من أنا وفي أي مكان.

في طريقي إلى موقف السيارات رأيتني مفعمًا بمشاعر طازجة، برغبة في التحدي، في الاشتباك الحميم مع الناس حتى ولو في كرة القدم أو في نانسي عجرم وهيفاء. قررت الرجوع عن تأجير سيارة

من الباب للباب، وأن أسافر في الأتوبيس مع خلق الله، ومن المركز أركب التوك توك إلى بلدتنا.

كانت المغامرة شاقة، لكنني استيقظت فيها على حقيقة كنت من قبل ملما بها؛ لكنها بدت لي يومذاك اكتشافا عظيمًا؛ ذلك الدفء العظيم الذي أحاطني به كل من ركبوا معي من أهل بلدتنا. ما كل هذا الاحترام؟ آخر ما كنت أتصوره أن يتنازل أكثر من واحد عن مقعده في التوك توك لكي أجلس على راحتي ويجلس هو كيفما اتفق، وأن يرفض الولد السائق أن يتقاضى مني أجرة التوصيلة إلا بعد إلحاح شديد، وحينما تركت له بقية الورقة أم عشرة جنيهات على سبيل الإكرامية جرى ورائي ليرد لي الباقي بالمليم قائلا:

- «يا حمزة بيه إحنا حصل لنا الشرف بركوبك معانا! وكمان عايزنا ناخد فلوس؟!».

حقًا ما أجمل أن يحبك الناس، وأن يظهر حبهم هكذا بدون غرض أو نفاق. كان من الواضح الجلي أنهم يقدرون أبي الشيخ حامد في شخصي.. لحظتئذ تمنيت أن أبقى هكذا قريبًا جدًا من الناس. بهذه الجرعة الإنسانية الدافئة المنعشة دخلت دارنا بعد أذان الظهر بقليل.

(١٣)

قنبلة أدهم أبو ستيت

كانت أمي في انتظاري. ثمة شيء فيها قد تغير؛ زالت الإشراقة عن وجهها الذي كان على الدوام صبوحا مفعما بالأمل مضيئًا بالإيمان. الحزن الطويل الدفين أصاب ملامحها بالضمور، فتكونت أقواس رمادية اللون حول عينيها الجميلتين اللتين جفتا من طول البكاء. فزعت من منظرها، سألتها بقلب واجف:

ـ «إياك أن تقولي إن عبد المعبود ابن عمي مات هو الآخر في المستشفى!».

بصعوبة خرج صوتها الواهن:

ـ «عبد المعبود ربنا نجاه! لكن..».

ـ «تكلمي!».

انفجرت في البكاء بعمق وحُرقة، والألم يقبض على وجهها، يعجنه، يعصره دموعا غزيرة:

ـ «إن الله غاضب على هذه العائلة! لا تفسير عندي غير هذا..».

ـ «أرجوك! ماذا حدث؟!».

ـ «مقصوف الرقبة أدهم أبو ستيت!».

ـ «حكموا عليه بالإعدام؟ يستأهل!».

ـ «ليتهم أعدموه وخلصونا!».

ـ «ماذا إذن؟!».

ـ «اعترف!».

ـ «اعترف بماذا؟ على من؟!».

المقدس عازر صبحي رجل أريب! ومحاميه شاطر!

ضم القضيتين: قضية مقتل محفوظ غطاس وقضية مقتل رشاد أبو ستيت ومقتل العروسين على يد رشاد أبو ستيت!.. اتضح أن البندقية التي ضربت رشاد أبو ستيت هي نفسها التي ضربت محفوظ غطاس وهي نفسها التي ضربت العروس ليلة زفافها!.. البندقيتان المضبوطتان واحدة كانت لرشاد والثانية لأدهم! بندقيتان توءمتان يعني من نفس النوع والرصاصات هي هي في الجرائم الثلاث!..».

ـ «يا ربي! هل اعترف أدهم أبو ستيت بأنه قاتل محفوظ غطاس؟!».

ـ «لأ طبعا! لم يعترف!».

ـ «بماذا اعترف إذن يا أمي؟!».

ـ «اعترف بأن البندقيتين المضبوطتين هدية له ولرشاد من العمدة عواد البراوي!».

ـ «أبُ بُ بُ بُ ووووووه!».

كادت خبطة يدي على جبهتي تدوخني. عِيلَ صبري، أوشكت أن أشق هدومي من الغيظ والكمد؛ أكاد أتصور أنها مؤامرة كونية. فهذا الاعتراف لو ثبت فلن ينجو عمي عواد من السجن بأي حال من الأحوال..

ـ «ليتهم يكتفون بفصله من العمودية!».

ـ «ليتهم يضربوننا جميعا بالرصاص لنستريح!».

ـ «استرجل شوية!».

ـ «متأسف!».

ـ «شف ماذا تستطيع أن تفعله للوقوف جنب عمك في هذه المصيبة الكبرى التي غطت ووطت!».

ـ «وماذا في يدي بحق الله؟!».

ـ «هذا ما كنت أخافه طول عمري: أن أنجب رجلا يقف أمامي عاجزًا!».

ـ «إني عاجز بالفعل يا أم حمزة! في هذه السكة عاجز!».

ـ «غدًا تأخذني إلى خالك في طنطا! سأتفاوض معه! إني واثقة أنه سيجد للعمدة مخرجا! سيجد لنا كلنا! لا بد أن تعرف يا حمزة أن حبس العمدة يعني هدمنا جميعًا وبيعنا أنقاضًا!».

ـ «أين عمي الآن؟».

ـ «في داره طبعا! في سريره! تأكل لقمتك وتذهب إليه تأخذ وتعطي معه في الكلام! شف ماذا يطلبه منك بالضبط! إن كان عندك نصيحة نوره بها!».

ـ «حاضر يا أم حمزة! نؤجل الأكل الآن! بأي نفس وبأي شهية أمضغ الطعام؟! إني ذاهب!».

خرجت من الباب الداخلي للدهليز؛ عبرت الفناء الواسع غير المسقوف إلى دار عمي عواد. لمحتني طفلة من عيال عمار ابن عمي المسجون فهرولت مسرعة إلى الداخل تعلن خبر وصولي. فما أن حودت من المنعطف إلى بوابة الدار المطلة على الحديقة حتى رأيت الحاجة حفيظة زوج عمي العمدة واقفة في العتبة في انتظاري. كان منظرها مثيرا للرثاء: زكيبة ضخمة من اللحم المتكوم فوق بعضه طيات طيات مترهلة متهدلة، منصوبة على عكازين، بواسطتهما تزحف قدماها على الأرض، كل قدم في ضخامة فخذ تمثال رمسيس الثاني، وقد تحول عنقها إلى مخدات يرقد فوقها رأس خرجت ملامحه عن الأحجام الإنسانية فقربتها من وجه البقرة إلا أنها بيضاء مسكينة مهيضة فزعة العينين متشككة في كل ظل تتحفز للانقضاض على من تتصور أنه خطف ولديها من حضنها دون أن تدري.

كانت تبذل جهدا مضنيا لكي تعتقل العفاريت التي تتنطط على وجهها لعلها تقوى على الابتسام للترحيب بي. فتحت ذراعيها والعكازان يتدليان منها،سدت الباب تماما. أرادت أن تميل نحوي لاحتضاني، فانكب لحمها الثقيل كله فوقي، فهزني حتى كدت

أتهاوى على ظهري من تحتها. تساندت على صدغ الباب. قبلتها في خديها، قبلت يدها. بكيت حتى عجزت عن الكلام. فلما اعتدلت هي على العكازين لكي تستدير موسعة طريقا لي، سألتها:

ـ «عمي فوق؟».

ـ «فوق! ولكن تعال! أحب أن تشرب الشاي معي قبل أن تطلع إليه!».

ثم همست في أذني:

ـ «عندي كلام أحببت أن آخد رأيك فيه لعل وعسى يكون فيه ما لن تسمعه من عمك العمدة!.. عندي إحساس بأنك مبروك مثل أبيك وسنجد إن شاء الله الفرج على يديك! خذوا فالكم من عيالكم! ونويت لله نية خالصة أن أفضفض معك بكل ما في صدري!».

ثم التفتت صائحة في دهاليز الدار:

ـ «براد شاي يا بنت على البوتاجاز بسرعة!».

أدخلتني حجرة المسافرين المغلقة دائما على صالونها المعد لكبار الضيوف والأغراب. دخلت ورائي بصعوبة وأغلقت الباب من الداخل بالأكرة.

(و)

فتق في الحجاب الحاجز

«سبحان من نفخ في صورتي وقدرني على الوقوف لملاقاتك يا حمزة!.. والله يا ولدي ـ قرِّب أذنك مني ـ إني غارقة في بحر بلا برور، والدنيا من حواليَّ ظلام في ظلام. السبب في المصايب كلها هو عمك عابد..

عمك عواد العمدة، عدم المؤاخذة يعني أقولها ورزقي على الله، شرابة خُرج.. إنه ليس يشتغل عمدة في الحكومة.. لا.. إنه يشتغل عند عمك عابد. هذه هي الحقيقة باختصار؛ وإنها لتصيب قلبي بالعطب، تذلني، تجعلني أمام امرأة عمك عابد لا صفة لي ولا شخصية.. العمدة لا يأخذ برأيي ويأخذ برأيها هي.. إنها تدلق في دماغ عمك عابد ما تشاء من كلام في أي موضوع، وعمك عابد يدلقه في أذن عمك العمدة.. وعمك العمدة لا يرد له كلمة، ولا الضالين آمين..

الله يرحم الشيخ حامد، هو الذي جعل من عمك عواد عمدة بحق وحقيق، ومن دارنا دار عمودية محترمة، ولكنه سبحانه وتعالى

استخسره فينا فطلبه ليبقى بجواره، حماه من وساخة عمك عابد الذي كان سيطغى سيطغى، وطغيانه هو الذي أصاب المرحوم الشيخ بالسكتة القلبية؛ ولهذا فإن الله سينتقم منه كمان وكمان، هو لسه شاف حاجة؟ إن ما يحدث له قليل، ولكننا ضعنا تحت قدميه..

شف يا حمزة يا ابن الغالي.. الحكاية وما فيها.. سأجيء لك بالحكاية من جذرها، ففي الجذر دائما تتجمع الأسرار، وفي القعر ترقد الأشياء الثقيلة، فإن شفنا ما في الجذر وما في القعر فلربما ألهمنا الله الفهم وهدانا إلى الصواب..

عمك عابد أيام كان متوليا شئون مشروع مكنة الطحين خدعنا كلنا.. فالأرض التي قامت فوقها المكنة ـ ومن ورائها مزرعة المواشي ـ كانت فى الأصل من أملاك المعلم جرجس غطاس زوج إسطاسية وأبو محفوظ.. تعرف هذا أم لا؟ أظنك لا تعرف.. على كل حال هى حدوتة طويلة.. دعني أجيء لك بها من الجذر، فتحمَّلني من أجل خاطر عمك العمدة وخاطري وخاطر عيالي المحبوسين ظلما وعدوانا كما شفت بعينيك يومها.

الحكاية أن أباك يرحمه الله وجعه قلبه على نسوان الدار وهن يحملن قفف القمح على رءوسهن لطحنها في البندر على بُعد خمسين كيلو مترًا في صحبة الرجال بالركايب، وأشفق على عيالنا حين يتأخرون لأنصاف الليالي فنخرج بالفوانيس نبحث عنهم في السكك.. ففكر في شراء مكنة طحين تخدم بلدتنا والبلاد المجاورة لها.. كلهم فرحوا بالمشروع، لكن ظهرت لهم مشكلة: في أي مكان يبنون للمكنة بيتها الذي ستشتغل فيه؟.. أرضنا واسعة كما تعرف لكنها بعيدة يعني

سيكون المشوار هو هو.. والشيخ حامد رفض البناء في الجنينة حيث إن صوت المكنة سيزلزل الأرض من تحتنا وصافرتها المتواصلة كأنها زغد في أجناب النيام.. هذه المشكلة هددت بصرف النظر عن المشروع، لكن عمك عابد لم يسكت، اتجه نظره إلى أرض جارنا المعلم جرجس غطاس أبو محفوظ.. أرضه مفصولة عن جنينة البراوية بترعة القصاصين.. العلاقة بيننا طول عمرها سمن على عسل..

لكن عمك عابد نابه أزرق، والأكادة أنه دائما يصف المعلم جرجس غطاس بأنه عضمة زرقاء، شف الافترا.. كان يعرف أن المعلم جرجس لا يستفيد من فدان الأرض القريب منا ومن الطريق، فهذا الفدان كان يستأجره رجل غلبان أنت تعرفه: المرحوم طاهر أبو مِعزية حسرة عليه، وحداني، يعيش على ذراعه، يعول أمه وزوجته وأربعة صغار يا حبة عيني، يزرع الزرعة فتفلح مرة وتبور مرات، أصله يا ولداه ضعيف ولا هيبة له، فالناس يخرّمون من الأرض لقربها من طريقين وهي مثل الوصلة بينهما بدلا من لفة طويلة، بوروا نصفها فسرحت فيها المواشي والغنم المطلوقة.. المعلم جرجس غطاس لا يقدر على طرد أبو معزية لأن القانون ـ كما تعرف اسم الله عليك ـ يمنعه حيث كان مستأجر الأرض يتأبد فيها مدى الحياة..

عمك عابد أزرق الناب احتال على المعلم جرجس، قال له:

ـ تحب أن أخلصك من أبو معزية وأرجع لك أرضك؟

قال المعلم جرجس:

ـ تكون خدمتني خدمة العمر ولك الحلاوة الكبيرة!

قال أزرق الناب:

ـ بعها لي وأنا أطلعه منها بالقوة!

اندهش المعلم جرجس:

ـ كيف أبيعها لك! وكيف تردها لي؟!

قال أزرق الناب:

ـ بيعًا صوريًا يعني! مجرد ورقة تكتبها على أنها عقد بيع ابتدائي! كده وكده! ولما أطرده من الأرض وهذا سيحدث بإذن الله أعطيك أرضك وورقتك وتعطيني الحلاوة التي تقول عليها!

المعلم جرجس هو الآخر ألعبان، الناس تنظر إليه باعتباره من مدمني الخمر، وشكله مستهتر ومهزار ومتهور في كل شيء.. وهو يعرف أن هذه هي صورته في نظر الناس فيسوق فيها ليستفيد منها، يفعل ما يشاء ويقول ما يشاء فإن أساء قال: يا عم أنا باهزر! أنا كنت باعمل فصل يضحك هو أنت مش عارفني ولا إيه؟ وإن أصاب تكون الجرأة أفادته في مصلحته.. هو وعمك عابد أصدقاء طول عمرهما، يفهمان بعضهما جيدًا، والواحد منهما يبلع الزلط للآخر، وكل منهما يعرف عن الآخر من الأسرار ما يشيب من هوله الأطفال، وياما طرمخ عليه عمك عابد في أفعال جنونية، وتستر عليه في فضائح كانت تهدد بخراب بيته لو عرفتها إسطاسية، إنه خلبوص وذيله نجس مثل عمك عابد بالضبط.. وقد فكر المعلم جرجس واقتنع بأن تقع الخناقة حول أرضه بين مسلم ومسلم ويبقى هو بعيدًا إلى أن يتمكن

المسلم القوي من طرد المسلم الضعيف من أرضه وبعد ذلك يحلها الحلاَّل.. كتب له ورقة صورية وشخبط عليها أي شخبطة على أنها توقيعه، وبدون تاريخ ولا شهود.. والناب الأزرق يعرف أنها مجرد ورقة ومجرد شخبطة، ولا تنفع ولا تشفع لكنها مجرد خيال مآتة يهدد ويخوف به.. وكذب على أبيك الشيخ وعلينا جميعًا حين قال إنه اتفق مع المعلم جرجس على أن يكون فدان الأرض هذا مقابل أن يكون شريكًا لنا في مكنة الطحين وفي مضرب الأرز.. ولم يُكذب خبرًا، فمن صبيحة ربنا بعث الخفير فجاءه بطاهر أبو معزية إلى الدوار. قال له:

ـ يا طاهر يا بو معزية أنا اشتريت الأرض من المعلم جرجس غطاس وهذا هو العقد!

قال أبو معزية:

ـ وما المطلوب مني الآن؟

ـ تتركها وتمشي!

ـ كده بالساهل؟

عمك عنيف، لم يأخذ الرجل بالسياسة، لم يتركه للشيخ يراضيه بقرشين على سبيل التعويض، لا، إنما:

ـ حتطلع ورجلك فوق رقبتك النهارده قبل بكره! وملعون أبوك وأبو اللي جابوك ونفضوك!

أبو معزية يا ولداه شاف الهوان نازلاً عليه كالمطر؛ فصار يلف حول نفسه كالمجنون يجعر:

ـ اللي يقرب من الأرض حاقطع رقبته بالفاس!

وطلع يجري إلى داره. جمع عياله وزوجته وأمه والبطاطين والمخدات، ولمبة الجاز والوابور والحلتين والطاسة، ونصب عشة في قلب الأرض قعد فيها مع عياله، والفأس قرب يديه. يوم يومان سبعة أيام، عشرة عشرون ثلاثون يوما. تركوه في مطرحه إلى أن انتهوا من التخطيط وشراء المونة. جاء الطوب والأسمنت. جاء العمال ففحتوا، رموا الأساس، بنوا.. وأبو معزية مخه ناشف هو الآخر داهية تلعنه، وعمك أزرق الناب قلبه زلطة، أوصى العمال بأن يدهسوه إذا تعرض لهم، أن يدفنوه تحت الأساسات.. والرجل يا حبة عيني يبكي من كل عين حِفَانًا، يرى الجدران تحوطه وترتفع، وامرأته تذهب إلى الدار وتعود في اليوم مائة مرة تدبر الأكل والشرب وغسل الهدوم. في هذا الوقت كان الشيخ يا حبة عيني قد ثقل عليه المرض فجأة حتى أقعده الدار لا يغادرها إلا مسنودًا على أكتاف الرجال المتمسكين به في خطبة الجمعة فيلقيها بصوت واهن لا يكاد يسمعه أحد سوى المحيطين بالمنبر، وقيل إنه مرض السكر، ثم قيل إنه الضغط، ثم قيل بل تصلب في الشرايين، وأخيرًا اتضح أنه الكبد الوبائي الذي قضى على صحة الشيخ بواسطة الأطباء الذين عالجوا فيه كل الأمراض التي سمعنا عنها إلا المرض المدفون في بطنه من إصابة قديمة لم يعالج منها هي البلهاريسيا كما قال آخر طبيب لجأنا إليه في قصر العيني..

امرأة أبو معزية ذهبت إليه في الدار وهو راقد في فرشته تجيئه الأخبار كل يوم بأن كل الأمور في العمل على ما يرام. الشيخ ركبه ستمائة عفريت، جاءته الصحة فجأة فقام قاعدًا ووقف على حيله

يطلب الركوبة.. حكت لي أمك ما جرى وهي منهارة من الخوف على الرجل، أمك صديقتي يا حمزة كما تعلم، أنا صديقتها الوحيدة بين البراوية، وهي تعرف كل أسراري ولا تخبئ عني شيئًا.. فلما دخلت عليّ مفجوعة تطلب الركوبة للشيخ قلت لها زغردي بدلا من أن تصوتي فالشيخ قام وهذا فأل حسن.. ووالله يا ولدي لو شفت الشيخ وهو ينط فوق الركوبة مدلدلا ساقيه لقلت إنه شاب في العشرين من عمره. لم ينتظر أحدًا يعاونه في المشوار، فساق الركوبة وحده مطوحًا ساقيه يستحثها على الجري بأقصى سرعتها. طبَّ عليهم في العشة، أخذ طاهر أبو معزية في حضنه وانفجر يبكي، ويربت على ظهور عياله وزوجته ويطلب منهم العفو والسماح، وينوب عنهم في الابتهال إلى الله بأن ينصرهم على من ظلمهم وشردهم هكذا، ولما رأى ذا الناب الأزرق واقفًا أمامه يتعجب مما يرى شخط فيه وأمره أن يختفي من تحت عينيه الآن وكل آن، ثم قال له على الملأ:

ـ إن سامحك الله وغفر لك لأنه غفور رحيم فإني سوف أعصيه لأول مرة في حياتي في أمر من الأمور! لن أسامحك ولن أغفر لك ما حييت يا عابد يا ابن أمي وأبي!

أخذ الشيخ طاهر أبو معزية تحت باطه وعاد به إلى الدار. وكان صوت المؤذن يدعو لصلاة المغرب؛ فتوكأ الشيخ على كتف طاهر إلى الجامع الكبير. فرح الناس بمجيئه، انتظموا وراءه في الصفوف وأدوا الصلاة بمزاج رائق وتمهل وتهجد يبعثه الشيخ في المصلين بصوته الدافئ وبطريقته في تلاوة القرآن حيث يقرأه مشروحًا بالصوت. بعد الصلاة طلب من المصلين البقاء لدقيقة، فاشرأبت أعناقهم جميعًا في

شغف لما سيقول.. فإذا به يحكي لهم ما فعله أخوه ذو الناب الأزرق في طاهر أبو معزية، واعتذر لطاهر وللجميع عما حدث، وسحب اللفة من جيب الصديري وقال:

ـ الاعتذار وحده لا يفيد ولا يعفي من الذنب! ولهذا وجب التعويض!.. ولهذا رجوتكم يا عباد الله أن تكونوا شهودًا على أنني أصلحت ما ارتكبه أخي من خطأ على قدر ما أعانني الله!.. فها أنذا أعطيه أمامكم خمسين جنيها بالتمام والكمال هي كل ما قدرت عليه من تعويض أدفعه من جيبي الخاص!

وسلمه الفلوس عدًا ونقدًا أمام الجميع. وجمع أبو معزية عزاله وعياله وعاد إلى داره محني الظهر مهدود الحيل.. ناموا يا ولداه كالقتلى في دارهم.. وحينما عادوا للحياة في ضحى اليوم التالي فتشوا عن المبلغ الذي قبضوه بالأمس نقدًا وعدًا أمام الناس، فلم يجدوه.. فعمك أزرق الناب لم يعجبه أن يقبض أبو معزية خلو رجل، فأرسل ولدًا من التملية يراقبه حتى اطمأن إلى استغراقهم في النوم، فدفع الباب فانفتح فدخل فأخذ ربطة الفلوس من سيالة جلباب طاهر المعلق في مسمار على الحائط.. كل الناس عرفت أنه الفاعل، فمن يجرؤ على فعل كهذا غيره؟! لص تحت حماية العمودية..

ماذا تتوقع يا حمزة يا ولدي من الرجل المظلوم؟.. أخذ يمشي في الشوارع يهذي، يصرخ ويلطم ويشق الهدوم ويحكي ما جرى له، لا يترك دارًا ولا مصطبة عليها ناس إلا ويقف أمامها يحكي ويبكي ويحض حتى يطق من أجنابه.. بقي على هذه الحال جمعة، لا يأكل ولا يشرب ولا ينام.. وبينما كان ماشيًا في ظلام الليل يهذي انطبش

في معجنة طوب في الشارع انكفأ فيها على بوزه فلم يقم.. شالوه روحوه، وفي الصبح دفنوه.. عياله اليوم يمسحون الجزم على محطة قطار المركز، ويكسحون المجاري..

نرجع مرجوعنا للمعلم جرجس غطاس، لما شاف ما يجري فوق أرضه من فحت وبناء، سأل صديقه الذي يسهر معه عند الغوازي في خمارة دفينة في مدينة دسوق يذهبان إليها يوم الخميس من كل جمعة بزعم زيارة الدسوقي أبو العينين، فصارحه صديقه بحكاية مكنة الطحين ومضرب الأرز، وبأنه اتفق مع إخوته على أن يدخل هو ـ المعلم جرجس ـ شريكًا بالنصف في رأس المال وفي الأرباح بالطبع.. استحسن أبو محفوظ الفكرة: سيجيء له إيراد يومي من المكنة والمضرب ينفق منه على خمره ومتعه وينغنغ زوجته وابنه، بدلاً من إيجار سنوي تافه لا يكلف غدوة.. أرض كانت معدومة بالنسبة له فأصبحت مورد رزق يومي فأهلا وسهلا ومرحبا.. ولما اشتغلت المكنة والمضرب واحلوت الإيرادات، وفرحت عزبة الحجر بما حصل لأهلها من راحة في الطحين، وافتخروا بأن عزبتهم شريكة بالنصف في أهم وأضخم مشروع في بلاد الناحية، نسي الجميع حكاية الأرض من أساسها، وكلما تذكرها المعلم جرجس ورأى الخير والرزق اليومي غير مقطوع ولا ممنوع يؤجل التفكير فيها خوفًا من أن يكون كالدبور الذي زن على خراب عشه..

حلو الكلام؟ طبعًا ليس حلوا ولا نيلة.. رب اقطعني، لكن لا تؤاخذني يا حمزة، إن الكلام جبال فوق صدري فلا بد أن تساعدني يا ولدي على تعتيقها لعلني أستطيع أن ألقط أنفاسي.. لا يغرنك هذا

التخن، إنه على فاشوش، إنه كلام كثير كالعلل، نفخت جسمي من كثرة ما شفته من عميك الاثنين وكتمته في بطني..

نجيء الآن لحدوتة المزرعة.. بناها عمك على ما تبقى من أرض المعلم جرجس، وتجبر، فأقام فوق الترعة قنطرة عريضة مثل الكوبري تربط أرض المكنة والمزرعة بأرض جنينتنا ومن تحتها تمر مياه الترعة إلى حال سبيلها.. وسيرة المزرعة تجيء بسيرة عبد العظيم عتمان.. عمك أزرق الناب يكرهه كره العمى، لو استطاع أن يقتله كل يوم مرة ما انتظر دقيقة واحدة.. قلبه الأسود كان يسعى للرجل في مصيبة يرميه فيها بأي شكل. حلفتك بالغالي يا حمزة أن لا تضجر مني، دعني أريك كيف باظت معاملتنا للناس ومعاملة الناس لنا، كيف أصبحت سيرتنا كوسخ الآذان على كل لسان بعد أن كانت لا تذكر إلا بالخير والاحترام. قل لي: لماذا كان عمك عابد يكره عبد العظيم عتمان كُره العمى ويسعى له في أي مصيبة تشيله من على وجه الدنيا؟.. سألتني لماذا؟ أقول لك، والله على ما أقول شهيد: وحق من حبس عيالي ظلما وعدوانًا بسبب جنون عمهم إن ما سأقوله لك الآن حصل.. كان عيالي يعرفون ويشوفون بأعينهم ولا يفتحون أفواههم حتى لا تقوم فتنة بين أعمامهم فتقع الفُرقة ويحل الخراب..

مزرعة المواشي كانت تخص العائلة، رسمالها فلوس العائلة، محصولها بالطبع يوضع في اليد الأمينة يد الشيخ يوزعها بالعدل على مصروفات الدار ولوازم عيالها فردًا فردًا.. ولكن عمك عابد لا يطيق العيش بدون خيانة، الأعوج أعوج، والموال لم يكذب حين قال: نهيتك ما انتهيت والطبع فيك غالب وديل الكلب ما ينعدل لو علقوا فيه

قالب.. متآخذنيش يا ابني.. راح عمك واتفق سرًّا مع عبد العظيم عثمان، بأن يسرق هو العجول الصغيرة ويهربها في زريبة عبد العظيم عثمان.. لا عمك العمدة ولا أبوك الشيخ يعرفان شيئًا عما يدور في المزرعة، هو وحده العليم بشئونها وعدد ما فيها من رءوس وما خرج منها ودخل إليها، وما نفق وما لحقوه بالسكين، وما انسرق منهم في السوق وما انضحك عليهم فيه، وما وما وما، فألاعيب عمك عابد لا تنتهي، وأبوك الشيخ الذي عودنا على عدم الكذب عودنا أيضًا على ألا نُكذب أحدًا إلا بالدليل، والبينة واليمين على من أنكر، فما بالك وهذا الأحد هو العم الأكبر؟..

قل باختصار إن عمك عابد اختلس عجولنا وكون مزرعة سرية خاصة به وحده في دار عبد العظيم عثمان الجزار، على أن يقوم عبد العظيم بالتسمين والتربية مقابل النصف من الإيراد.. كان بالطبع يهمل مزرعة العائلة ويخربها لصالح مزرعته السرية.. أنت تعرف طبعًا يا حمزة أن عبد العظيم عثمان لئيم، سوسة، يعرف أن عمك عابد يعطيه العجول سرقة من ورائنا، وبالطبع يعرف أنه لو سرق عمك فإن عمك لن يفتح فمه ولن يقول: بمْ، خوف الفضيحة طبعًا، لكنه أغراه، أعطاه الأمان لمدة طويلة، ما يذبحه عبد العظيم للبيع يذبحه وعمك يقبض إيراده في الكتمان، أو يذهبان إلى الأسواق على أساس أن كل واحد في حاله لا شأن له بالآخر، ويلتقيان هناك كأنها صدفة، ليتم البيع والقبض وكل منهما يذهب إلى حال سبيله، يدخل البلدة قبل أو بعد الآخر بوقت طويل.. فلما صارت الأشيا معدن توسع عمك في تهريب العجول، فيتوسع الخراب في مزرعتنا..

وذات يوم ذهب عمك عابد إلى سوق التلات على موعد مع عبد العظيم عثمان، فلم يجده، سلقط في ملقط كأنه إبرة في كومة قش.. رجع إلى البلد، ذهب لتوه إلى عبد العظيم عثمان، وجده متربعًا فوق برش على المصطبة أمام الدار بيشرب الجوزة في رواقة..

- سا الخير يا عبد العظيم!

- سا النور أهلا وسهلا!

- ما جيتش السوق يعني؟!

- وآجي ليه؟

- مش فيه سبُّوبة حنبيعها؟

- سبُّوبة إيه يا آبا الحاج؟

- الله!!

- الله موجود!

طب وطي صوتك ما أوطيش صوتي قامت خناقة في حي الرحبة. تجمع الناس يتساءلون..

- يا جماعة شوفوا الراجل ده عايز مني إيه؟!

- عايز منه إيه يا حاج عابد؟

هكذا سأله أحدهم..

- ولا حاجة! كل ما في الأمر يا جماعة إني حبيت أتفرج على البضاعة اللي عنده يمكن أشتري منها!

- بضاعة إيه يا أبا الحاج؟ أنا معنديش بضاعة بقى لي أكتر من شهر!.. تعالوا يا ناس شوفوا بعينكم!

وسحب بعضهم وعمك من ضمنهم إلى داخل داره، دخل بهم إلى الزريبة، وجدوها خالية.. عمك وقع من طوله، جاءوا به يسندونه..

ـ ما لك يا بو مصطفى؟

ـ مفيش! دوخة بسيطة!

رقد في الفرشة جمعتين يشكو من جسده كله.. من يومها وعبد العظيم عتمان كلكيعة سوداء في صدره.. ما صدق أن سمع بخبر مقتل محفوظ حتى صاح بأعلى صوته في الدوار وفي الجرن:

ـ مفيش غيره عبد العظيم عتمان! هو عدو النصارى رقم واحد في البلد! هو اللي هدد محفوظ قدامنا! وراح يجري إلى إسطاسية، قال لها:

ـ بلغي واحنا نقبض عليه في الحال!

لكن المقدس عازر صبحي ناصح، أشار لها إلى رشاد وأدهم ابن عمه لتأكده من أنهما الفاعلان، فأبلغت..

ـ اسم الله عليك وعلى حواليك، سألتني لماذا أحكي لك هذا الكلام العفنان؟!..

ـ أقول لك: إذا كان أدهم أبو ستيت قال للمحكمة إن العمدة أعطاهما البندقيتين المحرزتين فمعنى هذا الكلام أن عمك عابد هو الذي أعطاهما البندقيتين لأنه طول عمره يقتني الأسلحة ويبيعها ويشتري غيرها.. الصحيح أنه ليس يشتريها وإنما يسرقها له شلة قطاع الطرق الذين صاحبهم وجرأهم على هيبة العمودية، إنهم المنسر وهو شيخهم أقولها بالفم المليان.. و.. و.. ليس ببعيد أن يكون هو الذي

كلفهما بقتل محفوظ ليتهم فيه عبد العظيم عثمان.. والله لا أستبعدها.. كمان تلاتة بالله العظيم لا أستبعدها.. فحرام أن يذهب فيها زوجي وعيالي..

ـ لماذا لا ترد؟ لماذا تبحلق فيّ؟ ما لك انكتمت؟ ألا تريحني بكلمة يا حمزة؟.. قل إنك تستطيع مساعدتي.. هات خالك يقف معنا وأنا أبيع ما ورائي وقدامي لأدفع تكاليف براءة زوجي وعيالي.. يا للمصيبة رب اقطعني، أتبكي؟! طب خلاص خلاص! خلِّ عنك! والله ما قصدت إيذاء مشاعرك.. رب اقطعني، حقك عليّ، نشف دموعك واشرح وجهك قبل أن تطلع لعمك العمدة، هاتي الشاي يا مقصوفة الرقبة».

منتديات مكتبتنا

(١٤)

شيطان في الطريق

جلست أمام عمي العمدة وأنا شبه أعمى. كنت في حالة احتقار عنيفة حادة، لعمي العمدة وعمي عابد ولاسم العائلة ولنفسي ولكل شيء حواليَّ: هذه الدار، هذا الدوار، هذه العمودية، صرت أتشكك في دمي نفسه، في أصلابي، فعائلة بهذا الانحطاط يصعب التصديق بأن يكون من أصلابها شيخ شديد الورع شديد التقوى كأبي. هل تراه كان من نفس الطينة.. نفس العجينة إلا أنه استطاع بالعلم أن يقاوم الطين ويقومه ويناهض حطته؟ أم تراه كان يمثل هذا الدور بإتقان عظيم؟ ولكن لا، إن اقتناع أمي به وحبها له إلى حد التقديس والتبجيل يكفي وحده للشهادة بأصالة أبي ونقاء عنصره. صرت أتشبث بأية أسباب تثبت طهارة أبي من رجس هذه العائلة. المأثور الشعبي في بلدتنا يقول: البطن قلابة! يعني أن البطن التي تلد الأبيض الشاهق هي نفسها التي تلد الأسود القاتم لنفس الأب الذي لا بد أن يكون للسواد أو للبياض وجود في دفتر الجينات الوراثية الخاص به أو الخاص بها؛ إنها تلد الخيِّرَ والشرير، ألم يكن

قابيل وهـابيل تـوأمين؟.. يا ربي لقد صرت في بلبلة، هبطت روحي المعنوية إلى ما تحت الصفر بكثير، صرت أرى عمي العمدة مثل ثور ذبيح يتنفس كالزئير، شخيره ـ رغم أنه يقظان ـ يشبه الرعد.. كأن السحب تتصادم في صدره.. في حلقه.. في منخريه.

أقسم بالله العظيم لم أفهم كلمة واحدة مما قال. لم أذكر حتى إن كان قد تكلم فعلا أم أنه اكتفى بالزئير. إنما أذكر أنني كنت تائهًا، شبه غائب عن الوعي؛ أهز رأسي من حين لآخر كأني أستمع إلى كلام؛ أو أصفق كفًا على كف كأنني أتعجب متألما من شيء ما؛ أو أقف رافعًا صوتي مشوحًا بذراعي، كأني أترافع في محكمة؛ ولكن ماذا عساي قد سمعت؟ ومم عساي قد تعجبت؟ وماذا عساي كنت أقول؛ فكل هذا لست أذكره.

غادرت دار عمي العمدة باكيًا، بائسًا محطمًا، غير قادر على الكلام. دلفت إلى قاعتنا، تجنبت النظر إلى أمي، خلعت ملابسي ورميتها كيفما اتفق، ارتديت الجلباب متطوحًا كالسكران، أويت إلى الفراش، فاستجاب النوم فورًا لرغبتي في الهروب.

عندما صحوت شعرت كأني بعثت من جديد.. وكانت شمس الضحى العالي تغمر القاعة بضوء نحاسي براق، والمذياع الموضوع على رف مدقوق في الحائط منذ ما يقرب من خمسين عامًا ـ ومن تحته جهاز التلفاز على منضدة مُفصلة على قده ومغطى بكسوة من قماش الكريتون المصنوعة منه كسوة الكنبة والكراسي ـ ينقل وقائع صلاة الجمعة من مسجد الحسين بن علي في القاهرة، أصوات تكبيرات وهمهمات، صوت خطوات الخطيب وهو يصعد إلى المنبر، وصوت

الميكرفون وهو يفرقع ويخرخش بصوت حاد مزعج. قمت قاعدًا، شاعرًا بالذعر الذي يتتابني كلما تأخرت عن موعد حتى ولو كان تافهًا فما بالك بصلاة الجمعة؟

مجاملة لأمي فحسب شربت رشفتين من كوب الشاي بالحليب، قضمت قضمتين من بقسماط تخبزه أمي في فرن البوتاجاز. انتعلت الخف، خرجت إلى دورة المياه لكي أتوضأ. فوجئت بانفساح الدار أمامي لأول مرة. انتبهت إلى أنني أملك دارًا كبيرة جدًا، سِت قاعات تطل على ردهة كبيرة مربعة، بوابتان متقابلتان إحداهما تفتح على الشارع العمومي والأخرى تفتح على فناء واسع غير مسقوف يفصل بين دورنا الثلاث، وعلى تخومه الحديقة على مساحة تزيد على فدان، تنتهي بالترعة التي اختبأت تحت القنطرة التي كانت تزداد اتساعًا وتمتينًا يومًا بعد يوم منذ أن بناها عمي عابد من جذوع نخيل وقضبان حديدية كانت مسروقة من قطار الدلتا أثناء إزالة سككه من بلاد الدلتا بعد إلغائه، تعبر القنطرة إلى مكنة الطحين. لاحظت أيضًا أن دورة المياه في دارنا كبيرة توشك أن تكون قاعة؛ وراءها ـ في الفناء المفتوح ـ دويرة فرن الخبيز الخاص بدارنا وحدها باعتبارها الدار الأصلية للعائلة. قلبي وجعني على أمي، كيف تعيش وحدها في هذه الدار الواسعة؟ أنا شخصيًا يقلقني أن أنام فيها وحدي. قررت أن أعاود الضغط على أمي لعلها تقبل الانتقال معي إلى طنطا حيث توجد شقة فاخرة باسمها تنتظرها من ممتلكات أبيها؛ ولكنني حينما عدت من دورة المياه بعد الوضوء وجدت الردهة عامرة بالحركة والأصوات، فتيات وأطفال من دار العمين يمرحون وأمي بينهم. التفوا حولي وصافحوني، وقالت أمي بشيء من الامتنان والحب:

ـ «أين أجد هؤلاء الأشقياء في طنطا؟ وأنا أدمنتهم! هم كذلك أدمنوني! لا يغادرون هذه الدار ليل نهار! ينامون عندي! لا يجدون الحنان إلا عندي! ولا يهنأ لهم طعام إلا عندي! وسوف ترى بنفسك اليوم حلاوة الأكل معهم جماعة كالصلاة!.. صل جمعتك على مهلك وتعال تجدنا في انتظارك حول الطبلية!».

في طريقي إلى الجامع الكبير خيل إليّ أن شيطانا ذا قرنين ونابين بارزين وحاجبين مقوسين مرفوعين وذيل طويل مبروم متكور، يمشي أمامي بظهره، يترنح متخبطا على جانبي الحارة الضيقة، كأنه ينسلخ عن جدار ليذوب في الجدار المقابل، متوقفًا أمامي لبرهة وجيزة، محملقًا في وجهي، يرقص حاجبيه سخرية مني، قائلا بهمس إلا أن صوته يزلزل الأرض من تحتي:

«مانتاش مكسوف؟ يا عيلة وسخة معندهاش ذمة ولا ضمير! يا قتلة! مانتاش حاسس إن البلد مش طايقه سيرتكم؟ وكمان رايح تصلي في الجامع الكبير؟! طب شوف لك زاوية ضيقة ولا خليك في الدار! وخلي بالك الناس ماعادتش بتاكل من الكلام ده! تعمل لي فيها شيخ ابن شيخ براحتك! والناس مش حتكسفك برضه! حيجاملوك ويسلموا عليك لكن ربنا عالم باللي جواهم من ناحيتكم! مفيش واحد فيهم مش مقروص من واحد من أهلك! ارجع ارجع ما تهزأش نفسك! صلِّ في الدار ولا في زاوية السلايمة قدام مكنة الطحين!».

حين وصلت إلى الجامع الكبير غمرني فرح عظيم اقشعر منه بدني، مصدره انتباهي المفاجئ إلى أنني تحديت هذا الشيطان وأصررت على

الصلاة في الجامع الكبير وسط هذا الحشد الهائل من المصلين؛ ولكنه ـ الملعون ـ نجح في إنزال غلالة غامقة غامضة فصلتني عن دفء الناس، كأنني قد زودت بعازل خفي يمنع عني الكهرباء العاطفية؛ أصافح الناس وأحتضن بعضهم، وأرى الشوق والاحترام والتقدير في وجوههم وعيونهم فلا يعروني أي تأثير؛ لكأنني أصبحت أتشكك في صدق نواياهم، أو ربما في صدق نواياي. إن وثوقي من كراهيتهم الشديدة لعائلتي استيقظ فجأة فعكر صفوي. لعل احتقاري لعائلتي الذي تأكد وترسخ في ضميري مساء أمس قد طرح ردود فعله على علاقتي بالناس؟ إن احتقاري لعائلتي أشد وأقوى من كراهيتهم لها؛ أي أنني أقف نفس الموقف من عائلتي؛ ولكن المؤسف في الأمر أنني ـ وقد توجست من موقفهم تجاهي ـ لم أعد واثقًا مما إذا كانوا يحبونني حبًّا حقيقيًّا صافيًا، أم أنهم تلقائيًّا وبرغمهم يحتفظون لي بنصيبي من كراهيتهم للعائلة؛ فهل تراني أبادر بموقف الصد والجفاء تفاديًا لأي عدوان محتمل من أي غشوم قليل الوعي يأخذني بجريرة أهلي؟ إنني إذن لفي حالة من فقدان التوازن خطيرة.

أويت إلى ركوع وسجود طويلين قبل بداية الخطبة وبعد نهايتها. ما أن انتهت الصلاة حتى انهالت فوقي التحيات من كل اتجاه، ناس يصافحونني بحرارة ويدعون لي بالتوفيق، ناس آخرون يدعونني للغداء معهم في دورهم، أشعر أن لاسمي رنينا عذبًا على ألسنتهم: حمزة! أستاذ حمزة! حمزة بك!.. لكنني سرعان ما بدأت ألمح بعض الخبث في بعض العيون، بعض لؤم تلتوي منه بعض ملامح الوجوه، بعض التشفي في همس خافت يدور من حولي في كلمات ذات دلالات موجعة، من قبيل: يمهل ولا يهمل! إن ربك لبالمرصاد! إلخ؛ وكلها

عبارات تنطلق من الخبر الذي شاع بأن أدهم أبو ستيت قد اعترف بأن العمدة أعطاه البندقيتين المحرزتين واحدة له والأخرى لرشاد ابن عمه. كان هذا الخبر يطل من جميع العيون؛ يكاد كل من يصافحني أن يسألني: عمك العمدة عمل إيه؟ مما أشعرني بالندم على المجيء إلى الجامع الكبير.

أفلت من الزحمة. هربت من شارع داير الناحية إلى تخريمة في وسط البلد عبر حارة ضيقة كالسرداب. وما كنت أظن أني في هذه التخريمة سألتقي شيطانًا آخر حيًا ومن الإنس: ذلك هو سيد أبو ستيت. كان متربعًا على المصطبة أمام داره كهيكل عظمي لا دليل فيه على الحياة سوى عينين تبرقان في عدوانية، ترقبان.. تتلصصان. مصطبته في صدر المنعطف، تواجهك وأنت مقبل نحوها فيخيل إليك أنها سدت الحارة؛ لكنك حين تقترب منها ترى منعطف الحوداية منبعجًا يتسع لمرور جمل بحمولته. رفع سيد أبو ستيت عصاه ومدها ليسد بها طريقي..

ـ «سلام عليكم يا حاج سيد!».

حاول القيام ليصافحني، فلحقت به وضغطت على كتفه النحيف ليبقى جالسًا. جلست بجواره على المصطبة. فصفق بيديه، فبرزت من باب الدار طفلة صبية. صاح فيها:

ـ «الشاي يا بنت للأستاذ حمزة!».

اختفت البنت. اعتدل هو في مواجهتي واضعًا يديه فوق كتفي كأنه قبض على متهم هارب من العدالة:

- «جيت في وقتك بالضبط! كنت أنوي السفر إليك في طنطا لكن الحمد لله جئت لحد عندي بقدميك!».

- «خير يا حاج سيد؟!».

- «ربما يكون الخير عندك أنت! نشرب الشاي الأول!».

ثم أطرق برأسه ساندًا رأسه فوق كفه، فبدا كأنه يستجمع شتات أفكاره وخواطره.

منتديات مكتبتنا

(ز)

انفجار سيد أبو ستيت

«شفت وساخة الأيام يا حمزة؟!.. ولكن ما ذنب الأيام؟!.. والله ما وسخها سوانا.. نحن نستأهل هذا الذي جرى لنا..

لقد جئت في وقتك يا حمزة فالحمد لله أني رأيتك لأني قد لا أراك بعد الآن.. ادع لي يا حمزة بأن يغفر الله لي ويتقبل حجي.. نعم إني سأحج بعد يومين العقبى لك وكل سنة وأنت طيب.. سأضرع إلى الله لعله يطهرني ويعطيني راحة البال فيما تبقى لي من أيام.. أنا الآن فوق الخامسة والثمانين من العمر.. عندي عشم كبير في الله أن يترفق بي ما دمت سأعترف أمام شباك النبي بكل خطاياي.. أريد أن أستحم من جوه، أن أتذكر كل ذنب لكي أخلص منه وأزيل أثره وكلاكيعه حتى إذا ما سجدت وركعت في الحرم النبوي لا يكون هناك ذنوب مخفية تسقط فوق ظهري تبططني في سجدة أبدية..

الغلطة غلطتي من الأول على كل حال؛ ما الذي خبطني في نافوخي وجعلني أشارك البراوية؟ اشرب يا سيد يا بو ستيت

اشرب، احتميت بالعمدة؟ صاحبت الحكومة؟ خلاص احمد ربنا على الخازوق، خسرت ابنك وابن أخيك وبنت أخيك، وخسرت عقلك، أصبحت متهمًا بالجنون..

عدم المؤاخذة يا أستاذ حمزة، هل أكون مجنونًا فعلاً إذا اعترفت بالحقيقة؟.. مجنون مجنون، إيه يعني؟ طول عمري متهم بالجنون ولم يكن ذلك يقلقني؛ لأني كنت أعرف أني مجنون بالفعل، أشارك العمدة وأدخل بصدري في ما ليس لي فيه، وكنت أنضرب العلقة وأختها فأقوم كبغل أسترالي أطيح فيمن ضربني، فإن عجزت عن ضربه قطعت هدومه وعريته، فإن عجزت نهشت عرضه وألفت الشائعة تلو الشائعة حتى لا يبقى في عرضه بقعة واحدة مستورة، جنون رسمي ربنا يكفيك شره!..

الآن فحسب أنا عاقل كل العقل يا أستاذ حمزة.. عقلي رجع من التشرد في الضلال بين قطاع الطرق وعيال الليل.. عاد عقلي من غربته وأصبح ينام في حضني كل ليلة، أصبح هو أنيسي الوحيد في الحياة بعد مقتل ابني الوحيد ورحيل أمه وراءه مباشرة.. عقلي هو الجالس معك الآن يا حمزة، هو الذي يتكلم مع حضرتك..

لقد اتضح الآن أن محكمة الله هي الأعدل، لا يمكن لمخلوق أن يرشوها أو يضللها، هي محكمة لا تحتاج لمحامين، لأن قاضيها الأعظم يعرف كل شيء من دبة النملة على الأرض إلى دبة نمل الأفكار الشريرة في البني آدم منا.. كان يجب أن نعرف هذا من الأول ونتعظ، لكن جنون الحياة والطمع خطف عقولنا فجرينا وراء الحياة وهي غزية داعرة، دنيا هاجصة وراقصة ولها ضربات في المفاصل بترقص

لكل واحد رقصة وما داياش لحد واصل كما قال ابن عروس.. هي رقصت لنا بالفعل شخلعتنا على واحدة ونص، غيبتنا عن الصواب، بتنا لا نعرف الصح من الغلط، نفعل ما يطق في أدمغتنا، ماذا سيمنعنا والعمدة شريك أصيل في كل سرحة نسرحها أو خطفة نخطفها، راسه براسنا عند التقسيم.. ومن يوقفنا عند حدنا والقوة كلها في أيدينا والناس من حولنا ضعاف مسالمون طيبون وأغبياء أيضًا، منهم من لو ضربته بالجزمة القديمة ووقعت الجزمة من يدك يطأطئ هو ويلتقطها من الأرض يسلمها إليك لكي تواصل ضربه بها، وكلهم ينتخبونك من جديد وإلى ما لا نهاية لمجلس الشعب أو لأي مجلس مهما خدعتهم وزبلتهم، فكلما اشتدت قسوتك عليهم قويت رهبتك في نفوسهم، أهالينا أدمنوا جلد الكرابيج في سبيل أن تتركهم يأكلون وينكحون ويسرسبون العيال كالأرانب، والمثل الشعبي في بلدتنا يقول: القط بيحب خناقه!.. بلدتنا هذه عمرها ما فكرت في شيء اسمه عدل الحكومة، عمرها ما فكرت حتى في معنى الحكومة، عمرها ما حاسبت جلادًا تهرأت أبدانهم من كرابيجه بل يقدمون له أجسادهم طواعية وربما متلذذين، عمرها ما حاكمت لصًا أكل حقوقهم ولحم عيالهم.. لكنهم خبثاء يا حمزة خلِّ بالك، إنهم يتوجهون بالشكوى إلى الله وحده، ولهم في ذلك عقيدة يذكرونها على الدوام ملخصة في عبارة قصيرة يتداولها الناس ليل نهار بغير انقطاع: الشكوى لغير الله مذلة.. صحيح أن البعض منا يتذرع بها فيتخذ منها مفتاحا للشكوى لبشري مثله، بأن يمنحه هذا الامتياز الشرفي ليخدره به فيستمع إلى شكواه لعله يتأثر فيفعل شيئًا للمعاونة والمساعدة، يقول لصفيِّه إن الشكوى لغير الله مذلة ولكنه مع ذلك مضطر لأن يشكو لك؛ فشف إلى أي

حد هو مزنوق، وشف إلى أي حد ارتفعت إليه أهميتك في نظره، فأنت بعد الله مباشرة!.. صحيح هذا ولكنهم يتوجهون بالفعل إلى محكمة الله عن ثقة مطلقة في عدالتها، ومن يركبه جنون الصبا وطمع الدنيا من أمثالنا يسخر منهم بأنهم متواكلون، ويشجعهم على الالتجاء إلى الله المنتقم الجبار طالما أنهم سيتركونهم في حالهم يسرقون، ينهبون، يقتلون، يفجرون، يهتكون عروض خلق الله، ظنا منهم ـ وكل الظن إثم ها هنا ـ أن الله الرحمن الرحيم العطوف سيؤجل حسابهم إلى يوم القيامة يوم يبعثون، ولا بد أنه سبحانه وتعالى سيغفر لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر منها طالما أن الواحد منهم بعد أن يشبع من الحرام ويسأم من السحل والقتل والتحكم في عباد الله سوف يعلن توبته ولو قبل موته بدقائق..

ولكن لا.. آمنت بك يا رب..

الآن يا حمزة أعلنت محكمة الله حكمها لصالح إسطاسية، وكل إسطاسية وكل محفوظ قتله المجرمون ظلما وعدوانا..

يا ساتر يا رب على البلادة التي حطت علينا طوال السنين الفائتة.. لقد عميت أبصارنا وانسدت آذاننا فلم نلاحظ أن أحكام محكمة الله كانت تصدر تباعًا، أولاً بأول.. مما يدل على أن أذن الله سبحانه وتعالى كانت دائمة الإصغاء لنواح إسطاسية، وكان سبحانه يصدر الحكم لصالحها يومًا بعد يوم ونحن عنه لاهون.. من غفلتنا ومن جنوننا توهمنا أن الأسرار الدفينة التي خفيت على المحكمة الجنائية وعن محاميها وعن جميع أطراف القضية سوف تكون خافية على محكمة الله أيضًا.. شُف الضلال والجهل الآدمي، جهل القوة حين توضع في أيدي السفلة من أمثالنا جميعًا عدم المؤاخذة..

افتح أذنيك لي جيدًا يا حمزة.. رشاد ابني وأدهم ابن أخي شاركا في عملية التربص بمحفوظ ابن إسطاسية لكنهما لم يقتلاه.. خذها مني حقيقة مؤكدة يا حمزة؛ قاتل محفوظ جرجس غطاس ابن إسطاسية اثنان هما ابنا عمك العمدة: عمار وعبد الغني عواد البراوي، المسجونان الآن في قضية أخرى لم يكن لهما بها أدنى علاقة.. أليست هذه معجزة من معجزات محكمة الله؟!..

لعلمك وأنت رجل قانون وتفهم: ما دامت القضية قد انفتحت في المحكمة الجنائية الأرضية فلسوف تثبت التهمة على ابنيْ عمك العمدة وسيأخذان عقابًا آخر مضاعفًا، مثلما عوقب عمك عابد ـ على حياة عينه ـ في عياله الظالمين المتغطرسين مثله.. اسألني عنهم أقول لك إنهم جميعًا ظالمون يستحقون ما نالهم من عقاب الله، قد كنت على علم بجرائمهم وطرمخت عليها وربما ساعدتهم في بعضها سواء بقصد أو بدون..

سأقول لك لماذا وكيف ومتى، سأجيب عن كل ما في عينيك من تساؤلات، سأعطيك كل ما عندي من معلومات واعترافات وأنت بعد ذلك حر فيها تصدقها ترفضها فهذا شأنك وحدك مع العلم بأني لست أحاول تسويء سمعة عائلتك لأني أعرف مقدمًا أنك لست محتاجًا لمثل هذه المحاولة، فأنت وضع، وهم وضع آخر مختلف، أنت حمزة ابن الشيخ الإمام الطاهر التقي ولهذا فإني أكلمك وأنا متوجه إلى الله بالتوبة، باعتبارك من أهل الله كالست والدتك كما أعرف وأتأكد..

عمك عواد العمدة كان يدبر لقتل محفوظ ابن إسطاسية منذ

سنوات طويلة فاتت، وكان ينتظر الفرصة الملائمة، إلى أن جاء عمك عابد ووسوس في عقله بأن الفرصة جاءت على طبق من فضة؛ انتهز فرصة أن البلدة كلها سمعت وشاهدت عبد العظيم عثمان الوقيع وهو يشتم محفوظ ويهدد بقطع خبره ويسب ديك النصارى، فلو قتل الولد والحالة سخنة وكلام الوقيع يرن في الأسماع فإن التهمة تجيء لصيقة بعثمان الوقيع..

عمك عابد ممحون من عبد العظيم عثمان الوقيع لأسباب لست تعرفها حضرتك لكننا الكبار نعرفها.. وعمك عواد العمدة ممحون من محفوظ جرجس غطاس ابن إسطاسية لأسباب أشك أنك تعرفها أيضًا.. والخلاص من الاثنين؛ عثمان ومحفوظ يهم عميْك معًا، فيه شفاء لهما من أمراض متوطنة كالبلهاريسيا والكبد الوبائي حاليًا..

آه يا حمزة من فتح الملفات وتقليب المواجع، كل سطر بوجع وكل صفحة بكارثة.. تعال أطلعك على ملف الأرض التي تقوم فوقها المكنة والمضرب ومزرعة المواشي القديمة.. لعلك لا تعرف أن عمك عابد احتال على المعلم جرجس غطاس واستكتبه عقد بيع ابتدائي لفدان الأرض المحاذي لأرضكم تفصل بينها ترعة القصاصين التي كانت في الأصل اسمها ترعة الغطاسين نسبة إلى عائلة غطاس التي كانت تمتلك هذه الأراضي كلها في الزمن القديم فلما اشترى الناس معظمها تغير اسم الترعة من تلقاء نفسه على الألسنة إلى القصاصين دون أن يكون هناك عائلة بهذا الاسم تنسب إليها.. دخل غطاس شريكًا بالنصف مع أن الأرض المغتصبة كانت أكثر من فدان وكان سعرها يعلو فوق نصيبه المفترض في الشراكة لأنه كان يأخذ الموضوع

هزلا في هزل وراءه مكر دفين ليس يدركه أمثال عميْك الغاشمين..
كان عمك عابد يستغفل المعلم جرجس ويزحف على أرضه البور قطعة وراء قطعة بحجة أنها كلها أعمال مؤقتة، حتى وسع للمزرعة فدانا آخر أحاطه بالأسلاك الشائكة والشجيرات، ووسع المساحة أمام المكنة وأقام فيها أوتادًا يربط الزبائن ركائبهم فيها بالأجر..

احلوّ المكسب ونغنغ المعلم جرجس فأصبح يزور ستوتة العالمة في خمارتها السرية في مدينة دسوق مرتين في الأسبوع بدلا من مرة واحدة. إنها تقيم في شقة كبيرة واسعة عبارة عن دار مستقلة على شريط السكة الحديد في حي ترعة البدالة، معروفة وغير معروفة في آن معًا، فالغشيم الذي يجيء ليسأل عن عنوانها لن يجد أحدًا يعرفها من الأساس، أما الزبون المتودك فيتوجه إلى البيت مباشرة وينقر على الباب نقرة معينة، وتتكفل العين السحرية في الداخل بالكشف عن وجه الطارق، فإن كان الطارق غريبًا فوجئ بالباب يوارب ليظهر بيت شديد الاحترام والمهابة، وبرجل محترم جدًّا يجيد التفاهم معه وإزاحته، ودائمًا أبدًا هناك في الصالون في مدخل الباب ناس محترمون يتفاوضون مع الست ستوتة على إقامة أفراح ستحييها لهم بفرقتها الشهيرة بين علية القوم؛ وكثيرا ما يكون من بين الجالسين في الصالون شخصيات كبيرة من المسئولين وكبار الموظفين والتجار والأغنياء كلهم لهم أفراح لا تنتهي، وكلهم يعرفون بعضهم بعضا بالاسم واللقب والعنوان ومع ذلك يبدو عليهم جميعا كأن أحدا منهم لا يعرف الآخر ولا يريد أن يعرفه، والجميع يستمرئ التنكر المفضوح في صالة الرقص والشرب في بدروم تحت الأرض بعرض مساحة البيت ينكتم فيه الضجيج ويتوه في جلبة القطارات المتواصلة.

في هذه الصالة لعبت الخمر برءوسنا ذات ليلة.. طلع في دماغ المعلم جرجس أن يساوم عمك عابد على رفع نسبته في الشركة وإدخال ابنه محفوظ ـ الطفل ـ كشريك ثالث في مقابل هذه المساحة الكبيرة من الأرض المغتصبة منه.. ففي أريحية وسماحة أشار عمك عابد بإصبعه إلى عينيه:

ـ من العين دي والعين دي! طلبك حاعرضه على العيلة وإن شاء الله يساويها ربنا.

في الخميس التالي تقابلنا على قهوة يني قرب المحطة، فقال عمك إنه سيعزمنا الليلة عند واحدة من صديقاته القدامى.. أهلا وسهلا مرحبا، هكذا قال المعلم جرجس منتشيا.. فذهبنا إلى بيت عتيق في شارع الخبيزة، فإذا بهذه التي يعزمنا عندها كانت تشتغل عند ستوتة وطردتها لسوء أخلاقها وطبيعتها الشريرة، وهى بالفعل أجمل شريرة شفتها في حياتي، سنيورة شكلها يوقع بأتخن تخين تحت قدميها، حية سامة، السم إذا لم تطالك بخته قبل أن تنال غرضك منها نالك وأنت في حضنها، تكرهك فيمن ضاجعتهن من قبل ومن ستضاجعهن من بعد، تلتهمك وتصيبك بها كأنها داء جنسي لا علاج له إلا به، ولكن في مقابل هذا الهناء الذي تسقيه لك لابد أن تفاجأ حضرتك بأنها سلبت ما في يديك من خواتم أو دبل أو ساعات، وسواء وعيت أو طرمخت بمزاجك أو غفلقت من عمق المتعة مع شدة السكر والسطل والمنزول فإنك لن تخرج من بيتها وفي جيبك فلوس تزيد على أجرة القطار، هي باختصار عاهرة داعرة فاجرة ماهرة تعبد الفلوس، أعطها فلوسا تعطك متعًا لن تنساها طول حياتك، أعطها فلوسا واطلب منها أي طلب فإن لم تستطع تنفيذه بنفسها تعرف كيف تختار

من ينفذه.. كان عمك عابد أحد ضحاياها في شيخوخته لا يسلوها ولا تسلو فلوسه التي كان يختلسها منكم ومن غيركم.. عمرها خمسون عاما لكنها لا تساوي في نظر من يراها أكثر من ثلاثين، يعني في عزها.. المعلم جرجس لم يكن رآها من قبل وإن سمع عنها، فلما رآها وقع من طوله.. كانت النظرات الخبيثة اللئيمة في عينيْ عمك عابد تشي بوضوح أن في الأمر تدبيرًا ما، يفضحه انبساط عمك من وقوع المعلم جرجس في هوى نجفة، ثم إن الفعل الذي جرى أكد ذلك؛ ركزت نجفة في المعلم جرجس في الرايحة والجاية، تتقصع وتغمز بعينيها وشفتيها حتى هاج المعلم وبدا عليه الحرج والبلل.. حينها وقف عمك وسحبني صائحا:

ـ وماله يا عم! حقك! يلا بينا يا سيد نسيبهم يشوفوا شغلهم مع بعض براحتهم!

وكور رزمة فلوس دسها في عب نجفة قائلا:

ـ أوصيكِ بالمعلم! متعيه على الآخر!

مشينا وتركناه في بيتها، وفيما كنا في موقف سيارات الأجرة فى منتصف الليل ننتظر سائقًا بعينه سوف يوصلنا إلى البلد رأسا قال عمك متشفيا في المعلم جرجس:

ـ خليها تقلعه هدومه! عشان أما يلاقي نفسه مفلس على الحديدة باستمرار يعرف إن الله حق ويرضى بالمكسب المقسوم له!.. إن شاء الله نجفة حتجيب داغه!

ولكني وحق من هداني بعد أن كواني، لقد جاءني ليلتها إحساس بأن المعلم جرجس قُرئت فاتحته، كيف؟ لا أعرف، هكذا شعرت

والسلام.. هو شهر واحد يا حمزة.. وبدأت صحة المعلم جرجس في النازل، لا يكف عن التألم، والترجيع، يتقيأ دما، لا يقوى على الوقوف على قدميه.. جاءنا ابنه محفوظ يجري ذات عصرية قائلا إن أباه في غيبوبة الموت، طلعنا نجري على عزبة الحجر، عمك عابد وعمك عواد العمدة وأنا وأدهم ابن أخي، حملناه على الركايب إلى مستشفى المركز.. فحصوه.. كان عمك عابد الخنيس واقفًا على باب الغرفة يهرب من جميع النظرات ويبسبس بشفتيه ليوهم إسطاسية ويوهمنا بأنه يقرأ القرآن طالبا من الله شفاءه.. وحينما طلب الطبيب رؤية واحد من أهل المريض كانت إسطاسية في الركن البعيد للطرقة الطويلة في حالة انهيار وسط نسوان من عزبة الحجر يواسينها ويحتضن طفلها محفوظ، وقد لاحظت أن عمك عابد يتجاهل طلب الطبيب في خسة، متخفيا في قراءة القرآن.. أنا من جهتي كنت مستعدًّا لدفع أجرة الطبيب إذا كان هناك أجرة، وكنت مستعدًّا لدفع عمري كله لكي أعرف سر هذا المرض المفاجئ الذي عصف بصحة المعلم جرجس فيما يشبه لمح البصر.

أزحت عمك عابد بكوعي ودخلت الغرفة على الطبيب:

ـ أيوه يا بيه كلمني أنا قريبه من أهله ومسئول عنه!

كان المعلم جرجس منطرحا على ظهره وقد ازرقَّ لونه وتصلبت أطرافه. قال الطبيب:

ـ هو ميت ولكن نبضه سيستمر قليلا! اتأخرتوا ليه الوقت ده كله؟ السم وصل دماغه! المرحوم صحته كانت قوية جدا وقاومت مدة طويلة لكن خلاص!

ـ سم؟! هو مسموم يا سعادة البيه؟

ـ تحليل الدم فيه تلوث بـ... تقريبا دم الحيض!

ـ في عرض حضرتك! اكفِ على الخبر ماجور! المرحوم كان ديله نجس ويبقى هو الجاني على نفسه!

لكن تشريح الجثة بعد الوفاة أثبت ذلك. ولما كانت إسطاسية على علم بأن زوجها يمشي مشيًا بطالا فقد كتمت الحسرة في قلبها وسترت على جثمانه فدفنته مع الفضيحة.. وحمدت ربها على ابنها وعاشت له حتى كبرته وأصبح رجلا..

عمك العمدة كان حصيفا، حضن الولد وأظهر العطف عليه، أراد أن يثبت لأهل البلد ولعزبة الحجر أنه عادل مع الولد يراعي ربنا في تقسيم الإيراد، فانتدب المقدس عازر صبحي ليكون شاهدا على سير العمل وعلى توزيع الأرباح واحتجاز نسبة للصيانة والإصلاح، فقام المقدس عازر بتعيين واحد من طرفه يمسك الحساب، فلما بلغ محفوظ سن الرشد أصبح هو الذي يدير الحساب في المكنة والمضرب إضافة إلى عمله الأصلي كحلاق خصوصي يحلق للناس في بيوتهم وفي مناسبات أفراحهم، مما جعله يبقي على الموظف الذي عينه المقدس عازر لينوب عنه هو الآخر حين يذهب هو للحلاقة لعريس أو لزبون من علية القوم وفي نفس الوقت يقوم عنه بمراقبة الموازين وتدوين عدد الكيلات المعدة للطحن وتقدير أجرتها وما إلى ذلك.. ورضي عمك العمدة بذلك ومشى العمل في رواقة، لكن عمك العمدة ندم ندمًا شديدًا على إدخاله للمقدس عازر في الموضوع من الأساس، فالمقدس عازر سوسة، كان ينصح الولد محفوظ ويوعيه، ويقويه،

فجاء محفوظ ذات يوم وكشف للعمدة عن مفاجأة صادمة جعلت عميك يدوران حول بعضهما من الدوخان كأن جبلا وقع فوقهما..

قال محفوظ للعمدة إن أرض أبيه المغتصبة، المقام فوقها مكنة الطحين ومضرب الأرز ومزرعة المواشي، لم تكن ملكا لأبيه حتى يحق له أن يتصرف فيها بالبيع أو بالإيجار، إنما هي ملك لعمته المرحومة ماتيلدا غطاس كانت ورثتها عن زوجها وهو ابن عمها لزم، وكان قبل هلاكه قد كتبها لها بيعا وشراء حتى لا يطمع فيها أبناء عمومته الذكور، وكانت هذه الأرض معروفة للبلدة كلها باسم أرض الغطاسين ولم يكن قد بقي من الغطاسين سوى الهالك المعلم جرجس غطاس..

قال محفوظ إن عمته تركت أباه يزرعها بنفسه ويتحصل على ريعها إلى أن يموت فتبقى مستأجرة لابنه إيجارا صوريًا بدون مقابل فإن مات الابن تؤول ملكيتها إلى الكنيسة.. كانت وصية ماتيلدا غطاس في حوزة محاميها في طنطا، فلما علم المحامي بهلاك المعلم جرجس اتصل بالمقدس عازر صبحي باعتباره عمدة عزبة الحجر يستفهم منه عن ورثة المعلم جرجس، فسافر إليه في طنطا ومعه كل من محفوظ وإسطاسية، فقال لهما المحامي إن وجود الوصية عنده لم يعد له معنى طالما أن ملكية الأرض ستؤول حتما إلى محفوظ، وهكذا أخذ محفوظ الوصية وحجة الأرض وعاد بهما إلى البلد، وأطلع العمدة على صورة منها في جلسة ودية ضيقة لم يحضرها سواي باعتباري كنت أشبه بوزير الداخلية بالنسبة لعمك عابد أنفذ له كل مخططاته دفاعا عن أمنه ومصالحه ابتداء من المفاوضات الودية وصولا إلى القتل

والخطف والاضطهاد والتعقب والتعذيب وقطع الأرزاق وهتك العرض اللهم اغفر لي، هاتي يا عيني ما في قاعك من دموع قبل أن تغرقي بها قبر الرسول..

وإذن فبالمختصر المفيد يحق لمحفوظ الآن أن يسترد أرضه المغتصبة بدون أية أوراق رسمية، أما الورقة التي سبق أن كتبها المعلم جرجس غطاس بمثابة عقد ابتدائي فقد اتضح أنها نكتة وإن كانت غير مضحكة، كلام فارغ ليس فيه أي تحديد لأي شيء، وحتى التوقيع لم يكن توقيعا بل شخبطة، والخط كله كنبش الفراخ يعني هي ورقة لا تنفع إلا لمسح اللا مؤاخذة..

ليلتها كنا سهرانين عندكم في المندرة، عمك عابد رأسه وألف برطوشة أن يغلبني في لعبة الطاولة ولو عشرة واحدة، وأنا نازل فيه غلب للركب.. إذا به لم يكن يلعب معي في حقيقة الأمر، إنما كان يلعب مع نفسه لعبة أخرى.. عيالنا جالسون معنا يشوفون طلباتنا؛ عامر وعبدالغني ورشاد ابني وأدهم ابن أخي.. أخيرا أغلق عمك الطاولة وركنها فوق المسند، قال:

ـ على فكرة يا عمدة! إحنا معزومين في فرح بكرة في عزبة نصيف! إوعى تكون نسيته!

شعرت بغمزة معينة في نبرة صوته في عبارة: إوعى تكون نسيته، وظهر على وجه عمك العمدة أنه فوجئ، وأنه تذكر شيئًا كان يود لو ينساه مؤقتًا، لكنه بعد قليل مال برأسه فوق العيال وهمس:

ـ أنتم الأربعة مهمتكم قطع خبر محفوظ! هذه فرصة لن تتكرر!

فاعتدل عمك عابد في نشاط وتكلم:

ـ طبعا أصحاب الفرح سيبعثون بركوبة تأخذ محفوظ ليزين العريس! وطبعا ستعود به الركوبة نفسها وسط الليل بعدما يتعشى ويخضب العريس بالحنة في يديه وقدميه!

ولكنني استمهلته لأعرف الهدف الأصلي من قتل محفوظ حتى نحقق الغرضين معًا؛ القتل والوصول إلى ما نريد، وبناء عليه وضعت الخطة كما يلي: رشاد وأدهم يتابعان محفوظ عند خروجه من عزبة نصيف، وفي منتصف الطريق يطلقان أعيرة نارية في الهواء، فمن ناحية ترعب محفوظ وتلخمه، ومن ناحية أخرى تنبه عامر وعبد الغني الرابضين تحت الكوبري إلى أن الهدف صار في مرمى نيرانهما، وعند وقوع القتل يهرب عامر وعبد الغني، ويعود كل من رشاد وأدهم إلى عزبة الحجر يترقبان خروج إسطاسية والمقدس عازر عندما يجيئهما الخبر، فيقتحم رشاد وأدهم دار إسطاسية ويفتشان فيها عن أي أوراق يأخذانها، وفي نفس اللحظة يكون عامر وعبد الغني قد فعلا نفس الفعل في دار المقدس عازر صبحي.. وقد تم تنفيذ الخطة بالكامل، ولكن رشاد وأدهم لم يعثرا في دار إسطاسية على أي ورق مما جعلنا نرجح أن يكون محفوظ قد أعطى الورق للمقدس عازر يحتفظ به في خزنته، وهذا ما تأكد منه عامر وعبد الغني ولكنهما حينما شرعا في رفع الخزنة من مكانها استيقظت زوجه العجوز وصوتت فتمكنا من القفز إلى الحوش ومنه إلى الطريق.. يعني حققنا غرض القتل بالمجان مع الأسف..

أظنك يا حمزة لن تعتبرني مجنونًا ورنة الصدق واضحة في كلامي

وحديثي.. سأكون مجنونًا في نظركم حقًّا من أجل سبب واحد، هو أنني أعترف وأضع رقبتي في حبل المشنقة بينما كان بمقدوري أن أنجو منها، وكأن العقل هو أن ترتكب الجرائم وتزوغ من العقاب وأنت لا تدري أن ستجيء عليك لحظة تتمنى فيها الإعدام شنقًا لتخليصك من عذاب النفس لنفسها.. لا يا سيدي.. يفتح الله.. إنني أعترف لأطلب الصفح من الله، أعترف لأني أصبحت واثقًا من أن كتمان اعترافاتي لا جدوى منه؛ لأنها معلومة ومكشوفة عند الله فلماذا المكابرة؟! إذا كان الله قد هداني للهداية ليحررني من عذاباتي ومن خضوعي الكريه لإبليس فكيف أترك هذا الإبليس راكبًا فوق ظهري يسوقني باعتباري ركوبته المفضلة؟!».

منتديات مكتبتنا

(١٥)

الداء والدواء

ـ «طبلت الدنيا فوق دماغي تطبيلا عنيفا..».

هذه هي العبارة الوحيدة التي فهمتها من هذيان عمي العمدة حينما زرته آخر مرة قبل سفري إلى طنطا بدقائق. كان محاميه عنده وطلب أن يتعرف على شخصي. وقد أشاد بخالي عبد الودود القصبي وقال إنه من محبيه. فلما سألته عن موقف عمي العمدة في القضية قال بالفم المليان وبغلظة:

ـ «زي الزفت ما أخبيش عليك! القضية الآن قضيتان:

إعطاء سلاح بدون ترخيص! وتحريض على قتل مع سبق الإصرار والترصد! الولد المدعو أدهم أبو ستيت ضغطوا عليه حتى اعترف بالتفصيل عن جريمة قتل محفوظ! دفوعاتي ستبنى على عدم وجود دليل أو حتى شهود لإثبات هذه أو تلك من التهمتين! وربنا هو الموفق بإذن الله!».

ونزولا على رغبة أمي حضر خالي عبد الودود إلى بلدتنا للمرة الثالثة، جلس مع كل من عمي عابد وعمي عواد على حدة، ثم معهما معًا. كان ذكيًا لماحًا كعادته دائمًا، فرفض حضوري في أي من هذه الجلسات، مفسرًا ذلك لي بأن حضوري سيعوق انسياب الكلام تحرجا من وجودي في حين أنه كان يسعى إلى استدراجهما للاعتراف بأكبر قدر ممكن من المعلومات الجوهرية. شرح لي ذلك أمام أمي، ثم فاجأني بأنه قبل مجيئه إلى بلدتنا بعث بأحد محامي مكتبه فاطلع على ملف القضيتين المضمومتين في ملف واحد، وأنه قلب في الأوراق جيدًا، وأنه يستطيع أن يضمن حكمًا مخففًا على كل من عمي العمدة وعمي عابد نظرًا لانعدام الشهود؛ أما الحكم الذي سيصدر بشأن عامر وعبد الغني عواد البراوي وأدهم حسين أبو ستيت فإنه متشائم من جهته إلى حد اليأس لكنه مع ذلك سوف يجتمع بمحامينا في كفر الشيخ ليتفقا معًا على دفوعات معينة في مذكرة واحدة.

وفيما كنا عائدين معًا إلى طنطا في سيارته المرسيدس المخصصة للسفر بسائق خاص؛ وكنت جالسًا إلى جواره على الكنبة الخلفية، قال لي همسًا وفي لهجة مضغمة إنه لم يشعر بالقرف طوال حياته ـ متأسف يا حمزة ـ مثلما شعر به من هذين الرجلين، يقصد بالطبع عمي عابد وعمي العمدة، وأنه يستحيل عليه أن يدافع عنهما؛ فلن يجد الحافز ولا الضمير المطاط، لقد صار على قناعة تامة بأنهما مجرمان عتيدان تخمرت فيهما روح الصحراء الغدارة القاسية، روح الإغارات الدائمة للقنص والسلب والسبي وتقطيع الرقاب بغير حساب لخطف النياق والأغنام والقوافل؛ لقد صدعوا بنية المجتمع في شمال الدلتا المصرية وطبعوه بلون من العنف أشد فتكًا ووحشية من المغول والتتار؛

إن التحاقهم بالمجتمع المدني الحضري الرقيق أغراهم به فأساءوا استغلاله؛ صحيح أنهم تماهوا معه قليلا فاستصلحوا الكثير من الأراضي البور في البراري بمياه جوفية وطلمبات وماكينات إلا أنهم في المقابل نشروا في البراري شريعة الغاب وسيادة القوة الغاشمة؛ وكانت الكارثة يوم ظهر من أصلابهم شيخ جليل بات وسامًا على صدرهم فاختبأوا وراءه ووراء الأبهة الاجتماعية التي أضفاها الشيخ عليهم فراحوا يفسقون ويمكرون حتى أصابوا الشيخ بأوجاع قضت عليه..

ـ «شف يا حمزة! لا تغضب مني! عمك عابد وعمك عواد العمدة لا مفر من سجنهما! وأي رجل شريف محترم لا يجب أن تأخذه الشفقة بهما! وأنت يجب أن تختار موقف القانون!.. حضر نفسك بقوة نفسية كبيرة! لاحتمال مفاجآت أخرى كثيرة قد تظهر في هاتين القضيتين! و.. صدقني.. إنسانيًا ومهنيًا.. لن يعفيك من السقوط التام إلا انحيازك للقانون! القانون الآن هو شرفك الحقيقي! هو عائلتك الحقيقية المشرقة بدلاً من هذه العائلة الجالبة للعار والشنار!.. على فكرة! لا يزعجنك صلة الرحم فإنها في الواقع تكاد تكون غير موجودة بينكم! لا تزعجنك أيضًا رومانسية أمك فموقفها له منطقه العاطفي الخاص!.. كذلك لا يرهبنك اسم البراوي وهو لقبك العائلي الرسمي المعتمد حتى تهرب منه أو تغيره! لا! إنك لو تخليت عنه تكون قد أدنته وأدنت نفسك إنسانيًا وإلى الأبد! تكون أول من هدم داره فوق دماغه لمجرد شكه في أنها آيلة للسقوط!.. فلا تخسر نفسك!.. ولا يسوءنك أن يسجن أحد من أعمامك أو أبناء أعمامك خاصة أنك في أعماقك مؤمن بأنهم جميعًا مذنبون إجراميون!..

أما والدتك فلا يقلقنك أمرها! إنها كبيرة العقل وتعرف كيف تتكيف مع أحكام الزمان!».

ثم لاذ بالصمت وتركني معلقًا في الفضاء حتى صرت أراني ممثلا في وريقات الشجر الجافة التي يطوحها الهواء أمامنا فوق مقدمة السيارة المرسيدس السوداء، لكنه بعد برهة مال حتى لامس ذقنه كتفي، فانعوجت لأواجهه، قال في همهمة:

ـ «بقي أن أصارحك بما أخفيته عنك من قبل!.. الآن يجب أن أقوله لك بوضوح لكي تغلق هذا الباب نهائيًا وتنتبه وتركز على عملك الذي بين يديك!».

تحفزت للإنصات بكل حواسي:

ـ «أرجوك يا خالي صارحني!».

ـ «أنا تابعت طلبك التعيين في النيابة العامة! تابعته منذ تقدمت به!.. بتحرياتي وعلاقاتي النافذة في مكتب النائب العام وهو من أشرف من جلسوا على هذا المقعد! قال لي شخصيًا وبكل دماثة إنه كان يسره ويطيب له أن يكون ابن شقيقتي من رجال النيابة العامة لولا أن تحريات الأمن رفضت طلبك رفضًا قاطعًا من دون تحريات تذكر نظرًا لأنك من عائلة سيئة السمعة ذات تاريخ حافل بالجرائم وأن الساتر الوحيد والقامع الوحيد لها مات يأسًا من إصلاح حالها!.. فكن قويًا! إياك والبكاء على الأطلال! إياك والشعور بالدونية وانكسار النفس!.. إياك وإياك وإياك!».

ما أجملك يا خال، والله لا أعرف ماذا كان سيكون عليه مصيري

لو لم تكن في حياتي. حقًّا إن الإنسان مهما كان قابلا للاجتهاد والجد والرغبة في التطور لا بد له في النهاية من قدوة يقيس عليها، من مثلي يكون بمثابة صنج الموازين نتناقلها في موازين طموحاتنا ونهتدي بدقتها. جاشت نفسي بهذه المشاعر؛ ولحظة أن توقفت السيارة المرسيدس أمام مكتب الأستاذ شعرت وأنا أدفع الباب لأنزل منها بأنني ـ لأول مرة منذ التحقت بهذا المكتب ـ قد دخلت بالفعل في إهاب المهنة، لبستها من داخلي، مشيت إلى المكتب في وقار وجدية ونشاط كأني أتقدم للمرافعة في قضية كبرى لعلها قضية ما يسمى بالسلام الاجتماعي في المجتمع المصري الراهن، في عصر أقل ما يوصف به أنه عصر ازدهار الفساد، حاضن الفساد، الضارب عرض الأفق بكرامة ومستقبل مصر والشعب المصري باستهانة واستهتار وسبهللة لم يسبق لها مثيل طوال التاريخ.

منتديات مكتبتنا

(١٦)

انعتاق من موقف الذلة

نجح محامي العائلة في الوصول بالقضية إلى ما يشبه منطقة انعدام الوزن، حيث تتقلب الأوراق والاتهامات على أحوال وأوجه متعددة تؤدي إلى تفريعات يتعثر بسببها الفصل النهائي في القضية، فيتم تأجيلها لسبب من عشرات الأسباب الغريبة المفتعلة. باتت القضية مثل مباراة كرة قدم يلعب فيها المدربان، كل منهما يناهض الآخر بتكتيكات وجمل فنية وإغارات مكثفة على المرمى ثم الارتداد السريع إلى نقطة الصفر من جديد لاستئناف بناء هجمة دفاعية جديدة. راح المحاميان يعملان على تأجيل البت النهائي في القضية وترحيلها من موسم إلى موسم ومن قاض يتم رده إلى قاض يعتذر بنفسه عن الاستمرار في نظرها نظرًا لحساسة طبيعتها الطائفية الشائكة.. ذلك أن غباء المحامين قد تصاعد بها وبالأدلة وبالأسباب وبالنوايا إلى مرام وأغراض طائفية، مما تطرف بالقضية وحوّلها إلى قضية رأي عام ذات ورم طائفي كريه ومبالغ فيه يوهم بأنها قنبلة موقوتة سوف تنفجر عاجلا أو آجلا لتقضي على استقرار المجتمع المصري إلى الأبد. كل

محام ـ لأنه تورط في التصعيد ـ بات يعمل على التأجيل ما أمكن لعله يجد في متسع من الوقت أدلة جديدة ترقى إلى هذا التصاعد الطائفي بغية القضاء المبرم على الطرف الآخر.

شهور طويلة ومواسم تتعاقب، والقضية تستيقظ في الصحف فجأة لبضعة أيام يعاد فيها تلخيص وقائعها مع إضافة مثيرات جديدة تفرزها الأخيلة المريضة لمحرري الحوادث الباحثين عن شهرة رخيصة ومصادر للابتزاز. كل ذلك كان يمثل ضغوطًا نفسية قاسية علينا جميعًا، ولكنها بالنسبة لي كانت أشبه بامتحان موسمي عسير، حيث أصطبح في كل هبَّة باسم البراوية في مانشتات سوداء وحمراء كبيرة مقرونة بجرائم طائفية واستبدادية؛ يظل طائف الجريمة يكائبني ويبتز مشاعري ويسود الأفق أمامي لعدة أيام تنتهي بخبر التأجيل لسبب من الأسباب، ربما لإعلان شاهد سيتضح في الجلسة القادمة أنه قد مات ولا بد من التنقيب عن شاهد بديل.. إلخ.

ولكن عمي عواد العمدة لم يحتمل، أعفى نفسه وأعفانا وأعفى القضاة من أي حكم يتخذونه ضده. مات في يوم شديد القيظ من شهر أغسطس، وفي وسط الأسبوع حيث الجميع منشغلون في أعمالهم. ولقد حضرت فور استلامي لبرقية أمي؛ لحقت بالجناز. كان جنازًا بائسًا جدًّا، عدد لا يزيد على عدد أصابع اليدين؛ قليل من العجائز، بعض الشباب، الباقي من صبيان وأطفال العائلة؛ حتى شيخ الخفراء والخفراء لم يظهر منهم أحد في الجناز. كنا جميعًا نتصبب عرقًا وصدورنا مقبوضة من الخنقة والرطوبة وبؤس الجناز. الأربعة الذين حملوا النعش نجحوا بالكاد في الخروج به من المنعطف الدائري

للبوابة إلى ساحة الدوار والمندرة. في هذه المسافة القصيرة تعثروا عدة مرات وصاح بعضهم متألما من ثقل الجثمان. وضعوه في قلب الساحة كيفما اتفق؛ طلبوا الصلاة عليه. لم يتقدم أحد ليؤم الصلاة؛ لا يوجد بينهم من يركعها أصلا، حتى عمي عابد لم يعد يركعها منذ بدأ فقدانه لعياله على حياة عينه، سيما وقد صار جسده زكيبة ضخمة من لحم صخري جامد صلب؛ كل عضلاته ومفاصله تزيِّق بصوت عال حاد ومزعج، ناهيك عن صدره الذي يضم فرقة كاملة من أطفال أشقياء يلهثون ويصرخون ويجرجرون بعضهم بعضًا في صراخ وجعير كل ذلك في صدره؛ وجهه في حجم رأس الفيل؛ حتى حنكه الأهتم تمطت شفتاه وامتدتا مبرومتين كزلومة فيل بعد قطعها وها هي ذي آثار القطع مشرشرة على شفتيه المزمومتين؛ وهو جالس تظنه واقفًا؛ وهو واقف تظن أن برج الحمام قد زحف نحوك لينهار فوقك.

لقد انهار فوقي بالفعل، فتهاويت متطوحا لولا أنه ـ يا للعجب ـ قبض على ذراعي بقبضة من حديد وثبتني في الأرض معلقا عوجاية عصاه في رسغه الأيمن، ثم جعل يدلق في أذني كلمات مضغومة مقطومة الحروف ترن أصداؤها المكتومة في صدره العريض جدًّا فتطن في حنجرته التخينة الصوت، المتكلمة دائمًا من حلقها في غطرسة طافحة بالغرور والجهالة؛ قد ضحضحه الزمان وأذلته الكروب وأبدًا لا يتنازل صوته عن الغطرسة. فهمت من جعجعته أنه يسب رجال البلدة الأخساء كلهم، ويعترض على الجو الرطب، ويسب ديك الكفرة، ويأمرني ويأمر الباقين بأن نصطف خلفه لأداء الصلاة على المرحوم.

يا للمسخرة، يا للمهزلة السوداء! شر البلية ما يضحك فعلا؛ فعمي عابد يلخبط في قراءة القرآن الكريم ويخلط بين السور والآيات ويخطئ في التشكيل وفي طقوس الصلاة البديهية بل ويخلط القرآن الكريم بالحديث القدسي؛ خطرف خطرفة لا يمكن احتمالها. استاء المصلون برغم جهلهم، فرض عليهم الضحك بصورة طاغية فشلنا في قمعها فزيَّفناها لنوهم بأنها بكاء!

ثم جاءت المهزلة الكبرى. حاول الرجال الأربعة رفع النعش عن الأرض فلم يفلحوا، فدخل أكثر من واحد تحت كل ذراع ورفعوا أكتافهم فانكسر الذراعان الأساسيان وكاد النعش ينكفئ على بوزه في الأرض. عندئذ شرعنا في البكاء الحراق، البكاء على العجز، على هذه الذلة التي غمرتنا وحولتنا إلى كائنات تافهة كالقمامة. الموقف تأزم تمامًا، انطلق أحد الشبان يبحث عن نعش آخر عند الجامع الكبير.

سبحانك اللهم، رحيم بمعنى الكلمة، وضعتنا في موقف الذلة كي نرى أنفسنا على حقيقتها، ثم رحمت الجثمان الذي تنفح الشمس فوقه بشواظ من اللهب حتى كادت رائحة شوائه تزكم الأنوف. كانت الرحمة قد تجسدت في عربة كارو يجرها حصانان، كانت قد نقلت أخشابًا من شادر في البندر إلى شادر في بلدتنا وأفرغتها واقتربت منا في اتجاه الطريق الزراعي، فهتف عجوز من أقاربنا بفرحة كأنه شاهد ليلة القدر:

ـ «الله أكبر! انحلت يا جماعة! لو سمحت يا أسطى!».

وهرول نحو العربة فأوقفها، وبخفة ظله وصدق رجائه أقنع العربجي بأن ينقل «هذه النقلة» بأي فلوس يطلبها. وقد استحسن

عمي عابد هذه الفكرة فلحق بالعربجي لينهي تردده، شهر في يده ورقة بخمسين جنيها مقابل نقل الجثمان إلى المقابر وهي قريبة. ولكن كيف يتم رفع النعش إلى العربة الكارو وقد انكسر الذراعان؟! لا مفر إذن من الاستغناء عن النعش، فجيء بألحفة فرشت فوق العربة، ومخدة، وسحبت الجثة بحذر وقوة فمددت على الألحفة، ثم غطيت بلحاف وملاءة زينت شكل العربة؛ ومشت العربة ببطء ونحن وراءها في منظر هو التعاسة بعينها؛ وإنه لمن رحمة الله أيضًا أن الطريق من دارنا إلى المقابر وصلة قصيرة خارج البلدة يعني لن نمر بهذا المنظر في وسط البلد. عندما وصلنا إلى مقبرة العائلة كان في نيتي أن أعيد صلاة الجناز بدلا من الصلاة الباطلة التي أمَّها عمي عابد، ولكنني وجدت الجمع القليل قد انهمك في عملية سحب الجثمان من فوق العربة إلى المقبرة في هيجان وضجيج؛ فاكتفيت بأداء الصلاة وحدي على شاهد المقبرة.

في المساء حضر خالي عبد الودود بسيارته المرسيدس وجلس مع أمي في الدار وأكل لقمة طرية من يديها وشرب زردة شاي حريف. فلما دخلت دارنا رأيت خالي واقفًا في الردهة مع أمي يلوح بيديه مخططا على الهواء فيما يشير إلى الغرف التي تفتح على الردهة، ست غرف على الجانبين في كل جانب ثلاث. كانت أمي تنصت إليه متابعة إشارات يديه وقد ظهر عليها الاهتمام الشديد؛ الطرحة السوداء قدأحاطت بوجهها الأبيض الكمثريّ الشكل، فأوضحت معالمه وأضفت عليه كثيرًا من البهاء، لدرجة أنني تصورتها لأول وهلة شابة صغيرة السن. عندئذ انتبهت إلى أنها لا تزال جميلة جدًا. ما أن رأتني حتى هتفت:

ـ «خالك أعاد تقسيم الدار إلى دارين!».

فانبرى خالي موضحًا:

ـ «شف يا حمزة! هذه الردهة كبيرة جدًا تصلح وحدها شقة سكنية كاملة! وتطل عليها ست قاعات كبيرات! وحتى يوجد دورة مياه خاصة بكل ثلاث قاعات! من المفترض أن واحدة منها للضيوف وهي قريبة من البوابة! والأخرى للحريم وأهل الدار لا يقربها أحد من الغرباء وهي لذلك بعيدة قرب بوابة الفناء الخلفي!.. ماما تنام وحدها في هذه المساحة الكبيرة والقاعات كلها خاوية يمكن أن يختبئ فيها الشياطين!».

ـ «وما وجهة نظرك بالضبط يا خال؟!».

مشى مشية المساحين الذين يقيسون الأرض بخطواتهم، ثم توقف بعد عدة خطوات:

ـ «هنا سنقيم قاطوعًا من الخشب السميك! في أسفله بوابة صغيرة مموهة الشكل غير ملحوظة! ونفتح في هذا الجدار بابا على الشارع يبعد قليلاً عن بوابة الدار العتيقة!.. يصبح عندنا شقتان كل منهما ثلاث غرف وصالة ودورة مياه!».

ـ «وما الداعي يا خالي؟!».

ـ «دار لضيوفك وأصدقائك! ودار لماما محندقة على قدها تستطيع التحكم فيها والسيطرة عليها!.. ثم من يدري يا أخي! لعلك في يوم من الأيام تتزوج وتجيء بزوجتك لتعيش مع أمك يومين ثلاثة أو ربما تنجب عيالا فيكون لهم مخدعهم البعيد الخاص بهم!.. وهي فرصة بالمرة نرمم الدار ونجددها ولو على سبيل التفاؤل!».

ـ «ولكن ما الذي أتى بهذه الفكرة إلى ذهنك الآن يا خال؟!».

ـ «أمك اشتكت لي من اتساع الدار التي تصفر عليها في الليل! ومن جدرانها الرطبة الصدئة الكئيبة!».

ثم أخذ خطوة إلى الأمام، فخطوت وراءه، فهمس في أذني:

ـ «نريد أن نخرجها من حالة الحزن بأي شكل! نعيشها في جو من التفاؤل! الأمل في أن ابنها سوف يتزوج في الدار الجديدة على حياة عينها!».

صرت في الحال مقتنعًا بفكرته تمام الاقتناع. تذكرت أنني يجب أن يكون لي في بلدتي بيت محترم ومبهج يغريني بالمجيء كثيرًا، وتجد زوجي المنتظرة مكانًا يليق بها..

ـ «أشكرك يا خالي على هذه الفكرة!».

ـ «هناك من يقدر على تنفيذها في بحر جمعة واحـدة!» هكذا صاحت أمي في حماسة. سألتها:

ـ «من؟ من بلدتنا؟».

ـ «عمك شهاب الدين النجار! أقدم نجار في بلدتنا!».

في الحقيقة لم أكن أتصور أن بلدتنا يمكن أن يكون فيها نجار فنان على هذا المستوى المبهر. لقد أقام جدارًا سميكًا لاصقًا بالسقف؛ في أسفله بوابة مخندقة حين تغلق تصير جزءًا من الحائط. كان شكله جميلاً جدًا بنقوشه ونعومته. النجار دلني على النقاش، والنقاش أضاف أفكارًا. في ظرف ثلاثة أشهر اختلف شكل دارنا تمامًا؛ قامت

شقة مستقلة مدهونة من الخارج باللون الوردي، باب حديث الطراز، ومن الداخل تماهت الجدران مع الجدار الخشبي إذ تم تغليف جميع الحوائط بشرائح من نفس الخشب، وكذلك أرضيات جميع الغرف، صارت الشقة أقرب إلى قصر لا ينقصه إلا الفرش والعروس. ولم تكن شقة أمي تقل عنها جمالا ورزانة. ومن محاسن الصدف أن التليفون الأرضي كان قد جاءنا منذ أيام قليلة وركبناه في قاعة أمي، ونقلنا منه وصلة إلى الشقة الجديدة. كانت سعادتي لا تقدر بمال حينما رأيت أمي قد أشرق وجهها كأن التجديد قد حدث فيها هي، وبدت من فرط التألق كأنها عروس تنتظر ليلة الزفاف.

منتديات مكتبتنا

(١٧)

صفاء لون الفجر

كنا نأتنس بضوء غرفتها الهادئ البازغ في نهاية الممر في مواجهتنا إذ نجلس في غرفة المعيشة نتكلم أو نسمع أو نشاهد، فتعرف أنها هي الأخرى ـ طنط نور أم راندا ـ تقرأ أو تسمع أو تشاهد. لقد أمسيت مفتونًا بجنون راندا الذي يبدو لي متصاعدا من قلب العقل كما يتصاعد دخان البخور من جورة اللهب فينشر عطره الزكي؛ جنونها شواشي العقل الملتهب الشغال بغير انقطاع لا ينفصل تياره الكهربي عن كل شيء حولها؛ إنه أجمل وأعقل جنون شفته في حياتي.

في تلك الليلة السحرية الناعمة انتقلنا إلى الشرفة البحرية الدائرة حول غرفة نومها وغرفة نوم طنط نور. جاءتنا الدادة بكوبين من عصير الجوافة؛ رحنا نمعن البصر في مآذن طنطا؛ في المدى القريب جدًا مئذنة البدوي، وفي المدى الأبعد مزارع طنطا ممتدة حيث يرتع فوقها القمر ساخرًا هازئًا بأضواء النيون وأعمدة النور الشاحب المترامية في جوف الأفق. كانت موسيقى شهر زاد تنبعث من جهاز في

غرفة راندا المطلة بباب مفتوح على الشرفة. ينبعث مع الموسيقى عطر راند الشهي المنعش.

تكلمنا كثيرًا في أمور كثيرة حميمة. وكان الهواء العليل قد لطشني، فاسترخيت فوق الفوتي المجدول من خشب البامبو بشلتته المريحة، فيما استرخت هي الأخرى على كرسي مشابه، في مواجهتي، واضعة ساقًا على ساق، ساندة مرفقها الأيمن فوق حافة سور الشرفة. لذنا بالصمت لفترة تقارب ربع أو ثلث ساعة لم أدر فيم كانت تفكر خلالها. أما أنا فقد سرحت بخيالي إلى بعيد، إلى ما قد يحدث لأمي في وحدتها في البلد، وماذا يكون الأمر فيما لا قدر الله لو .. إلخ.

على حين غرة اعتدلت راندا في جلستها مائلة نحوي في مرح؛ الشقاوة عفاريت لطيفة ترقص فوق وجهها رقصة باليه خيل إليّ أنها تهدر بالموسيقى؛ وإذا بها تفجؤني هاتفة بلهجة دافئة كأننا عيال نلعب في الشارع لعبة الحجلة:

ـ «واد يا حمزة!..».

رقص قلبي طربًا من إزالتها للمسافات بيننا على هذا النحو. كل عضلة في جسدي كانت فرحة نشوانة تبتسم قائلة معي إذ أقول:

ـ «نعمين يا آنسة راندا؟».

ـ «باقول لك إيه!».

ـ «قــولي!».

ـ «تيجي نتجوز؟».

ـ «نعــم؟!».

ـ «تيجي نتجوز؟».

ـ «بتقولي إيه؟».

ـ «باقول لك تيجي نتجوز؟».

ـ «بتهزري يا راندا؟!».

ـ «باتكلم جد جدًا!».

بالقوة منعت نفسي من الانتفاض قائمًا لاحتضانها وتقبيلها في كل بقعة من جسدها.. قلت محاولا السيطرة على صوتي:

ـ «هذه أجمل كلمة سمعتها في حياتي!».

ـ «وما الذي يؤخرك؟».

ـ «لا شيء على الإطلاق!».

ـ «عندما نجتمع على مائدة الغداء غدًا نكلم أبي في الموضوع!».

ـ «هل تتوقعين أن يوافق بهذه السهولة؟».

ـ «بابا يوافق على من أختاره بالتأكيد!».

وبالفعل وافق خالي بترحاب شديد، ووافقت طنط نور بسعادة وحسدتني على ما أمتلكه من قدرة على التأثير جعلت ابنتها تطلب الزواج بنفسها. أما سعادتي أنا فلم أحتمل طغيانها. كنت مفعما بمشاعر طازجة تتطلع لحياة مدنية حضرية راقية بعيدة عن خشونة القرية وبداوة البدو؛ لسوف تعلمني تذوق الفنون والآداب وترتقي بذوقي في كل شيء.

سرعان ما طار الخبر إلى أمي في البلد. سرعان ما جيء بمهندسي الديكور والموبيليا لأخذ مقاسات عفش جديد حديث وديكورات تطلبها راندا. ثم ظهرت مشكلة؛ هذا الأثاث الكلاسيكي الثمين الذي يملأ تسع غرف بردهتين كبيرتين، والذي لا يمكن تعويضه، أين يذهب؟ لو بيع نخسر خسارة فادحة ويكسب المشتري ثروة بأرقام خرافية من ثمن التحف والتماثيل وحدها. ولكن خالي عبد الودود - ما أجمله - حسم الأمر بكلمة واحدة: تشحن كل هذه المنقولات إلى دارنا في البلد، بأكملها بحيث نترك الغرف التسع بالردهتين خالية تمامًا، ليتم تجديد الشقة وتهيئتها لأثاث جديد.

تحولت دارنا في البلد فجأة إلى قصر ملكي، بل إلى متحف مهيب رهيب، فالقاعات الواسعة استوعبت، وكذلك الردهتان. باتت دارنا في البلد أكثر أصالة وشموخًا وأبهة من شقتي في طنطا بعد تجديدها وفرشها بأفخم الصالونات والمنقولات. ومع ذلك، كان ثمة ظل من الكآبة لا يزال يعروني كلما تجولت في بلدتنا.

كان الناس قد استردوا بعض صفائهم القديم، حيث كان صوت إسطاسية قد كف عن النواح، فصفا لون الفجر، تحلل نغم الأذان من عكارة كانت تتقاذفه وتشوشر عليه. ولكن في بلدتنا خصلة سمجة هيهات أن تتطهر من رجسها وقذارتها؛ ففي اللحظات التي لا تنشغل فيها بأمر جلل يسيطر على اهتماماتها وأوقاتها، وما أن تستقر الحياة ويروق بال الناس ولو قليلا، حتى يشرعوا في النظر في بعضهم بعضا، في البحلقة، في التقصي عن أسباب الخير الذي هبط على فلان، وأنباء الفضيحة التي فاحت في دار علان. يفرغون للانتقاد والتشنيع،

وربما الابتزاز، وسرقة الأفكار والمشاريع الناجحة لإقامتها هي نفسها في نفس الأماكن بذريعة أن الأرزاق على الله، دونما اعتبار أو نظر إلى أن الله لا يرضى عن ترصد الأرزاق وقطع الطريق عليها وخطفها. كنت أشعر في عيون الناس بأشياء غير مريحة على الإطلاق، بفضول متنمر، بأسئلة واستجوابات متشككة فيما طرأ على حياتي من مظهر خلاب. كانوا لا يزالون يأخذونني بجريرة عائلتي التي كثر فيها المستبدون والقتلة واللصوص آكلو حقوق الناس وأموال اليتامى بالباطل.

نزلت على رغبة راندا، وإلحاح أمي، بأن نقضي الأسبوع الأخير من شعر العسل ـ الذي كان شهرًا كاملا بالفعل ـ في بلدتنا. تريد راندا أن تتعرف على بلدتنا وعلى دارنا في ثوبها الجديد.. كنت أظن أنها ستضيق بالحياة فيها وفي دارنا بعد يومين اثنين؛ فإذا بالأسبوع قد انتهى وهي قد رحرحت، استحلت المرعى، فاستنامت، طلبت المد أسبوعًا آخر، وصممت. هاتفت خالي على المحمول أستشيره فقال: اتركها مع عمتها وتعال. وقد حدث، لكنها في الأسبوع التالي طلبت المد أيضًا؛ ثم كررته في الثالث والعاشر؛ وأخيرًا صارحتني بأن الإقامة في البلدة قد طابت لها؛ فهذا هو الجو الذي كانت تتمناه طول حياتها حيث يتواءم مع مزاجها وروحها التأملية، وبدا لي حينئذ أن قوة في الأرض لن تتعتعها عن هذا القرار الذي اتخذته بالإقامة في البلدة على أن أعود إليها كل أسبوع أو تجيء لي هي من حين لآخر!

قال هاتف في داخلي وأنا عائد وحدي إلى طنطا أقود سيارة راندا الـ «چيب شيروكي»، التي تكاد تصيبني بعدوى النزق: أنت راغب في الرحيل إلى حياة أنظف وزوجك الحبيبة راغبة في الاستيطان بين

الروث والحياة الراكدة!.. لماذا تندهش من هذه المفارقة مع أنك من المفترض أنك قد استوعبت الفرق الحاسم بين شخصيتك وشخصية راندا؟! فأنت تميل إلى الهروب، وهي تميل إلى المواجهة، أنت متحفظ وهي متحررة، أنت مقفول وهي منفتحة، أنت نمطي وهي متجددة على الدوام كل يوم هي طازجة في الفكر في الكلام في الجسد. عندئذ أدركت ـ لأول مرة ـ أن الكثير من المسائل سوف يحتاج حلها إلى الكثير من المتاعب.

منتديات مكتبتنا

(١٨)

الأصول أصول

أمسيت كالمراهق، لا أنام على سريري في طنطا إلا وسماعة الهاتف على صدري لساعات طويلة؛ ليكون صوت راندا آخر الأصوات في أذني قبل النوم، وأول صوت يدخل أذني عند صحوي مباشرة. مع ذلك يظل الاشتياق إلى راندا عارما؛ كدت أفقد توازني في المكتب. وكان خالي يراقبني من تحت لتحت ويغرق في الضحك على هذه الدهولة التي صرت فيها بسبب البعد عن راندا خمس ليال طوال كل أسبوع. أما حماتي طنط نور فكانت دائمة السخرية من ربكتي وتجهمي. كنت أدخل عليها غرفتها أحيانًا فأضبطها تكلم راندا في الهاتف ضاحكة إذ تحكي لها عن أحوالي.

وفي نهاية أحد الأسابيع سافرت إلى بلدتنا وفي نيتي حسم الموقف بشكل نهائي مع راندا حتى وإن اقتضى الحسم بعض الخشونة في الضغط عليها بأن تعقل وتقيم معي حيث أقيم بدلاً من هذا الشتات العاطفي بغير أسباب جوهرية ترغمنا على قبوله. ولكن ما بالي

اليوم أشعر بانتعاش غير عادي يرافقني طوال الطريق إلى البلدة!.. إن العودة إلى البلدة لم يكن لها مثل هذا الطعم الجميل العذب قبل اليوم. هل ذلك مصداق لمقولة جحا عندما سألوه عن بلدته ما تكون فقال: التي تسكنها زوجتي، وقيل بل حبيبتي؟ وهل أنا فرح بالعودة إلى البلدة أم بلقاء راندا الذي سيتم بعد وقت قصير؟.. أكاد أجزم بأني سعيد بالاثنين معًا: راندا والبلدة. فالبلدة يعني أمي، وقبر أبي ومهد أحلامي الغضة حيث كل جمهور يشهد نجاحاتي في الأحلام هو جمهور من أهل بلدتنا، من رفاق الطفولة والصبا والشباب؛ ثم ها هي ذي تكتمل بوجود أم حديثة طازجة هي راندا التي يبدو أنها ـ حتما ـ ستكون خليفة لعمتها.

استقبلتني أمي على البوابة منتظرة حتى أركن السيارة تحت جدار الدوار الذي بات مغلقًا كئيب المنظر بعد أن رفع عنه السلاحليك والتليفون الميري ونقلا بشكل مؤقت إلى دار شيخ البلد محمود أفندي خليفة موجه التربية والتعليم سابقًا، وداره قرب دارنا على كل حال. لمحت من وراء أمي امرأة فلاحة لعلها ضيفة عليها، جميلة جدًا من بعيد، تعصب رأسها بمدورة مشغولة الأطراف بالفل والترتر يتدلى على جبينها، شعرها ملموم في ضفيرة واحدة خلف ظهرها، ومفلوق على الجنبين، وخصلة منه على الجانب الأيسر بارزة من تحت الفل والترتر، وترتدي جلبابًا فلاحيا مزموم الخصر. فرس لو شفتها قبل زواجي من راندا ما ترددت في الدوران عليها والتواصل معها. ما أن دلفت إلى الردهة حتى صعقتني المفاجأة؛ فهذه المرأة الفلاحة لم تكن سوى راندا وقد استفلحت تمامًا وبمزاج رائق. بعد الأحضان الدافئة التي غمرتني من الاثنين دفعتاني للخروج من باب الدار إلى الشارع.

أشارتا لي على واجهة الشقة الجديدة. يا للمفاجأة السارة حقًّا: لافتة خشبية طويلة بعرض باب الشقة، في غاية الجمال والأناقة، مكتوب عليها بالخط الثلث الكبير: (حمزة حامد البراوي ـ المحامي). الله الله الله، وعلى صدغ الباب لافتة أخرى نحاسية محفور عليها الاسم ثنائيًّا هذه المرة: حمزة البراوي ـ المحامي. كيف جاءتها هذه الفكرة وكيف نفذتها؟ ومن الذي كتب لها اللافتتين بهذا الخط البديع؟

قالت أمي وهي لا تزال تبدي إعجابها:

ـ «راندا عملت كل شيء! كلفت واحدًا يعمل مدرسا للزخرفة في مدرسة الصنايع! كتب لها النحاسية والخشبية وهي التي قامت بتعليقهما!».

حقًّا لقد أسعدتني هذه المفاجأة. إن السعادة التي رأيتها تنتفض على وجه أمي كانت بالنسبة لي توازي أعظم حلم وقد تحقق؛ لقد كان حلمها هي، وإني لأشعر في هاتيك اللحظة كأنني أولد حقًّا من جديد. راحت أمي تثرثر من فرط الفرحة في نزق وحبور، أخبرتني أن راندا سافرت إلى كفر الشيخ عدة مرات من أجل المطبوعات. مطبوعات؟..

ـ «طبعًا! ألست محاميًا قد الدنيا؟ دوسيهات وملفات وحوافظ ودفاتر لكتابة المذكرات ومظاريف بكل المقاسات وكروت صغيرة للجيب بأرقام التليفون والعنوان!.. أمال يا حمزة! أبوك الآن يصحو! صدقني يا حمزة إن قلت لك إنه كان نائمًا في حضني ليلة أمس بكاملها!.. أما الذي لن تصدقه أبدًا هو أن أباك الشيخ حامد زار امرأتك راندا في المنام وسلم عليها وملس على شعرها!».

سبحانك اللهم؛ هل تكون مصائر البشر محبوكة على مقاساتهم منذ لحظة سكون البذرة في الرحم؟ أحيانًا يتصور الواحد منا أنه هو الذي اختار هذا الطريق أو ذاك وهو لا يدري أنه قد وُجه إليه بلوغًا إلى مصير بعينه غير الذي كان يرجوه من الطريق الذي اختاره. كانت تنتابني مثل هذه المشاعر وأنا مفعم بالرضا التام عما آلت إليه أوضاعي. لقد بات لي مركز حميم في بلدتي أشتاق للعودة إليه كل أسبوع؛ إلى أن بدأت إجازات المحاكم الصيفية ففضلت قضاءها في بلدتنا لمراجعة هذه الكتب التي اشتريتها لتكوين مكتبة قانونية خاصة بي. إن هي إلا أيام قليلة وهاتفتنا حماتي طنط نور، فاجأتنا بأنها قبل ذهابها إلى المصيف رأت أن تمر علينا بالسائق فإن أردنا الذهاب معها فأهلا وسهلا وإن لم ترد مكثت في ضيافتنا يوما بليلتين ثم تتكل على الله للحاق بالأستاذ في المصيف. كانت تشكو طول عمرها من لين في العظام ووجع في المفاصل، تمشي متوكأة على عصا مع أنها بصحة جيدة ورشيقة ولا يبدو عليها أي مظهر مرضي. استحلت القعدة تحت الشمس في فناء دارنا الخلفي الذي زرعناه وخضرناه ونسقناه؛ فإذا بها تستريح في قعدتها؛ وإذا بها حين وقفت مشت وحدها ناسية العكاز؛ فزغردت أمي وصفقت راندا مهللة، واندهلت طنط نور من المفاجأة؛ راحت تخطو برشاقة، ثم تجلس وتمدد ساقيها تشدهما بلا وجع. مدت الإقامة يومين فإذا بها في تحسن مضطرد، وتنفتح شهيتها للفطير والجبن القريش والقشدة. فكانت النتيجة أن قررت قضاء الصيف عندنا. وكان لا بد أن يجيء الأستاذ ليرى ما هذا الذي يجري عندنا؛ فإذا بالدم يتدفق في وجهه مشرقًا بالحيوية بمجرد رؤيته لطنط نور التي تحسنت صحتها كأنها كانت في مشفى سحري. فبات هو

الآخر يجيء كل أسبوع مرتين، فأسافر معه لمباشرة بعض الأعمال في مكتبه ثم يسافر هو إلى المصيف وأعود أنا إلى البلدة.

غير أن مفاجأة أشد دويًا قد حدثت من حيث لا ندري ولا نحتسب، فصعقتنا جميعًا.

كنت جالسًا وراندا وحماتي وأمي في حجرة مكتبي في الشقة الجديدة نتكلم في الدنيا وأحوالها، الوقت كان أصيلا على مشارف الشفق، فسمعنا طرقًا على الباب. فقمت لأفتح؛ وقمن ثلاثتهن ورائي في قليل من التوجس. فتحت الباب على مصراعيه.. فإذا بإسطاسية واقفة أمامي.. ومن ورائها المقدس عازر صبحي!..

ارتبكت، بل اضطربت؛ بل سمعت صوت الاضطراب الذي حل بأمي وانتقلت عدواه في الحال إلى زوجي وحماتي.

قالت إسطاسية في بساطة آسرة:

ـ «اتمسى بالخير يا أستاذ!».

هتفت في ترحيب:

ـ «أهلا وسهلا ست إسطاسية! اتفضلي! اتفضل يا مقدس عازر! خطوة عزيزة!».

دلفت إسطاسية إلى الداخل ودلف وراءها المقدس عازر قائلاً:

ـ «يا ساتر! سا الخير يا هوانم!».

صحن في صوت واحد:

ـ «يسعد مساك يا مقدس!».

كانت إسطاسية تمسك لفة أسطوانية الشكل من أوراق مبرومة حول نفسها. لوحت بها وهي تجلس على أول كرسي في الأنتريه في الردهة؛ ثم قالت:

ـ «مش حضرتك محامي برضه؟».

ـ «طبعًا! وتحت أمرك وأمر الناس كلها!».

قال المقدس عازر:

ـ «معندكش فكرة يا أستاذ إحنا فرحنا قد إيه لما قرينا اليافطة! حضرتك أول محامٍ يفتح في بلدنا! حتريحنا كتير قوي إن شاء الله!».

قلت في فرحة سخنة:

ـ «أتعشم إن شاء الله يا مقدس!».

فلوَّحت إسطاسية باللفة الورقية وقالت:

ـ «عاوزاك ترفع لي قضية!».

قلت بمنتهى الصدق والحماسة:

ـ «من عيني الاتنين! وبالمجان كمان! وكمان أدفع لك رسومها من جيبي لو حبيتي! دي أول قضية تدخل مكتبي ولازم يكون لها وضع خاص!».

رحت أنظر لراندا وأمي وطنط نور في غبطة ونشوة.. فبادلنني نفس النظرة في تفاؤل بهيج. قلت لإسطاسية:

ـ «قضية إيه يا ست إسطاسية! ضد مين؟».

لوحت بالأوراق التي وضح من شكلها أنها صور فوتوغرافية من مستندات قديمة، وقالت في بساطة وتلقائية مدهشتين:

ـ «ضد الحاج عابد البراوي!».

ألجمتني المفاجأة. تجمدت في مكاني، شُل تفكيري. في تيه من الحيرة والذهول وقعت نظرتي في عيني أمي؛ فإذا هي بعد أن ضربت صدرها وشهقت من عنف المفاجأة ولعلها ولولت في سرها. وجهت لي نظرة محايدة تمامًا، بدا في عينيها كأنها تقول لي بصريح العبارة: أنت حر! ولا دخل لي في شغلك فتصرف. نقلت نظرتي إلى راندا؛ فإذا هي مشرقة جريئة مجنونة تومئ لي بالموافقة بدون تردد. فأصابتني عدوى الشجاعة وقلت لإسطاسية على سبيل التمهيد للدخول في الجد:

ـ «إيه نوع القضية يا ست إسطاسية؟».

قال المقدس عازر:

ـ «إن سمحت لي يا أستاذ أتكلم أنا! أصلها مخها على قده!».

لطشتني عبارته الأخيرة فتذكرت أنها قالت: ضد الحاج عابد البراوي ولم تقل: ضد عمك؛ كأنها اعتبرته شخصًا عاديًا من عامة الناس، كأنه ليس عمي الأكبر؛ فهل تراها تعي ذلك وتتحداني؟! أم أنها ساذجة وعلى نياتها إلى هذا الحد؟ سألتها قبل أن يستطرد المقدس عازر:

ـ «يا ست إسطاسية حضرتك الأول تعرفين أن الحاج عابد البراوي ده يبقى عمي لزم؟».

بمنتهى البساطة، وبلهجة استنكارية تلقائية قالت:

ـ «إيوه أمال! عارفه طبعًا إنه عمك الكبير!».

غلبتني الابتسامة وإن كانت مُرة:

ـ «تعرفين أنه عمي الكبير.. وجايه لي عشان أرفع لك قضية ضده؟!».

صنعت من يدها تندة فوق عينيها وحملقت في وجهي صائحة:

ـ «مش حضرتك محامي؟ ولا أنا غلطانة؟».

ـ «أيوه محامي طبعًا!».

ـ «خلاص يا عم الأستاذ! وآدي قضية جاية لك!

ما تستهزأش بينا حضرتك! معاك من جنيه لألف!.. دي لسه فيه قضية كمان ضد عمك العمدة والورثة عشان نصفي الشركة بس أما نخلص من دي الأول!».

ـ «يا ريتها داهية فلوس يا ست إسطاسية!».

ـ «يبقى ربنا معاك! ويا بختك بيه لو راضيته!».

شعرت أنها تحاصرني بالمنطق الفطري المتسق تمامًا مع روح القانون وجوهره وكلمته. قلت:

ـ «إيه بقى القضية؟».

قال المقدس عازر:

ـ «أرض الغطاسين اللي البراوية اغتصبوها! وآدي كل وثائقها اللي تدي إسطاسية وتديني حق التقاضي بشأنها!.. ومن بكره الصبح

آخدها على الشهر العقاري تعمل لحضرتك توكيلاً باسمنا إحنا الاثنين!».

بحر التيه يتسع وتتلاطم أمواجه في عقلي وصدري. أمي صادرت نظراتها، منكسة عينيها في الأرض كما ينكس الخفير بندقيته علامة التسليم بالسلم. طنط نور هي الأخرى جعلت تفرغ توترها في التقليب في مجلة قديمة كانت على طاولة الأنتريه. لم يبق إلا عيني راندا، واقفتين فوق كرسي خديها تطلان من خلف مسند الكرسي المواجه لي، صاحيتان، متحديتان، مجنونتان، حبيبتان؛ كانتا ترمقان ترددي وعجزي وارتباكي في كثير من الاشمئزاز عجزتا ـ لبلاغة فيهما ـ عن مداراته عني، مما أشعرني بالضآلة، بأني سوف أسقط من شرفتي عينيها كأني أسقط من شرفة ناطحة سحاب شاهقة. وكان بحر التيه يضيق شيئًا فشيئًا فأرى على شطآنه أولاد عمومتي ينظرون لي بحقد واشمئزاز ووعيد، وأرى شخوصًا كثيرين يوجهون لي نظرات لوم ودهشة، وأرى البحر يزداد ضيقًا فيصير فتحة بئر سحيق تحيط برقبتي إحاطة السوار للمعصم، ورأيتني أهبط مشدودًا لأسفل وروحي تحاول الصعود إلى بارئها قبل أن تنطبق فتحة البئر فوق دماغي. عندئذ نفضتني حلاوة الروح مرتعدا ثم متماسكًا لأفيق على حقيقة ماثلة: قبولي لقضية إسطاسية هو الحبل الذي يجب أن أمسك به للصعود..

ـ «خلاص يا ست إسطاسية! حارفع لك القضية!».

في الحال رفعت أمي عينيها فإذا هما قد غسلتا من كل غبار وبدتا في غاية من الصفاء. ورفعت طنط نور رأسها وتنفست بعمق وانبسط

وجهها. في حين هرولت راندا إلى غرفة المكتب وعادت ممسكة بملف سميك من مطبوعات مكتبي. أخذت الأوراق من إسطاسية، جلست إلى الطاولة، فردت الأوراق ووضعتها في الملف ثم راحت تكتب البيانات على سطحه المخطط بجدول ثابت. رحت أرقبها والذهول يطرق رأسي بسؤال ملحاح: هل هي صدفة أن يتحول طموحي في النيابة العامة إلى طموح في مهنة المحاماة، وأن تكون قضية إسطاسية هي أول قضية تدخل مكتبي؟ لم يكن في ذهني ثمة من جواب؛ ولكن حينما قدمت لي راندا ملف القضية نظرت في عينيها فخيل إليّ أنهما سامر شعبي يرقص فيه حشد من الناس على نغم المزمار.

تمت

المعادي الجديدة.. شارع النصر

في صباح الجمعة ٥ / ١٢ / ٢٠٠٨

منتديات مكتبتنا

المحتويات

منتديات مكتبتنا